





موسوعة

ملخّصات أمّهات تُراثنا

الإنسانيّات

مئة كتاب وكتاب

تأليف: الدكتور أيّوب أبو ديّة

مراجعة وتحرير:
الأستاذ الدكتور هُمام غَصيب

موسوعة ملخّصات أمّهات تُراثنا

(الإنسانيّات)

في مئة كتاب وكتاب

موسّوعة ملّخصات أمّهات تُراثنا

(الإنسانيّات)

في مئة كتاب وكتاب

تأليف

الدكتور أيّوب عيسى أبو ديّة

مراجعة وتحرير

الأستاذ الدكتور هُمام غَصيب

٢٠٢٠

• **موسوعة ملخصات أمهات تراثنا**

(الإنسانيات)

• **د. أيوب عيسى أبو دية**

• **الناشر: وزارة الثقافة**
شارع صبحي القطب
المتفرع من شارع وصفي التل
ص. ب ٦١٤٠ – عمان - الأردن
تلفون: ٥٦٩٦٢١٨/٥٦٩٩٠٥٤
فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

Email: info@culture.gov.jo

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٠/٦/١٦٨٣)

٨١٠,٣

أبو دية، أيوب عيسى

موسوعة ملخصات أمهات تراثنا: الإنسانيات / أيوب عيسى أبو دية –
عمان: ٢٠٢٠

( ) ص

ر. إ.: ٢٠٢٠/٦/١٦٨٣

الواصفات: / التراث/ / الآداب العربية/ / الثقافة العربية/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• **الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف ٠٧٩٩٦٧٧٥٦٩**
ردمك: 978-9923-13-304-0

المحتويات

مقدّمة

بدأتْ فكرة هذا العمل الموسوعيّ تتبلور إثر حواراتٍ مُكثّفةٍ دارت بيني وبين الأستاذ الدكتور هُمام غَصيب، عضو مَجمع اللغة العربيّة الأردنيّ، عن قضايا تُراثيّةٍ شتّى. وتخلّل تلك الحوارات إشاراتُه المُتعدّدة إلى بعض ذخائر تُراثنا وأعلامِه. وكان ذلك مصدر إلهامٍ لي للتفكير في عمل موسوعيّ، ربّما يُشكّل قيمةً مُضافةً في المكتبة العربيّة. وشجّعني على ذلك تجربةٌ سابقة لي في العمل «الموْسوعيّ»؛ هي «موسوعة أعلام الفكر العربيّ الحديث والمعاصر»، التي نشرْتُ طبعتها الأولى عام ٢٠٠٨، بدعمٍ سخيّ من وزارة الثقافة، وصدرت مؤخّراً عن طبعة رابعة مُنقّحة لعام ٢٠١٩.

تسعى هذه الموسوعة إلى عَرْض غير مُخلّ لمئة كتابٍ وكتاب من عيون تُراثنا في مجال الإنسانيّات، على شكل مُلخّصات لا يتجاوز الواحد منها نحو ٧٠٠ كلمة. وهدفها من ذلك تعريفُ القرّاء العرب، لا سيّما الناشئة والشبّان منهم، بذخائر تُراثنا؛ ومن ثمّ ترغيبهم في الاطّلاع على الأصول كاملةً لأيّ كتابٍ يجذبهم موضوعه.

ومن أهدافها أيضـاً تعزيز انتماء أبنائنا لأمّتهم، إسوةً بأبناء الأمم الأخرى. فالعوْدة إلى الجذور والأصول والمظانّ ليست «ماضويّة»؛ وإنّما ترسيخ للهُويّة والإحساس بأنّ الأبناء هم حقّـاً ورثة الأسلاف العِظام وامتداد لهم. كذلك، تهدف إلى تزويد طلبتنا بمادّة ملائمة لمشروعاتهم المدرسيّة والجامعيّة، ولبعض المقرّرات، مثل «مُتطلّبات جامعة»؛ فضلاً عن وضع، بيْن أيدي المنظّمات العربيّة المعنيّة بالترجمة، كتابٍ صالحٍ للترجمة إلى بعض اللغات الحيّة، خدمةً للثقافة العربيّة الإسلاميّة.

اختيرت معظمُ الكتب من كنوز تراثنا الممتدّ بَيْن القرن الثاني للهجرة وسقوط غرناطة، آخر معاقل العرب في الأندلس، سنة ٨٩٧ للهجرة / ١٤٩٢ للميلاد. ورُتّبت المُلخّصاتُ ترتيباً تاريخيّاً، لتسليط الضوْء على تطوير أساليب الكتابة ومضامينها. ووُضعت فهارسُ لأسماء الكتب والأعلام مرتبة ألفبائيّاً لتسهيل البحث عن الكتب والأعلام.

وقد استُثني الشعر من الموْسوعة، مع أنّه «ديوان العرب»، لاعتبارات واضحة: فالشعر لا يُلخّص؛ ثمّ إنّ «معجم البابطين لشعراء العرب» كفّى ووفّى في هذا الصدد. كذلك، لم تتناول الموسوعة، عموماً، كتب اللغة والفقه والسيَر. واقتُصرت على كتب غير إشكاليّة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة.

من المشكلات التي واجهت هذا العمل تنوّع الطّبعات وكثرة المُحقّقين، عدا أنّ بعضَ هذه الطبعات غير محقّقة بعد، فلا نعرف إذا كانت مصحّفة أو أصيلة، أو ناقصة مبتورة، فتحتوي على أجزاء غيْر مُكتملة من الكتاب أو مُختارات مُجتزأة؛ الأمر الذي يُقطّع أوصال العمل، ويُفقده رونقه وبهاءه، ويُضفي عليه الغموض.

وهنالك طبعات أخرى رديئة التحقيق والتحرير؛ كأنْ تُكرّرَ بعضُ الفقرات لزيادة حجم الكتاب! لذلك، نأمل أنْ تَخضعَ كتب التراث لرقابة صارمة؛ فتصدرَ في طبعاتٍ مُتقنة، شكلاً ومضمونـاً، خدمةً للباحثين والقُرّاء.

وإذ نتطلّع إلى ردود أفعال قُرّائنا الكرام على هذه الموسوعة، فإنّنا نأمُل أنْ تكبرَ موْسوعتنا مع مرور الزمن؛ بكم ومن أجلكم.

المؤلّف

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور هُمام غصيب لمراجعته وتحريره هذا العمل الموسوعيّ بشغف واهتمام بالغين، ولوزارة الثقافة الأردنيّة لتبنّيها طباعة هذه الموسوعة ونشرها. كذلك أشكر فريق العمل الإداري، بإشراف الآنسة أحلام محمّد أعمر، والأستاذ جاد الكريم الجباعي الذي حرّر بعض ملخّصات الكتاب، إضافة إلى الدكتور سميح مسعود الذي أسهم بتلخيص كتاب «طوق الحمامة»، والدكتور مالك المفتي لملاحظاته القيّمة على نص ابن خلدون، وكل من دعمني وشجّعني على إنجاز هذا العمل.

١ - الكتاب: ألف ليلة وليلة[١]

مجموعة مؤلّفين

يتضمّن كتاب «ألف ليلة وليلة» مجموعة من القصص والروايات التي جُمعت عبر قرون العصر الذهبي للإسلام. وتعود في أصولها إلى حضارات بلاد ما بين النهرين، والبلاد المصريّة، والفارسيّة، التي تأثّرت بالأدب الهنديُّ. تُرجم الكتاب إلى اللغة العربيّة خلال العصر العبّاسيّ. ويتضمّن قصصاً؛ مثل: «علاء الدين والمصباح السحري»، و«علي بابا والأربعون حرامي»، و«حكاية التاجر مع العفريت»، و«حكاية قمر الزمان مع معشوقته»، و«رحلات السندباد البحري السبع»، وغيرها، فضلاً عن «حكايات شعبيّة» أضافها المستشرق أنطوان غالام وآخرون. كما تَرجم غالام الكتاب إلى اللغة الفرنسيّة عام ١٧٠٤ للميلاد؛ فيما صدرت النسخة الإنجليزيّة الأولى عام ١٧٠٦ للميلاد، وظهرت النسخة العربيّة الأولى عام ١٨٢٥ للميلاد بألمانيا، وتُرجمت إلى اللغة الألمانيّة.

تدور قصص الكتاب حول مَلِك يُدعى « شهريار» اكتشف أنّ زوجته كانت تخونه؛ ففقد الثّقة في عموم النساء. لذلك، قرّر الزواج من العذارى فقط؛ وكي يضمن ألّا تخونَه زوجته من جديد، كان يَأمر بقتل العروس ليلة الزفاف. وتقول الرواية إنّه، بمرور الوقت، لم يتبقَّ عرائسُ في مملكته؛ فاضطر الوزير أنْ يُقدّم له ابنته « شهرزاد»، التي وافقت أنْ تصبح زوجة للملك. ولاجتناب تكرار المأساة معها، أخذت تروي له الروايات المشوّقة دون أن تنهيها، مثيرة فضول الملك لسماع نهاية حكاياتها. فتأجّل

(١) ألف ليلة وليلة؛ بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الرابعة، ٢٠١٠، أربعة أجزاء، في مجلّدين.

إعدامها ليلة إثر أخرى. واستمرّت في رواية الحكايات كل ليلة والتوقّف عند اللحظات المثيرة، حتّى أكملت ليلتها الألف.

يختلف أسلوب القصص في الكتاب حسب المجموعة. فهناك مجموعة بغداديّة تروي الأحداث في بغداد زمن هارون الرشيد، وتتّسم غالباً بمتانة العبارة ودقّة الوصف، مع كثرة في السجع. وهناك مجموعة أخرى مصريّة تمتاز بالنحو الضعيف والألفاظ العامّيّة المتناثرة هنا وهناك، ويُعدّ بعضها شديد الوطأة على الحياء. وفي الكتاب أيضاً بعض الأشعار التي يمكن نسبتها إلى شعراء من العصر العبّاسي؛ كأبي نواس، وجلال الدين الرومي، وغيرهما.

في الليلة الأولى تروي شهرزاد للملك قصّة تاجر قابل عفريتاً في سفره، اتهمه العفريت بأنّه ألقى نواة تمرة أكلها، فأصابت صدر ابنه فمات. فقرّر العفريت الانتقام لابنه بقتل التاجر، فتوسّل إليه أن يتركه يذهب لأهله ليسدّد ديونه ويودّعهم، ثم يعود إليه ليقتله، فوافق العفريت. وعندما عاد التاجر وفاءً لوعده، جلس ينتظر العفريت، فمرّ به شيخ معه غزالة، وآخر معه كلبان، وثالث معه بغلة، وانتظروا متشوّقين ليشاهدوا ماذا سيحصل.

وعندما حضر العفريت وهَمّ بقتل التاجر، اقترح الشيخ الأوّل أنْ يروي للعفريت قصّة الغزالة العجيبة مقابل ثُلث دم التاجر، فوافق العفريت، بشرط أنْ تكون الرواية عجيبة فعلاً، فاتّضح أنّ الغزالة هي ابنة عمّه التي سحرتها الجن. كذلك فعل الشيخ الثاني، فادّعى أنّ الكلبين إخوته، والثالث أيضاً شرح قصّة البغلة. وتتوقّف الرواية عندما تصل أوجها في التشويق، فتتركها شهرزاد تلك الليلة لتعود إليها لتكملها في الليلة الثانية. وهكذا تستمر الروايات من ليلة إلى أخرى بلا انقطاع.

وتنتهي القصّة بعدد من السيناريوهات: فمنهم من يقول إنّ الملك عفا عن شهرزاد بعد تلك الليالي كلّها؛ وآخرون يقولون إنّه عفا عنها بعد إنجاب أولاد. وربّما تكون

القصّة بأكملها من نسج الخيال. ومهما يكن من أمر، فهناك خلافات حول أصول هذه القصص والحكايات، رغم وجود دلائلَ قويّة على أنّ أغلبها كُتب في العصر العبّاسيّ؛ بدليل ذِكر بَغداد، والبَصرة، والموْصل، والقاهرة، ودِمشق، وحَلب، وهارون الرشيد، في أحداث الرواية.

وظهر أثر ترجمات الكتاب واضحاً في الأدب والشعر في أوروبا. فتأثّر به سير والتر سكوت، وتوماس مور، ولورد بايرون، وغيرهم؛ خاصّة ديوان لورد بايرون «حكايات شرقيّة». وتمتاز روايات ألف ليلة وليلة بالخيال العلميّ، كما في رواية «حكاية بالوقيا» التي جاءت في الليلة ٤٨٦. وتروي أنّه خلال مساعي بطل الرواية «بالوقيا» في الحصول على عشبة الخلود، فإنّه يستكشف البحار، ويذهب في رحلة إلى الجنّة والجحيم، ويسافر عبر الكون في عوالم مختلفة، ويُصادف مجتمعات الجِنّ وحوريات البحر والأشجار الناطقة.

وهذا الخيال العلمي أثّر في أدب الجاحظ، والمعرّي في روايته «رسالة الغفران»، وابن شهيد الأندلسي في «التوابع والزوابع». كما أثّر في حكايات كانتربري من تأليف الأديب الإنجليزي الكبير تشوسر؛ خاصّة فكرة «الحصان الطائر المسحور». وأثّر عموماً في أدب الخيال و«الفنتازيا»، مثل: المصباح السحري أو مصباح علاء الدين، والخاتم السحري أو خاتم سليمان، وبساط الريح، وغيرها.

ترك الكتاب أيضاً انطباعات مهمّة لدى الروائيّين العرب في العصر الحديث. فأدّى إلى إغناء الخطاب الروائي العربيّ وفضاءاته. وها هو يُصبح مصدراً للإلهام عند كُتّاب عرب كبار؛ مثل: توفّيق الحكيم في مسرحيّة شهرزاد، وطه حسين في أحلام شهرزاد، ونجيب محفوظ في ليالي ألف ليلة، والطيّب صالح في رواية بندر شاه، ونحوها.

كذلك، ألهم الكتاب عدداً من الموسيقيّين العالميّين تأليفَ مقطوعاتٍ موسيقيّة متألّقة، كالقصيدة السيمفونيّة «شهرزاد»، للروسيّ رمسكي كورساكوف، و«علاء الدين» للدنماركيّ كارل نيلسُن، وغيرهما. وظهرت أفلام عالميّة متأثّرة بالكتاب

منذ مطلع القرن العشرين، مثل: «كرتون» علاء الدين، الذي أعيد مؤخراً بطاقم من الممثّلين، وكلا الفيلميْن من إنتاج شركة ديزني؛ ولص بغداد، وغيرها.

إنّ هذا الأثرَ العالمي الذي يجمع حكاياتٍ من مختلِف الحضارات العريقة، مسبوكةً بعقل عربي إسلامي في أوج الدولة العبّاسيّة، وجد طريقه إلى أعمق أعماق الوجدان الإنسانيّ. لكنْ، كم منّا قرأ الكتاب، أو حتّى أجزاءَ منه؟

•••

٢- الكتاب: كَليلة ودِمنة[١]

ترجمة: عبد الله بن المقفّع (١٠٦ – ١٤٢هـ / ٧٢٤ – ٧٥٩ م)

هو أبو محمّد، عبد الله بن المقفّع، كاتب فارسي، ولد مجوسيًّا واعتنق الإسلام. تعلّم العربيّة في البصرة، وعمل كاتبًا لدى كثير من ولاة عصره. ويقال إنّه ظل مواليًا لفارس، ومات مقتولاً في عهد الخليفة المنصور، على يد سفيان بن معاوية والي البصرة، مُتّهمًا بالزندقة. ويقال إنّ بعض أعضائه حرقت في التنور وهو حيّ. كان المقفّع واسع العلم، وترك أعمالاً كثيرة؛ منها: «خداي نامه»عن تاريخ الفرس وملوكهم، وكتاب عن عادات الفرس وثقافتهم، وكتاب عن تشريعات الفرس القدامى، وكتاب «التّاج» عن سيرة «أنو شروان»، و«مزدك»، و«الأدب الصغير»، و«الأدب الكبير»، و«الدرّة اليتيمة والجوهرة الثمينة في الأدب»، و«اليتيمة في الرسائل»، وغيرها. وله ترجمات لبعض فلسفة أرسطو، كالمقولات العشر.

«كَليلة ودِمنة» اسمان لأبناء آوى ذوي الدهاء والحكمة. وضع الكتابَ الفيلسوف الهندي «بيدبا» باللغة السنسكريتيّة لملك الهند «دَبشليم»، بعد أنْ طغى، تحت عنوان «الفصول الأربعة»؛ كي يساعده ويحثّه على إقامة العدل في مملكته، وفي الوقت نفسه كي يكون كتابًا يُنسب إلى الملك ويخلّد ذكراه. قَبِل الملك بذلك، بعد أن كان قد غضب من بيدبا وسجنه وعذّبه.

والحكمة المستمدة من هذا الكتاب تصلح لكل زمان ومكان. وتتضاعف أهميّته لأنّ النسخة الهنديّة الأصليّة كُتبت في النصف الأخير من الألفيّة الأولى قبل الميلاد؛

---

(١) كليلة ودِمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع؛ تحقيق عبد الوهاب عزام وطه حسين، القاهرة: هنداوي، بلا طبعة، ٢٠١٢.

في حين فُقدت الترجمة الفارسيّة. وقد أخرج النسخة العربيّة الأب لويس شيخو عن مخطوطة قديمة؛ فيما تمكّن عبد الرحمن عزام من الرجوع إلى مخطوطة أقدم منها بقرن من الزمان.

يقال إنّ بيدبا مكث مع تلميذه سنة كاملة خلف أبواب مغلقة في تصنيف الكتاب. وجعلاه على ألسنة البهائم والطيور كي يلهو به العامّة من الناس؛ في حين يستخلص العقلاء منه الحكمة. ويُقال أيضاً إنّ كسرى ملك الفرس أرسل طبيبه الفارسي «برزويه» إلى الهند ليحصل على نسخة من الكتاب الأصلي، وعلى غيره من الكتب، بمساعدة صديق هندي. فترجمها إلى اللسان الفارسي، وجعلها في خزائن فارس، وأضاف إلى ترجمته الفهلويّة (لغة فارس) حكايات هنديّة أخرى. وبعدها ترجم عبد الله بن المقفع الكتاب إلى اللغة العربيّة، ووضع له مقدّمة مهمّة، وأضاف إليه باباً جديداً تحت عنوان «الفحص عن أمر دِمنة»؛ كما ألحق به أربعة فصول لم تكن موجودة في الأصل الفارسيّ.

يبدأ الكتاب الأصليّ بمقدّمة على لسان برزويه، تتضمّن طلباً من السلطان أنْ يسمح له بوضع الباب الذي ألّفه هو قبل باب «الأسد والثور»، وهو أوّل أبواب الكتاب؛ وذلك تخليداً لدوره المهم في «سرقة» الكتاب من خزائن الهند. وهكذا يبدأ الكتاب بالباب الأوّل المذكور، يليه الآتي: باب الفحص عن أمر دِمنة، والحمامة المطوّقة، والبوم والغربان، والقرد والغيْلم، والناسك وابن عرْس، وابن الملك والطائر فنزة، والأسد والشغبر الناسك، والسّنّور والجرذ، والملك والطير، والحمامة والثعلب ومالك الحزين، وغيرها؛ علماً أنّ هناك اختلافاً في الأبواب من طبعة إلى أخرى، كما أُضيفت فصول على النص الأصلي، وحُذف بعضها في النسخة الفارسيّة. لذلك اقترح طه حسين في تقديمه للكتاب أنْ تقوم دار المعارف بتحقيق النسخ المتوافرة عن كليلة ودِمنة كافّة، والمفاضلة بينها، لإخراج نسخة أحدث تكون أقربَ إلى النسخة الأصليّة.

لا يخلو الكتاب من فلسفة إخوان الصفا، التي سعت إلى التقريب بين الدين والفلسفة عبر تضافر أهل العلم والمعرفة، للسعي إلى تطهير النفس عبر العلوم التي تؤدّي إلى سعادتها. ويجيء الكتاب جامعاً بين الحكمة والتشويق، على لسان الطير

والحيوان، لتمرير ما لم يستطع الحكماء قوله مباشرة للحاكم. فهو الذي أمر بتعذيب والد عبد الله بن المقفّع. والحق أنّ والده أخذ كنيته، المقفّع، من نتاج التعذيب؛ حيث تشنّجت أصابع يديه على يد الحجّاج. أمّا ابنه، عبد الله، فقد خسر حياته بأنْ حُرقت أعضاؤه بالتنور وهو ما زال حيّاً؛ مع أنّ ذنبه أنّه اجتهد في نقل المأثور على قاعدة «ناقل الكفر ليس بكافر». ويُقال إنّ مقتله جاء على خلفيّة كتابة ميثاق بين عبد الله بن علي، عمّ السفاح، والخليفة المنصور.

يُعبّر الكتاب عن أدب النصح الذي برع فيه الأدب العربي. وقد تناوله أحمد شوقي في شعر «النصح السياسي». وقال فيه طه حسين إنّه «رمز لتعاون إنساني في خدمة الفكر والثقافة والأدب». وحاكاه الشاعر الفرنسي ألفونس دي لامارتين. وليس الكتاب نقلاً وترجمة مباشرة؛ بل اجتهد ابن المقفع في صياغته بما يتوافق مع الثقافة العربيّة الإسلاميّة السائدة آنذاك. لذلك، ارتقت أهميّته إلى مصاف الأدب العربي الكلاسيكي الذي زاوج الفلسفة الإغريقيّة بالفلسفة العربيّة، والعقيدة الإسلاميّة، وحكمة الهنود، وعلم السياسة الذي برع فيه الفرس.

حاول ابن المقفع التوفّيق بينها جميعاً على النحو الذي سعى إليه فلاسفة العرب، ابتداءً من أبي يعقوب الكندي الذي سعى للتوفّيق بين العقيدة والفلسفة؛ بل رأى طه حسين أنّ الكتاب له معنى سام في «الوحدة العقليّة الشرقيّة» التي تحثّ على التعاون والتضامن بين الشعوب. فأصبح تراثاً إنسانيّاً يذكّرنا بإمكانيّة الاتفاق على الحكمة والعلم والمعرفة، بدلاً من التناحر والانعزال عن بعضنا بعضاً.

•••

٣- الكتاب: أمثال العرب[١]

المُفضّل الضّبي (؟؟ – ١٦٨ هـ / ؟؟ – ٧٨٤ م)

هو أبو العبّاس، المُفضّل بن محمّد بن علي بن عامر الضّبِي. يعود في أصوله إلى الكوفة، من بني ثعلبة بن السيّد بن ضبّة. ويُعدّ من رواة العرب، وعلّامة الشعر والأدب، وعالمًا بأيّام العرب. كما يُعدّ، إلى جانب حمّاد الراوية، من أوّل من جمع المعلّقات السبع. انضم إلى شيعة العلويّين وقاتل العبّاسيّين، ولكن ما لبث أنْ عفا عنه الخليفة أبو جعفر المنصور؛ لأنّه كان أحفظ الكوفيّين للشعر، فجعله الخليفة مؤدّبًا لابنه محمّد المهدي الذي خلفه. ضُرب المثل بلؤمه وسلاطة لسانه؛ كما اتُّهم الكثير من معاصريه بانتحال الشعر. له مؤلّفات شتّى في العَروض ومعاني الشعر والألفاظ؛ منها «المُفضّليات». وهذه مجموعة المُفضّل الضّبِي من ١٢٨ قصيدة، سمّيت هكذا نسبة إلى حافظها وجامعها.

تَنبع أهمّيّة هذا الكتاب من أنّ مؤلّفه كان أوّل من جمع أمثال العرب. وقد اعتمد عليه، على سبيل المثال، الإمام الحافظ أبو عُبيد القاسم بن سلّام (ت ٢٢٤ هجري) اعتماداً كبيراً في تصنيف «كتاب الأمثال» [راجع المُلخّص رقم ٦ في هذه الموْسوعة]. كذلك، كان المُفضّل الضّبِي أوّل من جمع المعلّقات السبع (هو وحمّاد الراوية). وقد اشتُهر المُفضّل بقدرته الهائلة على حفظ الشعر والأمثال؛ فيما بات لؤمه مضربـًا للأمثال، كما جاء في هذا البيت:

ولو ذبح الضّبِي بالسيف لم تجد

من اللؤم للضبي لحمًا ولا دما

---

(١) المُفضّل الضّبِي ، أمثال العرب، القسطنطينيّة: مطبعة الجوائب، الطبعة الأولى، ١٣٠٠ للهجرة.

ويمكن القول إنّ طه حسين تأثّر به في كتابه «في الشعر الجاهلي»؛ لأنّ المُفضّل اتّهم الكثيرين في زمانه بانتحال الشعر. وربّما أسهم ذلك في تنبيه طه حسين إلى أنّ معظم الشعر الجاهلي كان منتحلاً، لا سيّما في العصريْن الأموي والعبّاسي؛ وذلك لأسباب سياسيّة، لإعلاء شأن بعض القبائل على حساب أخرى.

تضمّن كتاب «أمثال العرب» ثماني وثمانين قصّة تباينت في الطول، أطولها ناهز ٢٩ صفحة؛ فيما احتل بعضها الآخر فقرة قصيرة. واستغنى المُفضّل عن السنَد؛ فافتتح قصصه بالمفتاح السردي «وزعموا»، وذلك وفق أسلوب ابن المقفّع في كتابه «كليلة ودِمنة». ويتبع القصّة المثل المستهدف، تصاحبه التعليقات اللغويّة أحيانًا، وما قيل عنه في الأشعار.

يبدأ المُفضّل كتابه برواية الظروف الموضوعيّة التي أدّت إلى ظهور الأمثال؛ ومنها، مثلاً: «إنّ الحديث لذو شجون». ويذكر رواية أصل هذا المثل: أنّ شخصاً تعرّف بالمصادفة إلى آخر؛ فتبادلا أطراف الحديث. وطال الحديث بينهما حتّى تفرّع كثيراً، وصار ذا شجون. فحدّثه في النهاية عن واقعة له، وكيف انتهى الأمر بقتل أحد الأشخاص. ولأنّ الحديث جرّ الحديث، فقد وصل أخيراً إلى وصف شكل القتيل ولباسه وسلاحه. وعندها اتّضح للسامع أنّ هذا الشخص هو ابنه! قام بالانتقام منه، وقتل الراوي شر قتلة. وهذا أصل المثل. ومنه اشتُق مثلٌ آخر: «سبق السيفُ العَذَل». وهو المثل الذي أطلقه الناس على هذه الواقعة، وانتشر بينهم. ويؤكّد الكاتب صدق الرواية، مُستشهداً بالفرزدق؛ إذ قال:

ولا تـأمـنـنّ الـحـرب إنّ استـعـارهـا

كـضـبـة إذ قـــال الـحـديـث شـجـون

تعود أهمّيّة توثيق الأمثال وجمعها إلى حفظها التراثَ الشفويّ المتداول بين الناس؛ من حيث ارتباطُه بالذاكرة الجمْعيّة وأخلاقيّات المجتمع وظروفهم الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة والنفسيّة. وقد أصبحت الأمثال موضوعاتٍ لعدد كبير من

الدراسات الأدبيّة والتاريخيّة والحضاريّة والثقافيّة والنفسيّة. فها هو أحمد أمين، في كتابه «فجر الإسلام»، يضع الأمثال في المرتبة الثانية بالأهمّيّة ، بعد الشعر مباشرة، بحكم قدرتها على التأثير في الوجدان الشعبي؛ بل إنّها تمتاز عن الشعر بوصفها موجّهة إلى جميع الفئات الاجتماعيّة، فتنقل تجاربها وثقافتها وهمومها وطموحاتها من جيل إلى آخر.

•••

٤- الكتاب: الخَراج[١]

الأنصاري (١١٣ – ١٨٢ هـ / ٧٣١ – ٧٩٨ م)

هو الإمام أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي البغدادي، المعروف بأبي يوسف، من تلامذة الإمام أبي حنيفة النعمان. ويُلقّب بالأنصاري، لأنّه عربي أنصاري من الكوفة، حيث ولد وتتلمذ على أبي حنيفة النعمان، وغيره، وسمع من آخرين. كان والده فقيراً، فنشأ عصاميّاً شغوفاً بالعلم. هو الإمام المجتهد، والعلّامة المحدّث، والفقيه، وحافظ الحديث، وقاضي القضاة، الذي كان أوّل من دعي بهذا اللقب، وأوّل من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة. كذلك، كان واسع العلم بتفسير القرآن الكريم، والمغازي، ورواية أيّام العرب. مات أبو يوسف في بغداد، ودفن في مدينة الكاظميّة. من أشهر مؤلّفاته هذا الكتاب: «الخَراج»، إضافة إلى أعمال أخرى، هي: «الرد على سير الأوزاعي»، و«اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى»، و«الآثار»، وغيرها.

كعادة أعلام ذلك العصر عند تأليف الكتب، اقترح هارون الرشيد أمير المؤمنين على صاحب الإمام أبي حنيفة (أبو يوسف الأنصاري) تصنيف كتاب في الخَراج، وذلك للنظر في مظالم الرعيّة، وتنظيم سياسة الخراج، فاقترح أبو يوسف على الخليفة أن يُحدد جلسة واحدة في الشهر، أو مرّة كل شهرين، يسمع فيها من المظاليم بهدف أن ينتهي الولاة عن ظلم رعيّتهم، وأن يتم تحقيق مطالب المزارعين وأهل الخراج في كل

---

(١) يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، الخَراج (www.kutub-pdf.net) تمّت زيارة الموقع بتاريخ ٢٨/ ٣/ ٢٠٢٠.

ما منه مصلحة لهم، كحفر الآبار وشق الطرقات، بحيث يُنفَق على ذلك كله من بيت المال.

بناءً عليه، وفي ضوء المعلومات التي تم تحصيلها، والمعاناة التي استشعرها مباشرة من أصحابها، وضع أبو يوسف نظاماً شاملاً للخراج، وفق أحكام الشريعة الإسلاميّة. لذلك يُعدّ عمله من أعظم كتب الفقه الإسلامي في ماليّة الدولة، وفق أحكام الشرع، إذ يُنظَم تحصيل الخراج بأفضل طريقة ممكنة، من دون ظلم للناس، في حين يلتزم بيت المال القيام بواجباته تجاه أولئك الذين يؤدّون الخراج.

ويمكن القول: إنّ كتاب «الخراج» للأنصاري هو بمثابة وثيقة تاريخيّة تُصوّر ملامح واقعيّة من الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة والماليّة في ذلك العصر، فضلاً عن أنّه يُندّد ببعض ممارسات الولاة مع أهل الخراج، مثل مطالبتهم بأكثر ممّا هو واجب عليهم من أموال، وبذلك يحثّ على العدل وفقاً للشرع، الأمر الذي يسهم في تعزيز استقرار الدولة واستدامتها.

يتّضح هدف الأنصاري من الكتاب جليّاً، وهو تقديم النصيحة للحاكم، ذلك في قوله: يا أمير المؤمنين: «إنّ الرعاة مؤدون إلى ربّهم ما يؤدي الراعي إلى ربّه، فأقم الحق فيما ولّاك الله وقلّدك ولو ساعة من نهار، فإنّ أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راعٍ سَعِدت به رعيّته، ولا تزغ فتزيغ رعيّتُك».

وفي مقام آخر يخبرنا بما يأتي: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أراد الله بقوم خيراً استعمل عليهم الحلماء، وجعل أموالهم في أيدي السمحاء. وإذا أراد الله بقوم بلاء استعمل عليهم السفهاء، وجعل أموالهم في أيدي البخلاء. إلّا من وُلى من أمر أمّتي شيئاً فرَفق بهم في حوائجهم رَفق الله به يوم حاجته، ومن احتجب عنهم دون حوائجهم احتجب الله عنه دون خلّته وحاجته».

يأتي الكتاب بأقاويل وأحاديث مختلفة تتعلّق بالجزية والخراج والصّدقة، ويُظهر مرونة الإسلام في التعامل مع الحالات المختلفة، فيقول، على سبيل المثال: « فأمّا

أهل الكتاب من العرب فهم بمنزلة الأعاجم تُقبل منهم الجزية، كما أضعف عمر رضي الله عنه عن بني تغلب الصدقة عوضاً من الخراج ... أمّا العجم فتقبل الجزية من أهل الكتاب منهم والمشركين وعبدة الأوثان والنيران من الرجال منهم ... ولا يُقبل من أهل الردّة من العرب والعجم إلا الإسلام أو القتل ولا توضع عليهم الجزية، وحكمهم حكم عبدة الأوثان من العرب الذين ليس أمامهم خيار، إمّا الإسلام أو القتل».

ويضع أبو يوسف الأنصاري خططاً محكمة لإقامة حدود جمركيّة بين بلاد الإسلام والبلاد الأخرى، إذ يقول: «وينبغي للإمام أن تكون له مسالح على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرك من الطرق، فيفتشون مَن مر بهم من التجار، فمن كان معه سلاح أُخذ منه ورُد، ومن كان معه رقيق رد، ومن كانت معه كتب قُرئت كتبه، فما كان من خبر من أخبار المسلمين قد كتبت به أُخذ الذي أصيب معه الكتاب وبعَث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه».

هذا النصّ يمثّل نظاماً في الجمارك والرقابة الأمنيّة يقدّم فكرة واضحة عن أحوال البلاد السياسيّة والاقتصاديّة والرقابيّة في تلك الفترة، ويعكس دولة قويّة مهيبة الجانب، قادرة على السيطرة على حدودها وتنظيم شؤونها الإداريّة.

•••

٥- الكتاب: فتوح الشام[١]

الواقدي (~ ١٢٠ – ٢٠٧ هـ / ~ ٧٣٨ – ٨٢٣ م)

هو الإمام أبو عبد الله، محمّد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، الملقّب بالواقدي. كان مولى لبني سهم بن مازن. ولد بالمدينة المنوّرة، حيث تاجر بالحنطة، وضاعت ثروته، فانتقل إلى العراق سنة ١٨٠ للهجرة، أيّام الرشيد، واتّصل بيحيى البرمكي الذي قرّبه من الخليفة، فولي القضاء ببغداد حتّى توفّي فيها. درس على ابن عجلان، والأوزاعي، وغيرهما من الأعلام في ذلك العصر، حتّى أصبح من أهم حفّاظ الحديث، وأقدم المؤرّخين في الإسلام. له الكثير من المؤلّفات والمصنّفات؛ منها: «كتاب التاريخ والمغازي والمبعث»، و«أخبار مكّة»، و«الطبقات»، و«فتوح الشام»، و«فتوح العراق»، و«الجمل»، و«مقتل الحسين»، و«السيرة»، و«أزواج النبي»، و«الردّة والدار»، و«حرب الأوس والخزرج»، و«صفّين»، و«وفاة النبي»، و«السّقيفة وبيعة أبي بكر»، وغيرها الكثير.

قال شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هجري) في كتابه «سِيَر أعلام النبلاء» عن الإمام أبي عبد الله الواقدي: إنّه «جمع فأوعى، وخلط الغثّ بالسمين والخرز بالدّرر الثمين؛ فاطّرحوه لذلك. ومع هذا، لا يُستغنى عنه في المغازي وأيّام الصحابة وأخبارهم».

جاء كتاب «فتوح الشام» في جُزأين: الجزء الأوّل في ٣٠٦ صفحات، والثاني في ٢٩٦ صفحة. يبدأ بوصيّة أبي بكر وابتعاث عمرو بن العاص إلى فلسطين، وأحاديث مفصّلة عن فتوحات مدن فلسطين وبلاد الشام وفتح معاقلها، إمّا حربـاً أو سلمـاً؛ وصولاً إلى

---

(١) محمّد بن عمر الواقدي، فتوح الشام؛ ضبطه وصحّحه عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥، في جزأين.

معركة دمشق وتولّي أبي عبيدة عامر بن الجراح القيادة من خالد بن الوليد، إثر مبايعة الخلافة لعمر بن الخطّاب بعد موت أبي بكر.

ويذكر الواقدي تفصيلات بطولات النسوة المسلمات؛ مثل: خولة بنت الأزور، وزوجة خالد بن الوليد أم تميم، وغيرهما. كذلك، هناك تفصيلات معركة حمص، وواقعة اليرموك، ومدينة حلب وقلاعها، وفتح أعزاز، وفتح غيرها من المدن الشاميّة.

وفي الجُزء الثاني، يبدأ الكاتب بذكر غزوة مرج القبائل، ففتح قيساريّة، والمعارك التي دارت في فلسطين، وفتح المدن الساحليّة، كصُوْر وعكا وطرابلس. كذلك، فتوح المدن المصريّة، مدينة إثر أخرى، بدءاً بالإسكندريّة. وأيضاً يذكر فتح أرمينيا، وفتوح العراق، والخورنق، وقتل النعمان بن المنذر، وفتح الحيرة والقادسيّة، وغيرها من المواقع والمدن في بلاد ما بين النهريْن.

لكنْ، على أهمّيّة هذا الكتاب وثراء تفصيلاته ورواياته الشائقة الحماسيّة في أخبار المغازي، فإنّه منقول عن الواقدي وليس له مباشرة؛ حيث يبدأ الراوي في المقدّمة بالترّحم على المؤلّف، وتتصدّر الروايات كافّة الكلمتان: «قال الواقدي». لذلك، فإنّ الدقة غير متوافرة في مجمل الروايات. وما يؤكّد ذلك أنّ الورّاق، أو ناسخ هذا الكتاب، ذكر أنّ الواقدي قال: إنّ فلاناً حدّثه نقلاً عن فلان. فمثلاً، يقول: حدّثنا سهل بن عبد الله بن أويس بن الخطّاب، أو قال الواقدي: حدّثنا معمر بن سالم عن جدّه، أو حدّثنا شدّاد بن أوس، أو حدّثنا تميم بن أوس عن جدّه عمرو بن دارم، وهكذا؛ الأمر الذي يجعل من دقّة الأخبار مسألة محيّرة.

كذلك، هنالك تصريحات لكاتب الروايات وناقل الأخبار تتّسم بالمبالغة؛ كقول الكاتب: قال عامر بن الطفيل إنّه شارك في حرب دمشق، ونقل عنه ما يأتي: «لقد كان الواحد منا يهزم من الروم العشرة والمائة». وقول الواقدي: «لقد بلغني ممّن أثق به»؛ ولا يعلمنا من هو الشخص الذي يثق به. أمّا في حصار دمشق، فيذكر أنّ ضرار بن الأزور قتل ١٥٠ رجلاً في ليلة واحدة!

وفي ذكر المبالغات التي وردت في الكتاب، نشير إلى كيف ألقت امرأة روميّة حسناء حجراً كبيراً، فقتلت فرس رافع بن عميرة الطائيّ. كذلك، في رواية مَنْ أرسلوه لقتل الخليفة عمر بن الخطّاب: كان هذا مختبئاً على شجرة صادف أن نام تحتها الخليفة. فجاء الأسد، أو السبع، ودار من حوله؛ ثم ترك الخليفة وشأنه ورحل. فنزل القاتل وأعلن إسلامه لأمير المؤمنين. فمن الصعب التصديق أنّ اختباء هذا الرجل، المُبتَعث للاغتيال، على شجرة تزامن مع الوقت الذي نام فيه الخليفة تحتها، وتزامن كذلك مع لحظة مرور السبع!

كذلك، يتكرّر ذكر «الهواتف» في أكثر من مقام. يقول، مثلاً: «... سمعنا هاتفاً من السماء يقول: انشغلتم بالغنائم وخالد قد أحاطت به الروم». وكما في معرِض الرواية السابقة: «... وإذا بهاتف يقول: يا عمر عَدِلتَ فأمنت. فلمّا استيقظ عمر ...».

وهنالك اهتمام بارز بمعارك النساء. فمثلاً، يروي الكاتب بالتفصيل معركة النساء ضد الروم التي قادتها خولة بنت الأزور بأعمدة الخيام. ويروي بطولة زوجة أبان بن سعيد بن العاص، وبطولة أم تميم زوجة خالد بن الوليد: كيف حرّرت الأولى زوجها من الأسر، وكيف فكّت أم تميم الحصار عن زوجها خالد؛ إضافة إلى قصص بطولات أخرى كثيرة.

•••

٦- الكتاب: الأمثال[١]

قاسم بن سلّام (١٥٧ – ٢٢٤ هـ / ٧٧٤ – ٨٣٨ م)

هو أبو عبيد، قاسم بن سلّام الهروي، ولد في هرات من إقليم خُراسان. كان أبوه مملوكـًا روميًّا لرجل من أهلها. ارتحل إلى البصرة والكوفة طلبـًا للعلم؛ ثم عاد إلى خُراسان، فمرو، فبغداد، وأصبح قاضيـًا فيها. تجوّل بين مصر وبغداد حتّى انتهى من تأليف كتابه العظيم «غريب الحديث». وأخيراً، قصد مكّة للحج، وظل فيها حتّى وفاته سنة ٢٢٤ للهجرة. له الكثير من المصنّفات التي امتازت بإحكام تصنيفها، وتبويبها تبويبـًا بديعـًا؛ إضافة إلى تمكّنه من اللغة. فقد كان مالكـًا لناصيتها، خبيراً بالغريب منها، وبالإعراب، والآداب؛ الأمر الذي أعطى مؤلّفاته رونقـًا وبهاءً. من كتبه: «الغريب المصنّف»، وهو معجم من معاجم المعاني، و«غريب الحديث»، و«فضائل القرآن»، و«الأموال»، و«القراءات»، و«معاني القرآن»، وغيرها الكثير.

اعتمد أبو عبيد قاسم بن سلاّم في تأليف كتاب الأمثال، بصورة أساسيّة، على أربعة من كتب الأمثال الأصيلة في التراث؛ وهي كتب للأصمعي، وأبي زيد، وأبي عبيدة، والمُفضّل الضّبِي . وبلغ عدد الأمثال التي صنّفها في كتابه ١٣٨٦ مثلاً. وجاءت في أبواب، وَفْق موضوعات الأمثال. فمثلاً، خصّ الباب الأوّل أمثالاً «في حفظ اللسان، وما يؤتمر به منه بالتقوى وسلامة الدين، مع الموعظة فيه»؛ كقولهم: «ما اتّقَى اللهَ أحدٌ حقَّ تُقَاتِه حتّى يَخْزُنَ مِنْ لِسَانِه».

---

(١) قاسم بن سلاّم، الأمثال؛ حقّقه وعلّق عليه وقدّم له عبد المجيد قطامش، دمشق – بيروت: دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.

وجاء الباب الخامسَ عشرَ تحت عنوان: «حفظ اللسان في كتمان السرّ وترك النطق به»، وفي موضوعه ضرب نماذجَ عدّة، نذكر منها: «السرّ أمانة»؛ و«اجْعَلْ هذا في وعاء غيرِ سَرِبٍ»؛ و«صدرك أوسع لسرّك»؛ و«أمْلك الناس لنفسه من كتم سرّه من صديقه وخليله»؛ و«سرّك من دمِك»، أي إذا أفشيته ربّما يكون سبب حتفك.

والكتاب فيه فهارسُ كثيرة منظّمة. فيبدأ بفهرس آيات القرآن الكريم؛ مثلاً: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾؛ ويشير إلى رقم الآية (٧) من سورة الزلزلة، مرفقة برقم الصفحة في الكتاب (١٦٧). يليه فهرس الأحاديث الشريفة؛ كقوله مثلاً: «إنّ من البيان لسحراً «(ويشير إليه في صفحة ٣٧). ثم فهرس الأمثال، مرتبة ترتيبـًا ألفبائيـًا: فتبدأ بحرف الهمزة؛ كقوله مثلاً: «آخرها أقلّها شربـًا» (ويشير إلى الصفحتين ٢١٥ و٢٣٩). وتنتهي بحرف الياء (بإهمال أل التعريف): «اليوم قِحاف وغداً نِقاف» (صفحة ٣٣٣). بعد ذلك، يأتي التفسير في الهامش أسفل الصفحة، تحت رقم ١١٠٠ (القِحاف: من القحف، وهو شدّة الشرب؛ والنِقاف: المضاربة على الرؤوس).

كذلك، لا يغفل ابن سلام عن وضع فهرس لقوافي الأشعار؛ مبتدئـًا بحرف الهمزة أيضـًا، فمثلاً:

رأيـــت الـــحــرب يـجـنـبـهـا أنـــاس

ويُـــصـــلـــى حـــرّهـــا قـــوم بــــراءُ

وهناك فهرس اللغة، لتوضيح المعاني وبيان اشتقاق المفردات؛ كقوله، مثلاً: «جفا: الجافي» (صفحة ٢٢٠). ويليه فهرس الأمم والقبائل والطوائف، ثم فهرس أسماء الحيوان، وفهرس النبات والآلات واللباس ونحوها، وفهرس البلدان والمواضع، وفهرس أيّام العرب؛ كحرب البسوس ويوم الجمل ويوم حنين . . . إلخ. وتُختتم الفهارس بفهرسَي المعارف العامّة، ومصادر التحقيق والترجمة؛ وتشمل أمّهات كتب التراث.

وفي باب «الحاجة تؤدّي صاحبها إلى تلف النفس»، يضرب قول الأصمعي مثلاً: «كطالب القَرْن فَجُذِعَتْ أُذُنُه»؛ أي أنّه جاء يطلب زيادة، فأتلف ما عنده. ويضرب مثلاً آخر في الموضوع عينه: «كالباحث عن الشَّفْرَة»؛ أي أنّه سعى يطلب معاشاً، فسقط على شفرة، فعقرته أو قتلته. وأيضاً: «سَقط العَشاء به على سِرْحان». ويراد به التمثّل برجل خرج يلتمس العشاء، فوقع على ذئب، فأكله الذئب. وأيضاً: «كَمُبْتَغي الصيد في عِرّيسَة الأسد»، وغيرها.

•••

٧- الكتاب: الطبقات الكبير[١]

ابن سعد (؟؟ – ٢٣٠ هـ / ؟؟ – ٨٤٥ م)

هو محمّد بن سعد بن منيع البصْريّ الزهريّ. يُعتقد أنّه كان مولى لبني هاشم، ويُقال له الزهريّ نسبة إلى زهرة بنت كلاب من قبيلة قريش. ويُعتقد أيضًا أنّه انتسب إلى بني زهرة أوّلاً؛ ثم إلى بني هاشم. من أشهر شيوخه الذين درس عليهم: أحمد الموصلي، وأحمد الكوفحي، وإسحاق الرازي، وغيرهم. تنقّل بين البصرة وبغداد خلال ملازمته شيخَه الواقدي. ثم ارتحل إلى المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة والكوفة؛ حيث سمع من كبار المحدّثين. له كتب كثيرة؛ منها: «الطبقات الكبير»، و«خبر النبي»، و«الطبقات الصغير»، و«كتاب التاريخ»، و«الزخرف القصري في ترجمة الحسن البصري»، و«القصيدة الحلوانيّة في افتخار القحطانيّين على العدنانيّين»، وغيرها. توفّي ببغداد، ودفن في مقبرة باب الشام.

يُعدّ هذا الكتاب من أهمّ المصنّفات في الطبقات وتراجم الرجال والنساء معـًا؛ حيث خُصّص الجُزء العاشر كاملاً لتراجم النساء. ولم يسبقه إلى هذا الموضوع سوى كتاب «الطبقات» لشيخه الواقدي الذي لم يصل إلينا. ويُعدّ كتاب «الطبقات الكبير» مرجعـًا مهمّـًا في السيرة النبويّة والتراجم والتواريخ؛ حيث وَضع التراجم على طبقات، كالآتي:

الجُزء الأوّل في السيرة النبويّة الشريفة. والجزء الثاني في مغازي الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، ومَن كان يُفتي بالمدينة. أمّا الجزء الثالث، فكان للطبقة الأولى

---

(١) محمّد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبير؛ تحقيق علي محمّد عمر، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، في أحد عشر جزءاً.

في البَدْريّين من المهاجرين والأنصار. وخُصّص الجزء الرابع للطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار ممّن لم يشهدوا بدراً، ولهم إسلام قديم، وشهدوا أُحُداً، وما بعدها. وأمّا الطبقة الثالثة في الجزء الخامس، فخُصّصت للمهاجرين والأنصار ممّن شهدوا الخندق وما بعدها.

ثم تلا ذلك الجزء السادس المخصّص للطبقة الرابعة من الصحابة ممّن أسلم عند فتح مكّة، وما بعد ذلك. والطبقة الخامسة فيمن قبض رسول الله. والجزء السابع في أهل المدينة من التابعين. وأمّا الجزء الثامن، فخُصّص لمن كانوا بمكّة والطائف واليمن واليمامة والبحرين والكوفة. وكان الجزء التاسع للبصريّين والبغداديّين والشاميّين والمصريّين وآخرين. وأخيراً، خُصّص الجزء العاشر للحديث عن تراجم النساء؛ فيما انتهى الكتاب بالجزء الحادي عشر الذي خُصّص للفهارس.

ومن اللافت أنّ ابن سعد خَصّص فصلاً للحديث عن طبقة من الأحداث (الطبقة الخامسة من الجزء السادس) لم يغزُ منهم أحد مع الرسول؛ وهي ظاهرة نادرة. بدأهم بعبد الله بن عبّاس بن عبد المطلب، صاحب الترجمة رقم ١٣٦٧؛ وانتهى بعبد الله بن صياد (الترجمة رقم ١٤١٢). ونشير إلى أنّ مجموع التراجم بلغ ٤٩٢٥ عند معاوية بن صالح الحضرمي.

وفي الجزء العاشر المخصّص للنساء، يبدأ ابن سعد بذكر مَنْ بايع الرسول من النسوة ولم يصافحهن (نقلاً عن الفَضْل بن دُكين؛ رواه إسماعيل العامري عن شهر بن حوشب). وفي موقع أخر، يذكر حديثًا بأنّه صافح بعضهن وسلّم عليهن وبايعنه وعلى يده ثوب أصفر (نقلاً عن الفَضْل بن دُكين؛ رواه قيس بن جابر عن شيخ بن أحمس، عن طارق التيميّ).

وفي رواية أخرى عن هشام بن عبد الملك، رواه إسحاق بن عثمان عن إسماعيل بن عطيّة عن جَدّته أم عطيّة؛ قالت: عندما قدم الرسول إلى المدينة، جمع نساء الأنصار في بيت؛ ثم أرسل إليهن عمر بن الخطّاب. «فجاء حتّى قام على الباب، فسلم علينا؛ فقال:

السلام عليكنّ. فرددن عليه السلام. فقال: أنا رسولُ رسولِ الله إليكنّ. فقلن: مرحباً برسول الله ورسولِ رسولِ الله. فقال: تبايعن على ألا تشركن بالله ولا تَسْرِقْنَ ولا تزنين ولا تَقْتُلْن أولادكنّ ولا تأتين ببهتان تَفترينه بين أيديكنّ وأرجلكنّ. فقلن: نعم. قالت: فمد يده من خارج البيت، ومددن أيدينا من داخل البيت؛ ثم قال: اللهم فاشهد».

وتبدأ تراجم النساء من رقم ٤٩٢٦؛ وهي في ذكر خديجة بنت خويلد، زوجة رسول الله. يليها ذكر بنات الرسول، بدءاً من فاطمة بنت الرسول، تليها زينب، فرقيّة، فأمّ كلثوم. ثم ينتقل المؤلّف إلى أُمَامَةُ بنت أبي العاص بن الربيع، وأمّها زينب بنت الرسول. ويذكر تراجم عمّات الرسول، وبنات عمومته، وأزواجه، ومَنْ خطبهن؛ إلى أن يصل إلى تسمية النساء المُسلمات المُبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، وغرائب نساء العرب. فيبدأ بترجمة فاطمة بنت أسَد بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ، وأمّها فاطمة بنت قيس بن هرم، ويخصّها بترجمة تحمل رقم ٤٩٨٤؛ وينتهي برقم ٥٥٥٤، تحت اسم رُقَيْقَة بنت عبد الرحمن.

والجدير بالذكر أنّ مُصنّفات الترجمات المبكّرة، كهذا الكتاب، كانت منقولة بالتواتر في مُجملها. فها هم ناسخو كتاب ابن سعد يستهلّون بالقول: «أخبرَنا الشيخ شرف الدين الدمياطي، عن محدّث الشام شمس الدين الدمشقي، عن عبد الله بن كاره، عن أبي بكر الأنصاري، عن الحسن بن علي الجوهري، عن محمّد بن العبّاس الخزاز، عن أحمد بن معروف الخشاب، عن الحارث بن محمّد التميمي، عن أبي عبد الله محمّد بن سعد بن منيع (ابن سعد) ... .»، وعلى ذلك قِسْ.

•••

٨- الكتاب: المُحبر[١]

ابن حبيب (؟؟ – ٢٤٥ هـ / ؟؟ – ٨٥٩ م)

هو أبو جعفر، محمّد بن حبيب بن أميّة بن عمرو الهاشمي البغدادي، من موالي بني العبّاس. ولد في بغداد وأصبح علاّمة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر. كان مُؤدّبًا وتوفّي في سامراء. له الكثير من المؤلّفات؛ فضلاً عن هذا الكتاب «المحبّر»؛ منها: «مَن نُسب إلى أمّه من الشعراء»، و«أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهليّة والإسلام»، و«مختلف القبائل ومؤتلفها»، و«المُنمّق في أخبار قريش»، و«أمّهات النبي»، و«الموشح»، و«المُفَوَّف» و«المُوَشَّى»، و«المُقتنى»، و«المُشَجَّر»، و«أخبار الشعراء وطبقاتهم»، و«الشعراء وأنسابهم»، و«نقائض جرير وعمر بن لجأ التيميّ»، و«نقائض جرير والفرزدق»، وغيرها، كما جاء في فهرست النديم.

يُغطّي هذا الكتاب مُدّة زمنية طويلة، تبدأ بأخبار الأنبياء الذين سبقوا الإسلام وعصورهم، ومولد الرسول العربي الكريم، فسِيَر الخلفاء الراشدين والأمويّين والعبّاسيّين وأبنائهم، وبنات الرسول وأصهاره، وأصهار الخلفاء، وغزوات الرسول، وأمرائه، ومواليه، وحكّام العرب. ثم يدخل في روايات منوّعة، كحديثه عن أجواد الجاهليّة؛ حيث يبدأ بقريش، فيذكر هاشم بن عبد مناف وأميّة بن عبد شمس، وغيرهما. كما يذكر أجواد الإسلام من بني هاشم، كعبيد الله بن العبّاس بن عبد المطلب.

ويروي عن دهاة العرب؛ ومنهم: معاوية بن أبي سفيان، وزياد بن أبيه، وعمرو بن العاص، وقيس بن سعد الأنصاري، والمغيرة الثقفي، وعبد الله الخزاعي. كذلك، يُشير

---

(١) محمّد بن حبيب، المُحَبّر؛ اعتنى بتصحيحه: إيلزه ليختن شتيتر، بيروت: دار الآفاق الجديدة، بلا طبعة، بلا تاريخ.

إلى أسماء بعض النسوة اللواتي فرحن لموت الرسول الكريم؛ ومنهن: العمردة بنت كرب، وهنيدة بنت أبي شمر، وغيرهما.

ومن الغريب في هذا الكتاب أيضاً العنوان: «المتعمّمون بمكّة مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم». ويذكر هنا: حنظلة بن عثمان، وحصين بن بدر، وقيس بن حسّان، وغيرهم. ويُخبرنا بمناقب العرب قبل الإسلام؛ فنصفها هدمَه الإسلام، والنصف الثاني زادها شدّة، ومنها: السدانة [سدانة الكعبة المُشرّفة] والسقاية والرفادة [للحجيج].

كما يذكر حكايات فريدة عن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفّان الذي تزوّج إليه أربعة خلفاء؛ حيث تزوّج الوليد بن عبد الملك ابنته عبده، وتزوّج سليمان بن عبد الملك ابنته عائشة، وتزوّج يزيد ابنته أم سعيد، وتزوّج هشام بن عبد الملك ابنته رقيّة.

ومن روايات الكتاب ذكْر أعرق العرب في صفة الغدر. فأشار إلى قصّة عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث في الغدر، وقصص غيره. ومن النوادر في الكتاب ذِكر من فقئت عينه من الأشراف في الحرب، ويذكر منهم أبا سفيان صخر بن حرب الذي ذهبت عينه يوم الطائف، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص الذي ذهبت عينه يوم اليرموك، وغيرهما.

ومن نوادر الكتاب أيضاً قصّة رجل جمع بين أربع نسوة، كلهن تُدعى عاتكة. ويذكر أنّ اسمه أبو أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. فكانت عنده عاتكة بنت عامر، وعاتكة بنت عتبة، وعاتكة بنت عبد المطلب، وعاتكة التميمي.

ويُحصي ابن حبيب أبناء النصرانيّات؛ كحارث المخزومي، وعثمان بن عنبثة بن أبي سفيان، والعبّاس بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم. كذلك، يُحصي أبناء الحبشيّات؛ كحنظلة بن هاشم بن عبد مناف، وعمرو بن ربيعة بن الحارث، وغيرهما. ومن الطريف حديثه عن حَمقى النساء؛ كريطة بنت سعد بن تيم، والرقعاء من قضاعة، ودُغة بنت مِعْنَج، وغيرهن.

ويَذكر أسماء كثير من النسوة؛ كعاتكة بنت سعيد بن زيد التي شهد أبوها وعمّها معركة بدر مع الرسول الكريم، فيما حارب خالاها مع المشركين، وحنة بنت جحش

التي قُتل أخوها وخالُها وزوجُها يوم أُحُد، وامرأة شهد لها يوم بدر زوجان وابنها وابن أخيها، وهي جميلة بنت أبي عامر الأنصاري. كذلك، ذكر تفصيل النسب والمصاهرة لبعض النسوة؛ كعاتكة بنت يزيد بن معاوية التي كانت تعدّ اثني عشر خليفة، كلّهم لها محرم.

وفي أحد الفصول، يذكر أسماء النسوة اللواتي تزوجت الواحدة منهن ثلاثة أزواج فأكثر. فمثلاً، تزوّجت ماريّة بنت الجعيد بن صبرة قيس بن ثعلبة، فحنيفة بن لجيم، ثم سعد بن عجل، فثعلبة بن غنم، ثم مُليك بن ضمرة. وتزوّجت ماريّة هذه امرىء القيس بن بخثة بن سليم، فولدت خفاقاً وعوفاً وبهزا؛ كما تزوّجها ثعلبه بن مالك، وغالب بن عدي، وامرؤ القيس بن زيد مناة بن تميم، وعذرة بن سعد هديم.

ويُعدّد العشرات من تلك الحالات ببعض التفصيل؛ الأمر الذي يُفيد بكثرة التزاوج في ذلك الزمان، لا سيّما زواج المرأة من أكثر من رجل؛ كزواج ميمونة بنت عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي بكر الصديق من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، فمحمّد بن الوليد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك. كما تزوّجت أم عثمان، بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفّان: هشام بن عبد الملك، فالحَكم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فبكّار بن سلمة، ثم محمّد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان.

•••

٩- الكتاب: البخلاء[١]

الجاحظ (١٥٨ – ٢٥٥ هـ / ٧٧٥ – ٨٦٩ م)

هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الكناني البصري. ولد لعائلة فقيرة في البصرة بالعراق جاحظ العينين، وعاصر ثلاثة ممّن عُرفوا بغزارة التأليف؛ وهم: أبو عبيدة بن المثنى، وهشام الكلبي، وأبو الحسن المدائني. تُنسب إليه فرقة المعتزلة المعروفة بالجاحظيّة. عمل في دار الخلافة، وتولّى ديوان الرسائل في عهد المأمون، ولازم محمّد بن الزيات وزير المعتصم. له الكثير من المؤلّفات، من أهمّها في الأدب: «البيان والتبيين»، و«البخلاء»، و«الحيوان»، و«رسالة في العشق والنساء»، و«رسالة التربيع والتدوير». وفي الفلسفة: «الاستطاعة وخلق الأفعال»، و«الاعتزال وفضله». وفي العقيدة: «خَلْق القرآن»، و«الرد على اليهود»، و«الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير». وفي السياسة: «الاستبداد والمشاورة في الحرب». وفي الاقتصاد: «رسالة في الخَراج». وفي الزراعة: «الزرع والنخل والزيتون والأعناب». وفي الاجتماع والأخلاق: «رسالة في إثم السكر وأخلاق الشطّار». وفي التاريخ: «الأخبار وكيف تصح». وفي العصبيّة: «القحطانيّة والعدنانيّة»، و«العرب والعجم»، و«مفاخرة السودان والحمران»، و«مناقب الترك»، وغيرها.

الجاحظ من الكُتّاب الموسوعيّين؛ فيُقال إنّه ترك أكثر من ٣٥٠ عملاً. ولخّص الكثيرون بعض آثاره، كما فعل عبد اللطيف البغدادي في مؤلّفه: «اختصار كتاب الحيوان». وعندما سعى ابن قتيبة إلى محاكاة الجاحظ في أسلوبه، أنتج «عيون الأخبار».

(١) الجاحظ، البخلاء؛ تحقيق فؤاد بركات، القاهرة: شركة القدس للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠١٠.

وتُعدّ «رسالة التربيع والتدوير» من الأعمال التي أسهمت في ظهور فن المقامات في الأدب العربي. وكان أوّل من اكتشف البخلاء المستشرق فان فلوتن Van Vloten. بعد ذلك، أعاد طه الحاجري إصدار الكتاب بعد تدقيقه عام ١٩٤٧ للميلاد.

تناول الجاحظ في كتابه أخبار المُقتصدين والمُقتّرين في العصر العبّاسي. ويبدو أنّ الغَرض من الكتاب كان التعامل مع البخل كمرض أخلاقي ونفسي، أو ضعف في الإيمان واليقين الديني؛ لا سيّما أنّ القرآن الكريم يحضّ على الجود والعطاء. كما يبدو أنّ هدفاً أساسيّاً كان تشويه صورة الخلفاء الأمويّين والسخرية منهم. كذلك، يُلاحظ هجوم الجاحظ على العنصريّة والشعوبيّة، مثلما هو واضح في مؤلّف آخر من مؤلّفاته: «رسالة في فخر السودان على البيضان».

وهناك الجانب الساخر، الذي يعكس زمن الرخاء في الحضارة العربيّة الإسلاميّة الصاعدة. فكان الجاحظ يحضّ على الضحك ويدعو إليه؛ مذكّراَ العرب بأنّهم كانوا يُسمّون أبناءهم: البسّام، والضحّاك، والسهل. والحقّ أنّ الحثّ على الترويح عن النفس كان سمة من سمات ذلك العصر، كما هو واضح من مؤلّفات ذلك الزمن.

أشار الجاحظ إلى شخصيّات معروفة في عصره، ونسب إليهم البخل، كأبي الأسود الدؤلي الذي وضع أسس النحو؛ لقوله: «لو أطعنا المساكين في أموالنا، لكنّا أسوأ منهم حالاً»! وفي قصة أبي يعقوب الكِندي، فيلسوف العرب، تحدّث الجاحظ عن بخله. فقد كان الكندي يقول للجيران إنّ امرأته حامل وتتوحّم، «فكلما طبخ أحدكم توحّمَتْ، والوَحْمى ربّما أُسقطت من ريح القدر الطيبة. لذلك، رُدّوا شهوتها بغَرفة أو لَعقة». وهكذا، كان يحصل باستمرار على بعض طبيخ جيرانه ليقتصد في المصروف. كذلك، كان يبخل في العطاء على نُسّاخ كتبه.

وهذا ما كان يفعله سهل بن هارون، الفيلسوف والمترجم والقصصيّ والأديب، الذي تولّى مكتبة المأمون، ومن بعدها بيت الحكمة في بغداد. وله مؤلّفات كثيرة، بعضها يشبه أعمال ابن المقفّع، ومنها: رسالة في البخل؛ ممّا يفسّر سبب حديث

الجاحظ عنه. فيوضّح الجاحظ كيف دافع سهل في رسالته هذه عن تقتيره بقوله: «ويأخذ على الناس اتهامه بخصف نعاله (أي تسميرها) وترقيع ثيابه. فيرد عليهم أنّ الترقيع فيه حزم وتواضع؛ وخلاف ذلك فيه إسراف وتكبُّر».

ويقول سهل بن هارون أيضاً، في ضرورة الحرص على الثروة: « فمن لم يحفظ الغِنى من سُكر الغنى، فقد أضاعه؛ ومتى لم يرتبط المال بخوف الفقر، فقد أهمله». ويُعتقد أنّ رسالة سهل بن هارون في البخل جاءت في ازدراء الكرم العربي الذي اعتبره ابن هارون نقيصة. وبما أنّه من أصل فارسي، فقد اتُّهم بالشعوبيّة وتفضيل الفرس على العرب.

وبناءً عليه، فمن الممكن أن يكون رد الجاحظ على ابن هارون من باب الانتصار للكرم العربي؛ حيث يقول الجاحظ في مقدّمته: «ولِمَا سمّوا البخل إصلاحاً والشحّ اقتصاداً ... وجعلوا الجود سَرَفَاً والأثرة جهلاً ...». فهل كان رد الجاحظ في كتاب البخلاء متجاوزاً نقد بني أميّة إلى نقد شعوبيّة ذلك العصر؟ أم ربّما هدف للإشارة إلى ترف الأمراء والخلفاء بأسلوب مبطّن، وعلى ألسنة البخلاء؟ فجاء الاعتراض على ما يُؤدّي إليه الفساد والتبذير من ظلم ولا عدالة ولا مساواة؛ كقوله على ألسنة آخرين: «لم أرَ تبذيراً قط إلّا وإلى جانبه حقّ مضيّع». كذلك قوله: «إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب ماله، فانظروا في أي شيء ينفقه».

أيّاً كان الأمر، فقد صوّر الجاحظ في كتابه هذا الحياة الاجتماعيّة للناس، وانتقد الأخلاق والعادات والتقاليد بفضول علمي وعين ناقدة واستقراء منطقي.

•••

١٠- الكتاب: البيان والتبيين[١]

الجاحظ (١٥٨ – ٢٥٥ هـ / ٧٧٥ – ٨٦٩ م)

هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الكناني البصري. ولد لعائلة فقيرة في البصرة بالعراق جاحظ العينين، وعاصر ثلاثة ممّن عُرفوا بغزارة التأليف؛ وهم: أبو عبيدة بن المثنى، وهشام الكلبي، وأبو الحسن المدائني. تُنسب إليه فرقة المعتزلة المعروفة بالجاحظيّة. عمل في دار الخلافة، وتولّى ديوان الرسائل في عهد المأمون، ولازم محمّد بن الزيات وزير المعتصم. له الكثير من المؤلّفات، من أهمّها في الأدب: «البيان والتبيين»، و«البخلاء»، و«الحيوان»، و«رسالة في العشق والنساء»، و«رسالة التربيع والتدوير». وفي الفلسفة: «الاستطاعة وخلق الأفعال»، و«الاعتزال وفضله». وفي العقيدة: «خَلْق القرآن»، و«الرد على اليهود»، و«الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير». وفي السياسة: «الاستبداد والمشاورة في الحرب». وفي الاقتصاد: «رسالة في الخَراج». وفي الزراعة: «الزرع والنخل والزيتون والأعناب». وفي الاجتماع والأخلاق: «رسالة في إثم السكر وأخلاق الشطّار». وفي التاريخ: «الأخبار وكيف تصح». وفي العصبيّة: «القحطانيّة والعدنانيّة»، و«العرب والعجم»، و«مفاخرة السودان والحمران»، و«مناقب الترك»، وغيرها.

مثل سائر المؤلّفين في ذاك الزمان، أهدى الجاحظ كتابه «البيان والتبيين» إلى شخصيّة من شخصيّات عصره؛ هو القاضي أحمد بن أبي الداؤود الذي أعطاه خمسة

(١) الجاحظ، البيان والتبيين؛ تحقيق وشرح عبد السلام محمّد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة السابعة، ١٩٩٨، في أربعة أجزاء.

آلاف دينار. وكان هذا فقيهـاً بارعـاً، ومتكلّمـاً مميّزاً، ومن أصحاب الشيخ واصل بن عطاء المعتزلي؛ أي أنّه كان من «مِلّة» الجاحظ الفكريّة.

يَحوي الكتاب مباحثَ متنوّعة ومضطربة منهجيّاً؛ حيث يقفز الكاتب من موضوع إلى آخر، ثم يعود إلى الموضوع الأوّل عينه، وهكذا. لكنّ ذلك لا يقلّل من أهمّيّة الكتاب. ففيه ما فيه من ضروب البيان، والبلاغة، والخطابة، والشعر، والكلام عن طوائف المتصوّفة، والقُصّاص، والحَمقى، وغيرهم. فترتسم من خلاله صورة اجتماعيّة، واقتصاديّة، وسياسيّة، ولغويّة واضحة لمعالم تلك الحقبة من الزمن.

عرّف الجاحظ البيان، وحدّد أنواع الدلالة البيانيّة من اللفظ والإشارة والعطف والنصبة (وهي الحال الدالة)، ووضع موازنة بين لغة العامّة والحضر والبدو، مستنداً إلى نوادر الأعراب وأشعارهم. كما ناقش لُكْنة الروم والنبط والموالي، وعقد باباً للّحن وأخبار اللّحّانين في اللغة، وتكلّم عن مخارج الحروف وأثرها في البيان، وعقد باباً للحروف التي تدخل فيها اللثغة، وقارن بين اللثغات.

وعُني أيضـاً بالخطابة، بوصفها عملاً فنّيّاً ودعامة من دعائم الدعوة الإسلاميّة؛ خاصّة حاجة المعتزلة إلى الخطابة والجدال، لتدعيم معتقدهم وبيان مذهبهم. وكان للشعر نصيب، بوصفه وسيلة من وسائل البيان ومعرضـاً من معارض البلاغة. أمّا الجمْع عنده بين الشعر والخطابة، ففيه بلاغة وقدرة على إقناع الآخر.

وكان للمتصوّفة حظّ وافر في الكتاب؛ حيث نبغ بعضهم في البيان وأثّروا في الناس ببلاغتهم وحسن خطابهم. كذلك فعل القُصّاص بفصاحتهم وبلاغتهم؛ مثل موسى بن سيّار الأسواري، الذي كان فصيحـاً بالعربيّة والفارسيّة معـاً. فكان العرب يجلسون عن يمينه والفرس عن يساره؛ فيقرأ آيات من كتاب الله ويفسّرها تارة بالعربيّة، لمن عن يمينه، وطوراً بالفارسيّة للفرس عن يساره، فلا أحد يميّز أي لسان لديه أبين!

ولا يخلو «البيان والتبيين» من المرح الضاحك؛ ففيه الكثير من الأخبار المرحة والمضحكة والمسليّة، كحكايات الحَمقى والمغفّلين. ولمّا كانت الأمثال الشعبيّة

ضمن مادة الخطابة والبيان، ووسيلة من وسائل الإقناع، فقد استخدمها الجاحظ هي الأخرى واستند إليها؛ كقوله في باب الصمت: «قالوا اللّسان سبع عَقُور»، واستشهاده بقول الرسول الكريم في الغيبة والنميمة: «وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم».

وهكذا كان الجاحظ موْسوعيّاً في تناوله مختلِف شؤون حياة العرب وأحوالهم في الجِدّ واللهو والحرب والسلم، بأسلوب نسجه ببراعة وتشويق، فكانت مؤلّفاته وعاءً لأمجادهم وأنسابهم وأخبارهم وتاريخهم. فلا عجب أنْ نهل منها كبار المؤلّفين؛ كابن قتيبة في «عيون الأخبار»، والمبرّد في «الكامل»، وابن عبد ربه في «العقد الفريد»، وابن الجوزي في «أخبار الحمقى والمغفّلين»، وغيرهم.

نختتم هذيْن المُلخّصيْن لكتابَي الجاحظ «البخلاء» و «البيان والتبيين» بملاحظتيْن جديرتيْن بالاهتمام. وهما جليّتان في مؤلّفات أخرى له؛ مثلاً كتابه «حِيَل المُكدِّين». والمُكدّ هو الرجل الخائب الذي افتقر بعد غنىً؛ أو البخيل الذي أمسك عن العطاء أو قلّله. وهو يُتقن التمثيل والخداع والحيل والأدب والخطابة؛ الأمر الذي يجعله شخصيّة طريفة وجاذبة للأدباء. وبناء عليه، فالملاحظة الأولى: أنّ أقاصيص الجاحظ يُمكن أنْ تُعدّ بدايات فن المقامة؛ حيث تقوم «المقامة» على شخصيّة المُكدّ المثقف، كما تجلّت في شخصيتَي عيسى بن هشام وأبي الفتح الإسكندري، وفي حكاية أبي القاسم البغدادي الذي كان يلبس لكل مقام زيّاً مميّزاً. أمّا الملاحظة الثانية، فهي أنّ المُكدّ حلّ محل الأعرابي في المخيّلة المدنيّة العربيّة. ولعلّ ذلك يعكس معاناة مجتمعات مدنيّة، أو مدينيّة (من مدينة) ناشئة في حضارتنا العربيّة الإسلاميّة، استطاعت أن تجدّد من حيلها ومثالبها لتتدبّر أمرها، استجابة للتغيّر المجتمعي المرغوب به طلباً للبقاء والاستدامة.

•••

١١- الكتاب: الأدب المفرد[١]

البُخاري (١٩٤– ٢٥٦ هـ / ٨١٠ – ٨٧٠م)

هو الإمام أبو عبد الله، محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجُعْفي، ولد في بُخارى لأب من أهل العلم والتقوى والسعة في الرزق. كان حافظاً منذ صغره، يستوفي تراجم الرواة ويدرس بيئتهم، وعَمّن كانوا يأخذون. قام برحلة الحج سنة ٢١٠ للهجرة، وكان لا يدخل بلداً إلا سمع من حفّاظها، كالبلخي في مكّة، وأبي عاصم القيسي والأنصاري في البصرة، وعبيد الله العبسي في الكوفة، وغيرهم. وفي بغداد سمع من عفّان البصري، والبهراني في حمص، والغسّاني في دمشق، وابن أبي إياس في عسقلان، وغيرهم. أمّا شيوخه فعقد لهم الحافظ ابن حجر في كتابه «هدى الساري» فصلاً خاصّاً صفحة ٤٧٩، رتبهم فيه على خمس طبقات. أعظم مؤلّفات البخاري كتابه «الجامع الصحيح»، وله أيضاً: «الأدب المفرد»، و«برّ الوالدين»، و«الهبة»، و«القراءة خلف الإمام»، و«رفع اليدين في الصلاة»، و«خلق أفراد العباد»، و«التاريخ الكبير»، و«التاريخ الأوسط»، و«التاريخ الصغير»، و«الجامع الكبير»، و«المسند الكبير»، و«التفسير الكبير»، و«الأشربة»، و«العلل»، و«أسامي الصحابة»، و«الوحدان»، و«المبسوط»، و«الكنى» و«الفوائد»، وغيرها من الكتب المفقودة.

ينتمي كتاب الإمام البخاري هذا إلى مجال الأخلاق والفضائل الإنسانيّة. فهو كتاب قيّم خاصّة للناشئة والشبّان. ويستحق أن يكون ضمن هذه الموسوعة، لأنّها

(١) محمّد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد؛ تحقيق وتعليق محمّد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: المطبعة السلفيّة ومكتبتها، بلا طبعة، بلا تاريخ.

مُوجّهة إلى تلك الفئة الاجتماعيّة من الناشئة والشبّان في هذا العصر الذي تعولمت فيه الأخلاق، وانداحت على غير هدى، في بعض الأحيان، وفي الكثير من الأماكن.

يقع كتاب «الأدب المفرد» في ٦٤٤ بابـًا، و ١٣٢٢ حديثـًا. واخترنا بعضـًا من هذه الأبواب لإيضاح موضوع الكتاب ومنهجه، ففي أدب التعامل مع الجار، نذكر أمثلة على ما جاء في الكتاب، كما هو آت:

«ليس المؤمن الذي يَشبع وجاره جائع»، و»إذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأَصِبهم منه بمعروف»، و»خير الأصحاب عند الله تعالى، خيرهم لصاحبه؛ وخير الجيران عند الله، خيرهم لجاره».

وفي باب أحبّ الأسماء إلى الله عز وجل، يذكر الأحاديث النبويّة الآتية:

« تَسمّوا بأسماء الأنبياء. وأحب الأسماء إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن. وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرّة».

وفي باب فضول الكلام يذكر البخاري، وعلى سبيل المثال:

«شرار أمّتي الثرثارون، المتشدّقون، المتفيهقون. وخيار أمتي أحاسنهم أخلاقـًا».

وفي باب ذي الوجهين، يأتي بحديثين لهما علاقة بذي الوجهين، كما يلي:

«من شرّ الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»، و«من كان ذا وجهين في الدنيا كان له لسانان يوم القيامة من نار».

وفي باب الحياء، يأتي بالحديث الشريف: «الحياء لا يأتي إلا بخير».

وفي باب إماطة الأذى، يسرد البخاري أحاديث متنوّعة؛ منها:

«قلت: يا رسول الله، دلّني على عمل يدخلني الجنّة، قال: أمط الأذى عن طريق الناس».

وفي حديث آخر عن إماطة الأذى، قال الرسول الكريم: «مَرّ رجل بشوك في الطريق، فقال: لأميطنّ هذا الشوك، كي لا يضرّ رجلاً مسلمـًا، فغُفِر له».

لا تنفعنا هذه المقولات في التعامل مع الناس وحسب، وإنّما أيضـًا في التعامل مع البيئة، وذلك بترشيد استهلاك المياه، كما جاء في الحديث الشريف: «لا تسرفوا في الماء وإنْ كنتم على نهر جارٍ»، أو بتخفيض إطلاق الملوثات الناجمة عن احتراق الوقود الأحفوري، وتخفيض الاستهلاك المفرط في الغذاء، والتراجع عن الإفراط في استهلاك واقتناء بعض الكماليّات الحياتيّة، وما إلى ذلك.

•••

١٢- الكتاب: الأخبار الموفّقيّات[١]

ابن بكّار (١٧٢-٢٥٦ هـ / ٧٨٨-٨٧٠ م)

هو الإمام أبو عبد الله، الزبير بن بكّار بن العوام القرشي الأسدي. كان ثقة من الثقات، وعالمًا بالنسب، وعارفًا بأخبار المتقدّمين والماضين. سكن المدينة المنوّرة مع أهله بني الزبير، وارتحل إلى بغداد، حيث أكرمه المتوكل واختاره لتأديب ولده موفّق، لذلك أهداه هذا الكتاب وسمّاه «الموفقيّات». درس على علماء عصره وشيوخهم، وله الكثير من التصانيف؛ منها: «نسب قريش وأخبارها»، و«أخبار العرب وأيّامها»، و«أخبار الأوس والخزرج»، و«النّحل»، و«نوادر المدنيّين»، و«العَقيق وأخباره»، و«أخبار الأشعث»، و«أخبار أُميّة بن أبي الصلت»، و«أخبار المدينة»، وغيرها الكثير. توفّي الزبير بن بكّار في مكّة وهو قاض عليها.

تنبع أهمّيّة كتاب «الأخبار الموفقيّات» من وصفه روايات وقصص تاريخيّة، تُقدّم صورة لأوضاع تلك الفترة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. وانفرد الكتاب ببعض الروايات، وتتّفق بعض رواياته الأخرى مع روايات مؤرّخين آخرين. وفي بعض الأحيان، يتوسّع الكاتب في تلك الروايات، التي ذُكرت في مواقع أخرى من كتب التاريخ، بالرغم من أنّه لا يشير في كتابه إلى أيّ مرجع أو مصنّف لرواياته، بل اعتمد على الأسانيد المتصلة نقلاً عمّن حدّثوه، وهم كُثر، من أهمّهم: عمّه مصعب بن عبد الله الزبيري، الذي روى عنه أكثر من مائة وعشرين خبراً.

---

(١) الزبير بن بكّار، الأخبار الموفّقيّات؛ تحقيق سامي مكّي العاني، بيروت: عالم الكتب، طبعة ثانية جديدة ومنقّحة، ١٩٩٦.

عُني الكتاب، بوجه عام، باللغة والنحو والأخبار، ووثّق روايات بلغ عددها ٤٣٩ رواية. ومن الأمثلة على رواياته الاجتماعيّة الطابع، قوله في «الأخبار الموفقيّات»:

«كان لي جار من كِندة يُقال له: مَيسرة، لا يزال يقرع امرأته، فقلت فيه»:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم

فشلَّت يميني يوم أضرب زينبا

أأضربها في غير جُرم أتت به

إليّ فما عُذري إذا كنت مذنبا

ويُكمِل روايته بقوله: إنّ زينب زوجته أقامت معه عشرين سنة، ولم يغضب عليها، فيُعلّق ساخراً: «فأفسدت عليّ النساءَ، فلم أتزوج بعدها».

وفي رواية رقم ٢٥ من الكتاب يُقيم حواراً وهميّاً بين إمامين، فيسأل أحدهم الآخر: «أخبرني عن كلمة أوّلها شِركٌ وآخرها إيمان، ما هي؟

قال: لا أدري.

قال: قول الرجل لا إله إلا الله، فلو قال: لا إله. ثم أمسك، كان مشركاً، فهذه كلمة أوّلها شِركٌ وآخرها إيمان».

ثم قال يتساءل ثانية: أيّهما أعظم عند الله قتل النفس التي حرّم الله قتلها أم الزنا؟

قال: لا بل قتل النفس.

فقال له: إن الله قد رضي وقبل في قتل النفس بشاهدين، ولم يقبل في الزنا إلا أربعة. فكيف يقوم لك قياس؟

ثم سأل الإمام الأوّل أيضاً: أيّهما أعظم عند الله، الصوم أم الصلاة؟

قال: لا بل الصلاة.

فرد عليه: فما بال المرأة إذا حاضت تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة؟

وفي الشعر يخبرنا الزبير بن بكّار عن الشاعر الأكثر جرأة، والأسرع قولاً للشعر بداهة، فيقول (نقلاً عن هشام بن عروة عن أبيه):

ما سمعت بأحد أجرأ ولا أسرع شعراً من عبد الله بن رواحه عندما أنشد للرسول الكريم، متى طُلب منه أن يقول شعراً تقتضيه الساعة، فيما كان الطالب ينظر إليه آنذاك، فانطلق عبد الله بن رواحه ينشد:

إنّـــي تـفـرّسـتُ فـيـكَ الـخـيـرَ أعـرفـه

واللهُ يـعـلـم مـــا إن خـــانـنـي بـصـرُ

أنـــت الـنـبـيّ ومَـــنْ يُـحـــرَم شـفـاعَـتـه

يـــوم الـحـســاب فـقـد أزرى بـه الـقـدرُ

•••

١٣- الكتاب: أدب الكاتب[١]

ابن قُتيبة (الدينوري) (٢١٣ – ٢٧٦ هـ / ٨٢٨ – ٨٩٠ م)

هو أبو محمّد، عبد الله بن مُسْلِم بن قُتيبة، المروزي الدينوري، نسبة إلى قضاء دينور، الذي تولّى قضاءه ردحًا من الزمن. ويُكنّى أيضًا بالمرْوَزيّ نسبة إلى مرو حيث ولد أبوه. ولقّب بالقُتَيْبيّ أو القُتَبيّ، نسبة إلى جدّه قُتيبة. ولد في الكوفة، وسكن بغداد، واشتغل بالتدريس فيها. ويُعد إمام مدرسة بغداد النحويّة التي جمعت بين مذهبي البصْريّين والكوفيّين. كما كان فقيهًا يُشار إليه بالبنان. له الكثير من المصنّفات الممتعة والمفيدة في الأدب واللغة؛ منها: «أدب الكاتب»، و«إصلاح الغلط»، و«الأنواء»، و«تأويل مختلف الحديث»، و«التسوية بين العرب والعجم»، و«التفقيه في جامع النحو»، و«عيون الأخبار»، و«طبقات الشعراء»، و«معاني الشعر الكبير»، و«عيون الشعر»، و«الشعر والشعراء»، و«إعراب القرآن»، و«مُشْكِلُ القرآن» (الذي بحث فيه عن إعجاز القرآن)، و«الردُ على خلق القرآن»، و«دلائل النبوّة»، و«معجزات النبي»، و«الرد على مُشَبّهته» (الذي ردّ فيه على تهمته بالزندقة)، و«الرد على الشعوبيّة»، و«العرب وعلومها»، و«المعارف»، و«الأشربة»، وهو كِتابٌ في المشروبات الخمريّة، وغيرها.

قال ابن خَلدون في مقدّمته: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول هذا الفن (الأدب وأركانه) أربعة دواوين؛ هي: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، وكتاب «الكامل» للمبرّد، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «النوادر» لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة، فتبع لها وفروع عنها». فكتاب ابن قتيبة يُعدّ

(١) ابن قتيبة الدينوري، أدب الكاتب، شرح وتقديم علي فاعور، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

من أمّهات الكتب في الأدب؛ وبه تأدّب الكثيرون من علماء الأمة ورجالاتها. ولا تزال منزلةُ مؤلّفهِ كبيرة في نفوس المتأدّبين حتّى يومنا هذا.

قسّم ابن قتيبة الكتاب إلى أربعة أجزاء: كتاب المعرفة، وكتاب تقويم اليد، وكتاب تقويم اللسان، وكتاب الأبنية. ففي كتاب المعرفة، المقسّم إلى عدد من الأبواب، نجد مثلاً: باب أصول أسماء الناس. كالمسمّون بأسماء النبات؛ مثل: طَلْحة (نوع من الأشجار)، وعَلْقمة (الحنظل)، وحَمْزة (بقلة). والمسمّون بأسماء الطير؛ مثل: هَوْذة (القَطاة)، والقُطامة (الصّقر)، واليعقوب (ذكَر الحجل)، والهيثم (فرْخ العُقاب)، وعكرمة (الحمامة). والمسمّون بأسماء السّباع؛ مثل: عَنْبَس (الأسد)، وحَيْدرة (الأسد)، والضّيْغم (الأسد). والمسمّون بأسماء الهوام؛ مثل: الحنش (الحيّة)، والذّرّ (صغير النّمل)، والمازِن (بيض النّمل). وكذلك المُسَمَّون بالصّفات؛ مثل: الحوشب (عظيم البطن)، والصّمّتي (الشجاع)، والحَنْبل (القصير)، وقُتيبة (تصغير قِتْب، وجَمعه أقتاب؛ وهي الأمعاء)؛ والجرير (حَبل في عنق الدابة)، والأخطل (من الخَطْل، وهو استرخاء الأذن)، وعاتكة (القوس إذا قَدمت واحمَرّت)، والرّباب (السّحاب).

ويخصّص بضعة أبواب في كتاب المعرفة للحديث عن عيوب الخيل، وألوانها، وخَلْقها، والسوابق منها. وينتقل إلى أبواب معرفة ما في خَلْق الإنسان من عيوب، كالفروق في الخلق، وفروق الأسنان، وفروق الأفواه، والفروق في الحَمل، والولادة، والأصوات، وغيرها. ثمّ ينتقل إلى باب معرفة الطعام والشراب والثياب واللباس والآلات؛ وإلى معرفة السلاح وأسماء الصنّاع؛ فالمعرفة بالطير والهوام والذباب وصغار الطير، وفي الحيّات والعقارب، وفي جواهر الأرض، وغيرها.

أمّا كتاب تقويم اليد، ففيه: باب إقامة الهجاء، وباب ألف الوصل في الأسماء، وباب الألف مع اللام للتعريف، ومواقع الهمزة، وباب العدد من التذكير والتأنيث، وباب حروف المدّ، وغيرها من قضايا اللغة. وفي كتاب تقويم اللسان، أبوابٌ كثيرة؛ كباب الحرفين المتقاربيْن في اللفظ، المُلتبسيْن في المعنى. وباب الحروف التي تتقارب

ألفاظها وتختلف معانيها. وباب ما لا يُهمز فيما تهمزه العوام. وباب ما يُشدّد والعوام تخفّفه؛ وما إلى ذلك.

وأمّا كتاب الأبنية، ففيه أبنية الأفعال، ومعاني أبنية الأفعال؛ وأبنية الأسماء. وينتهي بباب أبنية المصادر، وما جاء فيه المصدر على غير صدر. وفي باب ما جَمْعُه وواحدُه سواء، يضرب مثلاً: «الْفُلك»، وهي السفن، وواحدُها فُلْك أيضاً. كذلك «الطّاغوت»: فهو واحد وجمْع ومذكّر ومؤنّث. و«الزَّوْج» يكون واحداً ويكون اثنيْن. لكنّه يفتح الباب أمام الاجتهاد في هذا المقام؛ فيذكر قول سيبويْه: «الْحَلْفَاء» واحد وجمْع معـًا، وكذلك «الطَّرْفاء»؛ في حين يذكر ابن قتيبة وجهة نظر أخرى: «أمّا (الْحَلْفَاء)، فجمع (حَلَف)؛ وأمّا (الطَّرْفاء)، فجمع (طَرَفَة)؛ وهكذا».

ويَستخدم الكثير من الآيات الكريمة في إسناد ما يكتب. فمثلاً في قوله: إنّ كلمة «الطّاغُوت» واحدة في الجمع والمؤنث والمذكر، يستشهد بقوله تعالى:

﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٥٧).

أمّا بالنسبة لكلمة «الزوج»، فيستشهد بالآية الكريمة:

﴿حتّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْملْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (سورة هود، آية ٤٠)؛ فالزوج هنا شخص واحد. لكنْ، يُقال للاثنين إذا كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى، وكانا من جنس واحد: إنهما يُكوّنان زوْجـًا واحداً، والجمع: أزواج.

•••

١٤- الكتاب: عيون الأخبار[١]

ابن قتيبة (الدّينوري) (٢١٣ – ٢٧٦ هـ / ٨٢٨ – ٨٩٠ م)

هو أبو محمّد، عبد الله بن مُسْلِم بن قُتيبة، المروزي الدينوري، نسبة إلى قضاء دينور، الذي تولى قضاءه ردحاً من الزمن. ويُكنّى أيضاً بالمرْوَزيّ نسبة إلى مرو حيث ولد أبوه. ولقّب بالقُتَيْبيّ أو القُتَبيّ، نسبة إلى جدّه قُتيبة. ولد في الكوفة، وسكن بغداد، واشتغل بالتدريس فيها. ويُعد إمام مدرسة بغداد النحوية التي جمعت بين مذهبي البصْريّين والكوفيّين. كما كان فقيهاً يُشار إليه بالبنان. له الكثير من المصنّفات الممتعة والمفيدة في الأدب واللغة؛ منها: «أدب الكاتب»، و«إصلاح الغلط»، و«الأنواء»، و«تأويل مختلف الحديث»، و«التسوية بين العرب والعجم»، و«التفقيه في جامع النحو»، و«عيون الأخبار»، و«طبقات الشعراء»، و«معاني الشعر الكبير»، و«عيون الشعر»، و«الشعر والشعراء»، و«إعراب القرآن»، و«مُشْكِلُ القرآن» (الذي بحث فيه عن إعجاز القرآن)، و«الردُ على خلق القرآن»، و«دلائل النبوّة»، و«معجزات النبي»، و«الرد على مُشَبّهته» (الذي ردّ فيه على تهمته بالزندقة)، و«الرد على الشعوبيّة»، و«العرب وعلومها»، و«المعارف»، و«الأشربة»، وهو كِتابٌ في المشروبات الخمريّة، وغيرها.

شاء ابن قتيبة أن يُقدّمَ كتابه هذا «إلى طبقة الكُتّاب وأصحاب الدواوين لسدّ حاجتهم من الأدب والتاريخ»، كما يقول. ومع أنّ البعض شكّك في صدق رواياته، إلاّ أنّ عمله الموسوعي جعله من كتب التراث الرئيسيّة. يقول الدينوري في مقدّمة الكتاب: «فزَكاة المال الصدقة، وزَكاة الشرف التواضع، وزَكاة الجاه بَذْلُه، وزَكاة العِلم نشره». ويرى

---

(١)عبد الله ابن قتيبة الدّينوري، عيون الأخبار؛ شرحه وعلّق عليه يوسف علي طويل، بيروت: دار الكتب العلميّة، بلا طبعة، ١٩٩٨، مجلّدان في أربعة أجزاء.

أنّ موضوعات كتابه ليست مقصورة على القرآن والسنّة؛ بل هي أيضـًا «مرشدة لكريم الأخلاق، وباعثة على صواب التدبير؛ لأنّ علم الدين والحلال والحرام تقليد لا يجوز أن نأخذه إلا عمّن نراه حجةً». وجَعَله في «كتب» (أجزاء) عشرة بنثرٍ دقيق المعنى جميل الصورة، مُطعّمٍ بنوادرَ طريفة.

وإذا عقدنا مقارنة بين كتابي «عيون الأخبار» للدينوري و»العقد الفريد» لابن عبد ربّه، فإنّنا نجد أنّ البابيْن الأوّليْن في الكتابيْن متماثلان. فالباب الأوّل في العقد الفريد عنوانه « اللؤلؤة في السلطان»؛ أمّا في عيون الأخبار، فهو «كتاب السلطان». والباب الثاني في العقد الفريد مُعنون: «الفريدة في الحروب ومدار أمرها»؛ فيما يقابل ذلك في الباب الثاني من عيون الأخبار: «كتاب الحرب». كذلك، نجد في الباب الثاني من العقد الفريد فصولاً بعنوان: «فضائل الخيل»، و«صفة جياد الخيل»، و«سوابق الخيل»؛ إلخ... . أمّا في الباب الثاني من عيون الأخبار، فنجد ما يماثل ذلك: «باب في الخيل».

وبناءً عليه، فإنه يتبيّن لنا أنّ «العقد الفريد» تأثّر تأثّراً كبيراً بكتاب «عيون الأخبار»؛ من حيث الترتيب والتبويب وتصنيف موضوعاته. بل إنّ الصفحات الأولى من الكتابيْن تكاد تكون متشابهة تمامـًا، خاصّة من حيث الروايات عن أقوال الرسول الكريم. إنّما نمط تقديمها في كتاب ابن عبد ربه جاء بأسلوب مختلف؛ بقوله: حدثني فلان عن فلان...إلخ، والمنتشرة في سائر جنبات الكتاب .

ختامـًا، يمكننا القول إنّ «عيون الأخبار» هي بمثابة موسوعة في علوم عصر ابن قتيبه الدينوري؛ ففيه العلم، والبيان، والأخلاق، والفقه، والعقيدة، وتفصيلات الحروب وآليّاتها من خيل وسيوف وفرسان، وما يرافقها من صفات الجبن والشجاعة. من هنا، فالكتاب مصدر غنيّ لدراسة عادات الشعوب وتقاليدها وأخلاقيّاتها في ذاك الزمان، ويُلقي الضوء على الكيفيّة التي كانُ يفهم الإسلام فيها آنذاك؛ فضلاً عن أنّه يُوثّق طبيعة العَلاقات التي كانت قائمة بين السلطان ورعيّته. لكنْ، ورغم تلك الأهمّيّة فيُؤخذ على هذا المصنّف الاستطراد والتكرار أحيانـًا.

•••

١٥- الكتاب: المعرفة والتاريخ[١]

يعقوب بن سفيان الفسوي (؟؟ – ٢٧٧ هـ / ؟؟ – ٨٩٠ م)

هو الإمام أبو يوسف، يعقوب بن سفيان الفارسيّ الفسويّ. ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة في مدينة «فسا»؛ وهي مدينة من أقاليم فارس. ارتحل إلى دمشق، فحمص؛ ثم فلسطين، فمصر. تتلمذ على عبد الله بن الزبير، وعبد الله المقرئ، وغيرهما. وكتابنا هذا يُسمّيه بعضهم كتاب «التاريخ»؛ وهو من أهم كتبه. قال الذهبي فيه إنّه جَمّ الفوائد؛ فيما قال ابن القيّم الجوزيّة في وصفه: إنّه كتاب قيّم جليل غزير العلم. كما قال فيه ابن كثير: إنّه من الكتب المفيدة. وللفسوي الكثير من الكتب غيره؛ منها: كتاب «المشيخة»، وكتاب «البرّ والصلة»، وكتاب «السنّة»، وكتاب «الزوال»، وغيرها. توفّي الإمام أبو يوسف في البصرة ودفن فيها.

يبدأ الفسوي كتابه هذا بسنة ١٣٥ للهجرة، ويخبرنا أنّه في ذلك العام قفل أبو مسلم من سمرقند، ووجّه الوفود إلى أبي العبّاس، وقُتل زياد بن صالح الخزاعي، وغزا «الصائغة» الحارث بن عبد الرحمن الحرشي، وأقام الحج للناس سليمان بن علي بن عبد الله بن عبّاس، الذي عزل زياد بن عبيد الله الحارثي عن مكّة، وولّى عبد الله بن معبد بن العبّاس.

تتنوّع موضوعات الكتاب، خاصّة الروايات؛ فمنها أخبار عن الخلفاء، أو الأمراء، أو الأشخاص المعروفين. ومن الروايات المُشوّقة ما هو في الأحوال الاجتماعيّة للناس،

(١) يعقوب بن يوسف سُفيان الفسوي، المعرفة والتاريخ؛ تحقيق أحمد ضياء العمري، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠١ للهجرة، في أربعة أجزاء.

كالزواج والطلاق، وفي قضايا المعاملات عامّة؛ فضلاً عن أمور الافتاء في المسائل الدينيّة، وكيف تعامل معها عامّة الناس، والقضاة، وغيرهم من عناصر المجتمع.

ويُلاحظ في الكتاب اهتمام الفسوي البالغ ببعض الشخصيّات التاريخيّة، كالخليفة العادل عمر بن عبد العزيز؛ فينقل لنا أخباره عن كثير من المحدّثين أكثرَ من ١٦٠ مرّة. كما يأتي على ذكر أسماء كثرة من المحدّثين، الذين تتكرر أسماؤهم؛ مثل ابن وهب، الذي يتكرّر اسمه أكثر من مئتي مَرّة. وهنالك أحاديث كثيرة عن إبراهيم بن أبي طالب، الذي نقل الحديث عن أبيه وجَده، وعن محدّثين آخرين، أمثال جويريّة بن أسماء، ومعن بن مالك، وغيرهما.

ويتّضح في كتاب «المعرفة والتاريخ» التنوّع الكبير بين المحدّثين؛ لكنّ الكتاب يخلو من ذكر أي مصادر أو مراجع. فمثلاً، يُنهي الفسوي المجلّد الأوّل بقوله: «حدثني أحمد بن الخليل، قال: سمعت أبا نوح قراداً يقول: نِعم الرجل سفيان لولا أنّه يقمش؛ يَعني يأخذ من الناس كلهم».

ويبدأ المؤلّف المجلّد الثاني من كتابه بذكر روايات عن كذب عكرمة، مولى بني عبّاس. ثمّ يَروي شيئاً مغايراً بعد موته؛ فيذكر قول أهل المدينة فيه: «مات أفقه الناس وأشعر الناس». وهذه التناقضات، وغيرها، كثيرة في الكتاب، لا نجد وقفة عندها أو تمحيص. وربّما كانت تعكس المواقف المتذبذبة من آراء الناس، كما في المجتمعات العربيّة السائدة في يومنا هذا.

الكتاب في مجمله غير مترابط الأفكار؛ فلعلّه كُتب على مراحل تاريخيّة متباعدة. وجاءت الروايات وَفق تطوّر الأحداث؛ لأنّه يقفز من موضوع إلى آخر، ثم يعود إلى الموضوع الأصليّ، وهكذا. فهو يذكر، على سبيل المثال، في صفحة ١٤ من المجلّد الأوّل، أنّ المسعودي مات سنة ستين ومئة؛ في حين أنّ المسعودي الذي نعرفه، صاحب كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، توفّي سنة ٣٤٦ للهجرة. فهل كان في ذهنه مسعودي آخر؟!

ومهما يكن من أمر، فإنّ كتاب «المعرفة والتاريخ» فيه معلومات غزيرة شائقة، تُشكّل في مجملها توثيقاً للأحوال الاجتماعيّة والسياسيّة والفقهيّة لفترة زمنية مهمّة في تاريخ الحضارة العربيّة الاسلاميّة، امتدّت من سنة ١٣٥ للهجرة حتّى موت الفسوي في سنة ٢٧٧ للهجرة.

•••

١٦- الكتاب: فتوح البلدان[١]

البلاذري (؟؟ – ٢٧٩ هـ / ؟؟ – ٨٩٢ م)

هو أبو الحسن، أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود البلاذري، مؤرّخ وشاعر وراوية، عمل في بلاط الخلفاء العبّاسيين. ارتحل إلى العراق وبلاد الشام، واتصل بالخليفة المأمون، ثم بالمتوكّل على الله، وكان مُقرّبًا جدّاً منهما؛ ثم تقرّب من المستعين بالله. وحظي البلاذري كذلك بمودّة المعتز بالله وأصبح من ثقاته؛ فعهد إليه بتربية ولده عبد الله. وكان البلاذري أحد النقلة الذين كان يشار إليهم بالنقل والترجمة من الفارسيّة إلى العربيّة. وبعد زوال عهد المعتز بالله، بدأ مجد البلاذري يزول في عهد المعتمد على الله؛ فأصبح فقيراً معتازاً ومديونًا يطلب الرزق على أبواب الوزراء، الذين كان يَهجوهم شعراً فيما مضى. له الكثير من المؤلّفات، منها، إضافة إلى «فتوح البلدان»: «جمل أنساب الأشراف»، و«البلدان الصغير»، و«البلدان الكبير»، و«عهد أردشير»، وغيرها.

يستعرض البلاذري في كتابه هذا تاريخ الفتوح الإسلاميّة، بدءاً بهجرة الرسول الكريم إلى المدينة المنوّرة (يثرب)، وتأسيس دولته، وتمكين الإسلام فيها، وبناء المسجد النبوي؛ وعبوراً بتأسيس الدولة الإسلاميّة وترسيخها في حكم الخلفاء الراشدين واندياحها في عهد الأمويّين، عهد الفتوحات الحقيقي؛ وانتهاءً بأهم الأحداث التاريخيّة، والمعارك المهمّة، والفتوحات التي وقعت، والفتن التي ثارت هنا وهناك. ويمتاز الكتاب بسرد أسماء البلاد المفتوحة تِباعًا وذكر أهمّ الأحداث التي وقعت فيها، وأبرز ما يميّز كل بلد عن الآخر.

---

(١) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان (www.culture-islam.fr)؛ تمّت زيارة الموقع بتاريخ ٢٣/ ٣/ ٢٠٢٠.

وعند الحديث عن مدينة السلام (بغداد)، يذكر البلاذري أنّها مدينة قديمة، بناها أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور، الذي حوّل بيوت الأموال والخزائن والدواوين من الكوفة إليها سنة ١٤٩ للهجرة، للاستثمار في جعلها عاصمة الخلافة.

ويتحدّث البلاذري في كتابه، بالتفصيل وبلغة جميلة، كيف بنى أبو جعفر المنصور المسجدين والقنطرة الجديدة على نهر الصراط ببغداد، وما إلى ذلك من عمران، وكيف شَقّ أقنية، وفتْح طرقات، ونظّم المدينة، وما ارتبط بذلك من أعمال في بنيتها التحتيّة.

ويذكر المؤلّف كيف أقطع أبو جعفر المنصور الناس أجزاء من المدينة ليسكنوها؛ ثم سُمّيت لاحقاً باسمهم. فمثلاً، عندما أقطع المنصور المهلهل بن صفوان قطيعة بالمدينة، باتت تُنسب إليه؛ فسُمّيت درب مهلل. وهكذا جرت العادة من بعد المنصور، فاتخذت الكثير من الأماكن أسماء أصحابها.

ويتحدّث البلاذري عن الخليفة المهدي، الذي نزل بغداد بعد أبي جعفر المنصور، ثمّ عن عهد هارون الرشيد بن المهدي، ومحمّد بن الرشيد، الذي قتل فيها، فالخلفاء: المأمون، والمعتصم، والأمين، وهكذا؛ وصولاً إلى المتوكّل، فالمعتصم، فالمعتمد، فالمعتضد بالله؛ وانتهاء بغزو التتار للبلاد الإسلاميّة واجتياح بغداد ونهبها وتدميرها.

وأغلب روايات البلاذري في الكتاب جاءت نقلاً عن مُحدّثين؛ كقوله: حدّثني القاسم بن سلام، أو حدّثني أبو عبيد، أو حدّثني محمّد بن سعد عن الواقدي، عن محمّد بن نجاد عن عائشة بنت سعد ... إلخ. كذلك، يلاحظ القارئ عدم التوثيق لأيّ مراجع أو مصادر استُخدمت في تأليف الكتاب؛ ربّما لأنّ هذا الكتاب كان من أقدم كتب التأريخ لمدينة السلام، فكانت أعمال التأليف أصيلة. ويعترف مؤلّفه أنّه كان يؤلّف الخبر؛ بمعنى أنّه كان يمزج الأخبار المتنوّعة ويقدّمها بلغته وأسلوبه المُشوّق.

وقد يكون مثيراً أنْ يَعقد الباحثون مقارنات بين وصف البلاذري لبغداد ووصف مؤلّفين آخرين لها، بهدف إحصاء التغيّرات التي طرأت عليها عبر العصور، والسعي

إلى سبر أغوارها والكشف عن أسبابها؛ بما في ذلك ربطها بالتغيّرات المُناخيّة، التي عصفت بالعالم في العقود الأخيرة.

•••

١٧- الكتاب: بلاغات النساء[(١)]

ابن طيْفور (أحمد البغدادي) (٢٠٤ – ٢٨٠ هـ / ٨١٩ – ٨٩٣ م)

هو أحمد بن أبي طاهر الموروزيّ الخُراسانيّ البغداديّ، الملقب ابن طيْفور. وُلد في بغداد لأسرة فارسيّة من خُراسان، وبدأ حياته الأدبيّة معلّماً ومؤدّباً لأبناء الأسر الثريّة، واشتغل في نَسْخ الكتب. ويُعزى إليه الفضل في كتابة «تاريخ بغداد»؛ فقد كان أوّل مَنْ أرّخ لمدينة بغداد؛ توفّي فيها، ودُفن بباب الشام. له الكثير من المؤلّفات، تجاوزت الأربعين كتاباً، لم يصلنا منها سوى المجلّد السادس من كتاب «تاريخ بغداد»، و«المنثور المنظوم»، و«بلاغات النساء». كذلك، صنّف الكتب الآتية: «أخبار ابن الدمينة»، و«أخبار ابن ميادة»، و«أخبار ابن هرمة»، و«أخبار المتظرّفات»، و«أخبار أشعار الشعراء»، و«سرقات الشعراء»، و«كتاب الحجاب»، و«كتاب الجواهر»، و«مقاتل الشعراء»، وغيرها.

يحتوي هذا الكتاب على تنوّع كبير من خُطب شهيرة؛ مثل: خُطبة السيّدة عائشة أمّ المؤمنين في فضائل أبي بكر، وخطبتها بالبصرة حين كانت ساعية في طلب دم الخليفة عثمان بن عفّان، ومحاوراتها مع أبي الأسود الدؤلي، وخطبتها حين بلغها نبأ قتل عثمان، ورسائلها التي نقلتها مع وفودها إلى معاوية، وما إلى ذلك من سياسة وأدب. كذلك، هناك كلمات للسيّدات سودة بنت عمارة، والزرقاء بنت عَدي، وبكارى الهلاليّة، وغيرهن. ويتدرّج الكتاب للحديث عن بلاغات النساء في منازعات الأزواج،

(١) أحمد بن أبي طاهر أبو الفصل ابن طيْفور، بلاغات النساء وطرائف كلامهنّ ومُلح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهليّة وصدر الإسلام؛ تحقيق أحمد الألفي، مصر: مطبعة مدرسة والدة عبّاس الأوّل، الطبعة الأولى، ١٩٠٨.

مدحاً وذمّاً، وفي منازعات الأزواج والضرائر، وفي وصايا النساء لبناتهنّ عند الزواج، وغيرها من أخبار.

كما يتضمّن حكاياتٍ وأحاديثَ عن النساء في مواقفَ مختلفة: كالرواية التي تقصّ ما فعلته أزدة بنت الحارث لنُصرة جيش المسلمين، والحديث المطوّل عن امرأة ناظرت عمر بن الخطّاب فغلبته؛ وثلّة من أخبار ذوات الرأي والظرف. وينتهي الكتاب بمجموعة من أجوبة ظراف النساء في مسائلَ متنوّعة.

ويَجمع ابن طيفور أشعاراً للنساء في كلّ فنّ من الفنون، وفي عصور تاريخيّة مختلفة (الجاهليّة والإسلام): المُحدّثات من الإماء، وغيرهن من عامّة الناس، فضلاً عن الخنساء وبعض النسوة الشهيرات في عالَم الشعر والأدب؛ مثل: ليلى بنت الأخيل (الأخيليّة)، وغيرها.

ومن الأمثلة على شعر النساء، الوارد في «بلاغات النساء»:

(١) مِن بنت حباب في الشوق إلى يحيى بن حمزة، واستعدادها أن تحتمل ألم ضرب بالسياط كي تراه :

أأضْرَبُ في يحيى وبيني وبينه

تَنَائفُ لو تسري بها الريح كَلّتْ

ألا ليت يحيى يوم عَهْبَلَ زارنا

وإنْ نهلت منّا السّياط وعَلتْ

(٢) قال أحمد بن الحارث عن أبي الحسن المدائنيّ: كان يزيد ابن هبيرة المحاربي أوّلَ أمير ولّى اليمامة لعبد الملك بن مروان. فتزوّج امرأة من وِلد طلبة بن قيس بن عاصم المنقري (المعروفة باسم ميسون البدويّة). فقالت في الشوق إلى مضارب أهلها:

لـلـبـس عـــبـــاءة وتـــقـــــرّ عيـني

أحـــــبّ إلـــــيّ مـــن لِــبــس الــشـفــوف

وبِـــكـــر يـتـبـع الأظـــعــــان صـــبّ

أحـــــبّ إلـــــيّ مـــن بــغـــل زفـــوف

ولـــبـــيـــت تـــخـــفـــق الأرواح فـــيـــه

أحـــــبّ إلـــــيّ مـــن قــصـــر مـنـيـف

وبناءً عليه، فإنّ « بلاغات النساء» كتابٌ جديرٌ بالقراءة، خاصّة في عصرنا هذا؛ حيث يُمكن أنْ يُعدّ إحياء التراث النسويّ في تاريخنا العربيّ الإسلاميّ مُنطلَقاً للدعوة إلى تحرير المرأة المعاصرة، ومساواتها بالرجل، وصيانة حقوقها؛ وَفقاً لقاعدة أنّ قدرات النساء العقليّة لا تقلّ شأناً عن قدرات الذكور.

ويُلاحَظ من تاريخ صدور الكتاب، عام ١٩٠٨، تزامنُهُ مع تحوّلات مهمّة طرأت على النظرة إلى المرأة العربيّة منذ نهايات القرن التاسعَ عشر. وتبلورت هذه النظرة – أكثر ما تبلورت – في كتابات قاسم أمين في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد (كتاب «تحرير المرأة»، ١٨٩٩؛ وكتاب «المرأة الجديدة»، ١٩٠٠). ولا ننسى أيضاً زينب فوّاز (١٨٦٠– ١٩١٤) اللبنانيّة، صاحبة كتاب «الدُّر المنثور في طبقات ربّات الخدور»، وهو ترجمة لشهيرات النساء الشرقيّات والغربيّات، الذي كان تحفة عصره ونالت به شهرة واسعة؛ وعائشة التيموريّة (١٨٤٠– ١٩٠٢) التي ولدت في القاهرة لأسرة ثريّة، وكانت أديبة وشاعرة، ومن أوائل النسوة اللاتي نشرن مقالاتٍ أدبيّة في القرن التاسعَ عشر.

•••

١٨- الكتاب: الكامل في اللغة والأدب[١]

المُبرِّد (٢١٠ – ٢٨٥ هـ / ٨٢٦ – ٨٩٨ م)

هو أبو العبّاس، محمّد بن يزيد بن عبد الأكبر، الملقّب بالمُبرِّد. ولد بالبصرة، وتعود أصوله إلى قبيلة ثمالة بن أسلم الأزدي من ثقيف جنوبيّ الطائف. لقّب بالمبرّد لحسن وجهه، أو لدقّة جوابه وحُسنه. تلقّى علومه في النحو واللغة والتصريف على علماء عصره وأئمّتهم؛ مثل: الجرمي، والتوزي، والجاحظ، والسجستاني، والرياشي، والمازني، والقاضي إسماعيل بن إسحاق، وغيرهم. وعندما قُتل الخليفة المتوكّل، ارتحل إلى بغداد، وظل هناك حتّى مات، ودفن فيها في مقبرة باب الكوفة. قال الأزهري عنه: إنّه كان أعلم الناس بمذاهب البصْريّين في النحو وقياسه. من مؤلّفاته، إلى جانب هذا الكتاب: «المُقتضب»، و«الفاضل»، و«شرح لاميّة العرب». وله كتب كثيرة أشير إليها ولم تصلنا؛ مثل: «الاختيار»، و«الاشتقاق»، و«الشافي»، و«الفتن والمحن».

يَعدّ ابن خلدون أنّ علوم الأدب العربي وأصوله وأركانه جاءت في أربعة كتب، هي: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، و«الكامل» للمبرِّد، و«البيان والتبيين» للجاحظ، و«النوادر» للبغدادي. وقال أيضاً: أمّا غيْر ذلك من مؤلّفات، ففروعٌ عنها وتوابعُ لها.

صُنِّف كتاب «الكامل» في تسعة وخمسين باباً مُتنوّعاً أشدّ التنوّع. فخُصّص أحد الأبواب للكلام والبلاغة، فاحتوى هذا على إشارات بلاغيّة مهمّة، كالكناية وأقسامها، والمجاز وأنواعه، والاستعارة وألوانها، والالتفات، والتجريد، والتشبيه، الذي عُقد

---

(١) محمّد بن يزيد بن عبد الأكبر الملقّب بالمبرِّد، الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف؛ تحقيق زكي مبارك، مصر: مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، ١٩٣٦.

له بابٌ خاصّ. كذلك، خُصّ الإيجاز بباب آخر، وأُورد فيه ألوانٌ شتّى من الأمثلة والأفكار. وعمومـاً، تكثر القضايا اللغويّة في الكتاب، والاستشهادات بالقرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة. لكنّه يحتوي أيضـاً على عدد كبير من الأمثال العربيّة، وأقوال الحكماء، وأخبارهم، وقضايا نَحْويّة؛ فضلاً عن أنّه موشّح، هنا وهناك، بطرائفَ لا تخدش الحياء وتُنعش القارىء.

يكتنز «الكامل»عدداً كبيراً من الآيات القرآنيّة المنتخبة التي بلغت ١١٢ آية. كما يضمّ الكثير من الأحاديث النبويّة الشريفة الصحيحة المُسندة. ويحتوي على ٧٥ مثلاً من أمثال العرب، مع مبحث مفصّل في أصولها ومناسباتها. كذلك، يعجّ الكتاب بنماذجَ من خُطب العرب في مختلِف العصور. ويتّضح فيه اهتمام المُبرِّد البالغ بالبلاغة العربيّة، بضروبها كافّة، مُستشهداً بأمثلةٍ وشواهدَ لشعراء قدماء ومحدثين. إلّا أنّه خصّ منهم الفرزدق، وأبا العتاهية، وأبا نُواس، ودعبل، وبشّار بن برد، والخنساء، وليلى الأخيليّة ؛ فضلاً عن اهتمامه بالقضايا اللغويّة.

فها هو، في الباب الأوّل، يصف كلام العرب بالاختصار، والإطناب المُفَخّم، والإيماء إلى الشيء. فيقدّم مثلاً من الفرزدق على الإيماء:

ضَـرَبـتْ عَـلـيـكَ الـعـنـكَـبـوتُ بـنَـسْـجِـهـا

وَقَـضَـى عَـلَـيـكَ بـهِ الـكِـتـابُ الـمُـنْـزلُ

أراد بنسج العنكبوت إيماءة تُشير إلى قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية ٤١).

والكتاب يُعدّ أيضـاً مصدراً مهمّـاً لأخبار الخوارج، بما في ذلك خُطبهم وفِرَقهم وأشعارهم. وكان يعود إليهم بين الحين والآخر، إلى درجة أنّه هو نفسه لاحظ ذلك؛ فاعتذرعن الإطالة في أخبارهم، كما جاء في قوله: «وأخبار الخوارج كثيرة طويلة. وليس

كتابُنا هذا مُفرداً لهم؛ ولكننّا نُذكّر من أمورهم ما في معنى أو أدب، أو شعر مستطرف، أو كلام من خُطبة معروفة مختارة..»..

فلا شك أنّ الخوارج كانوا هاجساً فكريّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً في ذلك الوقت. انظروا إليه، في معرض حديثه عنهم يذكر قول أبي العبّاس: «وكان في جملة الخوارج لَدَدٌ واحتجاجٌ، على كثرة خطبائهم وشعرائهم، ونفاذ بصيرتهم وتوطين أنفسهم على الموت. فمنهم الذي ُطعن فأنفذه الرمح؛ فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول: ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (سورة طه، آية ٨٤).

وبشكل عام، فإنّ هذا الكتاب ثقافته عربيّة: لسانها لسان الحاكمين، ولغتها لغة الدين. لكنّ مؤلّفه مُتعصّب لليمن، بوصفه أزديّا يمانيّاً. لذلك خصّص باباً للحديث عن الأذواء (جمع ذو) من اليمن في الاسلام. كذلك، ذكر أنّ سعد بن معاذ الأنصاريّ هبط لموته سبعون ألف مَلَك لم يهبطوا إلى الأرض قبلها!!

•••

١٩- الكتاب: تاريخ الأطبّاء والفلاسفة[١]

إسحاق بن حُنين (٢١٥ – ٢٩٨ هـ / ٨٣٠ – ٩١١ م)

هو أبو يعقوب، إسحاق بن حُنين بن إسحاق العبادي. طبيب عربي من المشاهير في علم الطب، فريد عصره، اكتسب براعة أبيه حُنين بن إسحاق في النقل، وإتقان اللغات، والفصاحة، الأمر الذي ساعده في تعريب الكتب الطبّيّة اليونانيّة، وحكمة أرسطوطاليس، وغيره من حكماء اليونان. خدم الخلفاء، وكان من ندماء الخليفة المكتفي، وصادق القاسم بن عبيد الله، وزير الإمام المعتضد بالله، وتبادلا الشعر، كما يذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء». ينتمي إسحاق بن حُنين لقبيلة عبّاد العربيّة المسيحيّة، ولكنّه اعتنق الإسلام فيما بعد، وحَسُن إسلامه، كما قال البيهقي. أصيب بالشلل، وتوفّي في أيّام الخليفة المقتدر بالله مفلوجًا. ترجم كتاب «الأصول» لأقليدس، كما ترجم لجالينوس وأرخميدس وأفلاطون وغيرهم. له العديد من المؤلّفات؛ منها: «تاريخ الأطبّاء والفلاسفة»، و«كتاب الأدوية المفردة»، و«اختصار كتاب أقليدس»، و«المقولات»، و«كتاب في النبض على جهة التقسيم»، و«إصلاح جوامع الإسكندرانيّين لشرح جالينوس لكتاب الفصول».

يُعدّ إسحاق بن حُنين أوّل مؤرّخ عربي يضع كتاباً لتراجم الأطبّاء، ابتداءً بالأقدمين وانتهاءً بتراجم أطباء عصره. وقال شعراً في نفسه بوصفه طبيباً، أباً عن جد:

أنـــا ابـــن الـــذيـــن اســـتـــودع الـطـب

فـيـهـم وسُـــمُّـــوا بـــه طـفـل وكـهـل

---

(١) إسحاق بن حُنين، تاريخ الأطبّاء والفلاسفة؛ تحقيق فؤاد سيّد، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.

يبدأ إسحاق بن حُنين كتاب «تاريخ الأطبّاء والفلاسفة» بمقدّمة يناقش فيها آراء الأسبقين في أيّ الأطبّاء هو الأقدم تاريخيّاَ؟ إذ يبدأ من اسقلبيوس الأوّل الذي استنبط علوم الطب بالتجربة، ثم ينتقل إلى غوروس، ومينس، وبرمانيدس، وأفلاطون الطبيب، واسقلبيوس الثاني، وأبقراط، وأخيراً جالينوس. ويقول في علوم جالينوس:

وما زال جالينوس يشفي صدورنا

لما اختلفت فيه علينا الطبائع

ويستعرض مكان نشأة الأطبّاء الأوائل، ومتى ولدوا، ومتى ماتوا. ويخبرنا عن مؤلّفاتهم وعلاقة كل منهم بالآخرين، على الصعيدين الشخصي والمعرفي. ثم يتحدّث قليلاً عن الأطبّاء الذين أتوا بعد جالينوس، وسعوا إلى تفسير كتبه، وجمعوها، واختصروها، ويذكر منهم يحيى النحوي على وجه التحديد. ثم ينتقل إلى طبقات الأطبّاء والحكماء في الكتاب وفق تصنيفه الخاص.

وبالرغم من أنّ شخصيّة يحيى النحوي لم تكن معروفة تماماً عند المؤرّخين العرب، كما يقول القِفطي، إلّا أنّ محقق طبعة هذا الكتاب الذي اعتمدنا عليه، فؤاد سيّد، يذكر أنّ إسحاق بن حُنين كان قد نسخ عن يحيى النحوي. ومن المعلومات المستمدّة من محقّق كتاب «ابن جلجل» (فؤاد سيّد أيضاً) أنّ إسحاق قد نَقل معظم ما في كتابه «تاريخ الأطبّاء والفلاسفة» عن يحيى النّحوي، الملقّب بيوحنا النّحوي (جون فيلوبونوس(.

ولد يوحنا النحوي سنة ٤٩٠ للهجرة تقريباً، وتوفّي سنة ٥٧٠ للهجرة تقريباً، وهو معروف أيضاً باسم يوحنا النحوي، أو يوحنا الإسكندراني، وهو فيلسوف مسيحي اشتغل بالتعليق والشرح على كتابات أرسطو، وصنّف عدداً كبيراً من الأطروحات الفلسفيّة واللاهوتيّة. طبعت مصنّفاته المترجمة إلى اللاتينيّة في أوروبا منذ القرن الخامس عشر، وترك تعليقه على فيزياء أرسطو أثراً كبيراً على جاليليو، وغيره من علماء القرن السابع عشر. ونظراً لأهميّته، يقول فيه إسحاق ابن حُنين:

ويـحـيـى بــن مــاسـويــه وأهـــــرن قبلـه

لــهــم كــتــب لــلــنــاس فـيــهــا مــنــافــع

ورغم ذلك فإنّ إسحاق بن حُنين يُعد أول مؤرّخ في الإسلام، حيث اعتمد على مراجع يونانيّة أصيلة، كما فعل يحيى النحوي الإسكندراني. وينتهي «تاريخ الأطبّاء والفلاسفة» بتراجم أصيلة لأطباء عصره. ويبدو أنّ شمس الدين الشهرزوري (ت ٦٨٧ هجري) قد اعتمد أيضـًا على نسخة إسحاق بن حُنين، ونسخ عنها.

إذن، هكذا كانت أحوال التراجم في تلك الفترة، حيث كانت الأخبار تنتقل من السلف إلى الخلف، وكان ما يميّزها عن بعضها المنهجيّة، ودرجة التحقّق من الأخبار، ومستوى نقدها، والقدرة على تصحيحها، وتوثيقها، والإضافة عليها؛ وهو ما يُميّز هذا العمل عن غيره من الأعمال، ويُضفي عليه الأهمّيّة البالغة.

•••

٢٠- الكتاب: تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك[١]

الطبري (٢٢٤ – ٣١٠ هـ / ٨٣٩ – ٩٦٣ م)

هو الإمام أبو جعفر، محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، ولد بطبرستان، وتنقّل بين بغداد ومصر والكوفة وبلاد الشام. ويُعَدّ من المشهورين بعلوم الفقه والتفسير والحديث والقراءات. درس الفقه على أبي مقاتل، وكتب عن أحمد الدولابيّ كتاب «المبتدأ»، وأخذ مغازي ابن إسحاق عن ابن الفضل. وفي علوم التفسير، أفضى علمه إلى كتابه «جامع البيان عن تأويل آي القرآن». وفي علوم الحديث، له كتاب «تهذيب الآثار وتفصيل الثابت من الأخبار». وله أيضـًا الكثير من المؤلّفات الأخرى؛ مثل: «اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الأسلام»، و«البصير في معالم الدين»، و«جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، و«صريح السنة». درس المذاهب الإسلاميّة جميعها، خاصّة المذهب الشافعيّ، وعدّ نفسه شافعيًّا.

بدأ الطبري يكتب في القرن الثالث الهجري؛ في عصر اقتربت فيها العلوم الإسلاميّة من ذروة النضج. لذلك، تُعَدّ رواياته أنّها بلغت مبلغها من الأمانة والصدقيّة، ويُعدّه بعض الباحثين أنّه أكمل ما نهض به سابقوه من المؤرخين؛ كالبلاذري، واليعقوبي، وابن سعد، والواقدي. وفي الوقت نفسه، مهّد الطبري السبيل أمام الذين جاؤوا من بعده؛ كابن مسكويه، والمسعودي، وابن الأثير، وابن خلدون، وغيرهم.

ترجع أهمّيّة «تاريخ الطبري» إلى أنّ مؤلّفه جمع جميع موادّ كتب الحديث والتفسير والأدب والسِّيَر والمغازي والأحداث والشعر والخُطب والعهود، وغيرها؛ منسّقـًا فيما

(١) محمّد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك ، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥، في ثمانية مجلّدات.

بينها بطريقة بارعة، وعارضـًا لها عرضـًا جميلاً وافيـًا. ومع أنّه وثّق كل ما جمعه ونسبه إلى أصحابه، إلا أنّه لا يبدي رأيـًا في معظم الأحيان؛ ومن ثَمّ خَلا الكتاب من النقد. وهي سِمة المؤرخين في ذلك العصر، على وجه العموم.

يبدأ الطبري المجلّد الأوّل بالحديث عن الزمان والليل والنهار والأرض والسموات. وينتقل إلى خَلْق آدم، وما تلاه من نزوع العصيان، وسفينة نوح، وقصة إبراهيم الخليل. ويذكر أخبار بني إسرائيل، وملوك الروم في بلاد الشام. ويَروي الأحداث التي كانت تُشغل العرب، والصراعات المستمرّة بينهم. ويُنهي المجلّد بذكر نَسَب الرسول الكريم، وبعض أخبار آبائه وأجداده.

وفي المجلّد الثاني، يتحدّث عن الأحداث التي جرت في أوّل سنة من الهجرة؛ كخُطبة الرسول في أوّل جمعة بالمدينة. ويتحدّث عن غزوة «ذات العشيرة» في السنة الثانية من الهجرة، وواقعة بدر، وغزوة بني قينقاع، وغيرها. ويستمرّ على هذا النهج حتّى السنة السادسةِ للهجرة؛ حيث يتوقف عند غزوة بني لحيان، وغزوة ذي قرد، وغزوة بني المستلق. كما يأتي على حديث الإفك، ويذكر خبر عُمرة النبيّ، وقصة الحديبيّة، وإرسال الرسل إلى ملوك العالم لدعوتهم إلى الإسلام.

وفي المجلّد الثالث، يذكر أحداث السنة السابعة للهجرة، كغزوة خيبر ووادي القرى. ويتحدّث عن قدوم الوفود، وحوادثَ متفرّقة حصلت حتّى انتهاء السنة الحادية عشر للهجرة. فيذكر يوم وفاة الرسول، وأحاديث السقيفة (سقيفة بني ساعدة)، وما تلاها من كتب أرسلها أبو بكر إلى قبائل العرب، وردودهم عليها، والفتوحات التي تلت ذلك؛ انتهاءً بذكر حج عمر بن الخطّاب.

أمّا في المجلّد الرابع، فيؤرّخ للسنوات ١٦ – ٣٦ للهجرة، ويتحدّث فيه عن فتح المدائن. ويصف فنونها وبلدانها الجميلة التي فُتحت، وغيرها من أخبار؛ حتّى ينتهيَ عند إشكاليّة عليّ ومعاوية. وفي المجلّد الخامس، يؤرّخ للسنوات ٣٧ – ٦٥ للهجرة، ويذكر فيها الأحداث الحربيّة التي وقعت بين عليّ ومعاوية، واعتزال الخوارج عليّـًا

وأصحابَه، ورجوعهم عن ذلك، والتحكيم المعروف مع الأشعري. ويَذكر أخبار الولايات الإسلاميّة في خُراسان، ويتحدّث عن عهدَي معاوية وابنه يزيد، ومسيرة الحسين إلى الكوفة، وأخبار مفصّلة؛ بما فيها ولاية الحجّاج على الكوفة. ويتابع الأخبار المتسلسلة منذ عهد خليفة تلك السنة إلى خلافة عمر بن عبد العزيز، وينتهي عند خروج بني تميم بخُراسان على عبد الله بن خازم.

وفي المجلّد السادس يؤرّخ للسنوات ٦٦ - ١٠٣ للهجرة، فيبدأ من ذكر وثوب المختار بن أبي عبيد بالكوفة طالباً بدم الحسين بن علي بن أبي طالب، ومخرجاً من الكوفة عامل ابن الزبير عبد الله بن مطيع العدوي، وينتهي بغارات الترك وارتحال أهل السغد (نُسب إليها السّغدي، وهو فقيه حنفي، وتقع المدينة بالقرب من سمرقند، ويشار إليها أيضاً ببلاد الصّغد) عن بلادهم إلى فرغانة، وهي مدينة في أوزبكستان اليوم.

وفي المجلّد السابع، الذي يُغطّي المُدّة ١٠٤ - ١٤٦ للهجرة، يستمرّ بذكر أخبار الخلفاء، كهشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد، وغيرهما؛ ويستفيض في شرح أخبار الغزوات، كغزوة غورين، ووقعة الجنيد مع الترك، وغيرهما. وينتهي باستتمام بناء بغداد وانتقال أبي جعفر المنصور إليها.

ويغطّي المجلّد الثامن والأخير باقي الأحداث حتّى السنة الثانية والثلاث مئة، وفيه أحداث غزوة الصّائفة (والصّائفة هي الحد الأدنى من الجهاد السنوي، يعقد ألويتها الخليفة ويرسلها إلى أحد الثغور)، ودخول حباسة صاحب ابن البصري الإسكندريّة، وغيرها من أحداث.

لا شك أنّه كتاب غنيّ بالأحداث التاريخيّة المُشوِّقة، التي يَسردُها الطبري بأسلوب راقٍ ومُميّز غطّى فترة طويلة جداً، تجاوزت ثلاث مئة سنة من تاريخ المسلمين والأمم التي ازدهرت في جوارهم، والملوك الذين عرفوهم من حولهم.

•••

٢١- الكتاب: أمالي ابن دريد[١]

ابن دريد (٢٢٣ – ٣٢١ هـ / ٨٣٨ – ٩٣٣ م)

هو أبو بكر، محمّد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزديّ البصريّ، عالم جليل، وشاعر وأديب عربي، قيل عنه إنّه أشعر العلماء وأعلم الشعراء. ولد بالبصرة، وقرأ على علمائها، مثل عمّه الحسين بن دريد. انتقل إلى عُمان عام ٢٥٧ للهجرة، خلال ثورة الزنج في البصرة، وأقام فيها اثنتي عشرة سنة، ثم عاد إلى العراق، وولّاه الخليفة المقتدر على الأحواز (الأهواز)، وقدّم كتابه «جمهرة اللغة» هديّة للمقتدر. كما تقلّد ديوان فارس، وكتب هناك قصيدته المقصورة الشهيرة. وكان يذهب في شعره كل مذهب، فطوراً يَجزل، وتارة يَرقّ. ومن كتبه: «السرج واللجام»، و«الأمالي»، و«المقصور والممدود»، و«الاشتقاق»، و«الخيل الكبير»، و«الخيل الصغير»، و«الوشاح»، و«المقتبس»، و«الأنواء»، و«المُجتبى»، و«المُقتنى»، و«المَلاحم»، و«روّاد العرب»، وغيرها. وله ديوان شعر مطبوع في القاهرة عام ١٩٤٦.

والكتاب هو كتاب الأمالي لابن دريد، والأمالي جمع إِملاء على غير قياس، كالأغاني جمع أغنية، والأحاجي جمع أحجية، والأضاحي جمع أضحية، ونحوها. ويَقصِد بالأمالي هنا ما كان يمليه العالِم على تلميذه أو تلامذته من علم، فيُدوّن التلامذة ما يقوله المعلّم، فيصير كتاباً، ويسمّونه الإملاء والأمالي. ومن هنا جاءت أهمّيّة هذا الكتاب للناشئة والشباب، ليتعرّفوا إلى ما كان يدوّن، ويدركوا طريقة تدوين بعض الكتب التراثيّة، وكيف كانت تدوّن إملاءات من صاحبها وتُنسب إليه.

---

(١) محمّد بن حسن بن دريد، أمالي ابن دريد؛ تحقيق السيّد مصطفى السّنوسي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.

ومن أشهر الأمالي المصنّفة في علوم اللغة والأدب، هي: أمالي القالي (ت ٣٥٦ هجري) طبعت منها عدّة طبعات، وهناك أمالي كثيرة؛ منها: أمالي ثعلب (ت ٢٩١ هجري)، وأمالي اليزيدي (ت ٣١٠ هجري)، وأمالي ابن دريد (ت ٣٢١ هجري)، وأمالي الزجاجي (ت ٣٤٠ هجري)، وأمالي المرتضى (ت ٤٣٦ هجري)، وأمالي ابن الشجري (ت ٥٤٢ هجري)، وأمالي ابن برى (ت ٥٨٢ هجري)، وأمالي ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هجري)، وأمالي الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩ هجري)، وغيرها.

وكتاب الأمالي لابن دريد غني بفهارس تفصيليّة للآيات القرآنيّة، والأحاديث، والآثار، والأمثال، والوصايا، والحِكم، والأقوال، واللغة، والأمكنة، ومواقع المياه والجبال، وغيرها، فضلاً عن فهرس الأعلام، وفهرس الطوائف والأمم، وفهرس قوافي الشعر والأمثلة. كذلك تظهر في الكتاب براعة ابن دريد وقدرته على حفظ الشعر، ففي رواية رقم ٢٥، على سبيل المثال، يقول: وأنشد الأصمعي:

لا يُعْجِبَنَّك صَاحِبٌ

حتّى تَبيّن ما طِبَاعُه

ماذا يَضنّ بِه عليك

وما يَجودُ به اتّساعُ

ثم يتبعها ببضعة أبيات أخرى، ولكنّ ابن دريد يتوقّف لحظة ليقول: «أظنّها لابن قيس الرقيّات». وتأكّد محقّق الكتاب من ذلك فوجد أنّها فعلاً له، كما جاءت في ديوانه صفحة ١٨٥.

ومن الروايات الطريفة في الكتاب، قول ابن دريد في رواية رقم ١٤٣: «وعن أبي عبيدة، قال: كان أبو الأسود الدّؤَليُّ قد اتّخذ دكانـاً على بابه قَدْرَ مجلِسه وموضع طَبقٍ يضعُه بين يديه، ويأكل منه، فإذا مرّ به مارّ سلم عليه، وعرض عليه طعامه، فينظر فلا يرى لنفسه موضعـاً، فيدعو له وينصرف، فمرّ به أعرابي وهو يأكل، فدعاه فأجابه، وأقبل

يأكل معه وهو قائم (واقف)، فلما اشتد عليه (الأمر) أخذ الطبق فوضعه في الأرض، وقال له: إن كانت لك في الطعام حاجةٌ فانْزلْ فكُلْ، فأقبل الأعرابي يأكل وأبو الأسود ينظر إليه ويتغَيَّظُ، فقال له: ما اسمك يا أعرابي؟ قال: لُقمان. قال: لقد أصابك اسْمَك أَهْلُكَ»، ثم أنشد أبو الأسود الدّؤَليُّ يقول:

انظر إلى جِلْسَتِه وهَطِّهْ

ولَقْنه مبادِراً وغَطّهْ

ولَفّه رقاقَه بِبَطّهْ

كأنّ جالِينُوس تحت إبْطِهْ

•••

٢٢- الكتاب: العقد الفريد[١]

ابن عبد ربّه (٢٤٦ – ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ – ٩٤٠ م)

هو أبو عمر، أحمد بن محمّد بن عبد ربّه القرطبيّ الأندلسيّ، المعروف بابن عبد ربّه. ولد في قرطبة، ونشأ فيها. وتقلّب بين مدينة الكتب والعلم والأدب، قرطبة؛ ومدينة الفنّ والموسيقى واللهو، إشبيليّة. أمضى شبابه في مُجون؛ لكنّه بدأ بعدها يخضع لتربية دينيّة راقية على أساتذة فقهاء، مثل: الخشني، وابن مِخلد، وابن وضّاح، حتّى أصبحت تُروى عنه رواياتُ التقوى والورع. نظَم الشعر، وألّف «العقد الفريد» الذي يُعتقد أنّه تعرّض للإضافة والشطب عبر العصور. لكنْ، مهما يكن من أمر، كان ابن عبد ربّه يسجّل الأخبار التاريخيّة والروايات الأدبيّة والأخبار الدينيّة، ويقلّبها حتّى يقتنعَ بها كما هي، أو يُصحّحَها، أو يُضيفَ إليها، بعد أن يختارَ أقربَها إلى الصحّة. وجاء أسلوبه بسيطًا وواضحًا، لا جفاف فيه ولا رتابة، قليل السجع، لكنْ، فيه روح مرحة ورقّة مُحبّبة. وكانت أحكامه متوازنة وهادئة ومرحة وعميقة، كما يصفها الباحثون.

اختير اسم الكتاب بدلالة شاعريّة؛ وكأنّ أبوابه الخمسة والعشرين جاءت على هيئة عِقد مرصّع بالجواهر واللؤلؤ، يُزيّن رقبة التاريخ. فيبدأ الباب الأوّل بعنوان «اللؤلؤة الأولى في السلطان»، والباب الثاني «الفريدة في الحروب»، والباب الثالث «الزبرجدة في الأجواد والأصفاد»، والباب الرابع «الجُمانة في الوفود»، والخامس «المرجانة في مخاطبة الملوك»، والسادس «الياقوتة في العلم والأدب»، والسابع «الجوهرة

(١) شهاب الدين بن عبد ربّه الأندلسيّ، العِقد الفريد؛ تقديم خليل شرف الدين، بيروت: دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، في جُزأين.

في الأمثال»، والثامن «الزمردة في المواعظ والزهد»، والتاسع «الـدرّة في التعازي والمراثي»، والعاشر «اليتيمة في النسب وفضائل العرب».

وتتوالى الفصول كالآتي: «العسجدة في كلام الإعراب»، و«المجنبة في الأجوبة»، و«واسطة العقد في الخطب»، و«في التوقيتات والفصول»، و«في الخلفاء»، و«في أخبار زياد والحجّاج»، و«في أيّام العرب»، و«في فضائل الشعر»، و«في أعاريض الشعر وعِلل القوافي»، و«في علم الألحان»، و«في النساء»، و«في المتنبئين والموسوسين والبخلاء»، و«في طبائع الإنسان»، و«في الطعام والشراب»، و«في الفُكاهات والمُلح».

أمّا الغاية من تأليف كتاب ابن عبد ربّه، فكانت – كما لدى أغلب مؤرّخي عصره وأدبائه – تجميع العلوم والمعارف في كتاب واحد يُهدى للملوك والأمراء، طمعاً في الشهرة والمال. وقد جَمع هذا الكتاب على هيئة موسوعة أدبيّة مصغّرة، تشتمل على ما أتى به الأدباء من قبله، كابن قتيبة في «عيون الأخبار»، والمبرّد في «الكامل»، والجاحظ في «البيان والتبيين»، وابن المقفّع في «الأدب الكبير والصغير»، وابن هشام في «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، وسيبويه في كتابه الشهير عن النحو، وغيرهم. قال الصاحب بن عبّاد: إنّ كتاب ابن عبد ربّه اشتمل على أخبار المشرق والمغرب التي نعرفها؛ ولم يُضف إليها سوى بابٍ في تاريخ أمراء الأندلس حتّى زمانه، وأرجوزة في مآثر عبد الرحمن الناصر.

وكمثال على طبيعة الكتاب، نأخذ نموذجاً من فصل «من أحكام القضاة»؛ وهو الفصل الأخير من الباب الأوّل، الذي جاء بعنوان «اللؤلؤة في السلطان»: يستشهد ابن عبد ربّه هنا بعددٍ كبيرٍ من الثقات لبيان أحكام القضاة؛ ومنهم الخليفة عمر بن الخطّاب، والخليفة عمر بن عبد العزيز، ومحمّد بن عبيد الله العتبي، والحسن بن أبي الحسن، والأشعث بن قيس، وابن أبي الأسود، وسفيان الثوري، وغيرهم. ومن الملاحَظ أنّ هذه الأخبار ليست موثّقة على الإطلاق، باستثناء استخدام آيات من القرآن الكريم. وهذا يدل على ضعف في منهجيّة البحث العلمي؛ لكنّها جاءت ضمن عادات زمانها في التأليف الموسوعيّ.

والحقّ أنّ هناك إشكاليّاتٍ كبيرةً في هذا الكتاب تتمثّل في تحريفات كثيرة واضحة؛ وربّما إضافات أيضـاً أُلحقت بالنص الأصلي. كذلك، هناك ضَعف في الإسناد، وافتقار للفكر العلميّ أحيانـاً في بعض الروايات، كحديث ابن عبد ربّه عن رجل عاش ثلاثمئة سنة، وغير ذلك. إلاّ أنّه يظل عملاً مهمّـاً في مجمله.

ختامـاً، من الجدير بالذكر أنّ هناك نسخـاً كثيرة من المخطوط «الأصليّ»، كنسخة الآستانة، ودار الكتب المصريّة، ومطبعة بولاق، والمطبعة الشرقيّة، والمطبعة الجماليّة، ومطبعة مصطفى محمّد، والمطبعة الأزهريّة.

•••

٢٣- الكتاب: أدب القاضي[١]

ابن القاص (؟؟ – ٣٣٥ هـ / ؟؟ – ٩٤٧م)

هو الإمام أبو العبّاس، أحمد بن أبي أحمد الطبري الشافعيّ البغداديّ، الإمام الفقيه المعروف بابن القاص. ولد في بغداد وسكن فيها، ولكنّه توفّي في طرسوس مرابطًا. لُقّب بابن القاص لأنّ والده كان يقصّ على الناس القَصص والمواعظ. أخذ الثقافة عن أبيه، والفقه عن أبي العبّاس بن سُريج، وأبي خليفة الجمحي، وغيرهما. كان من علماء الشافعيّة، وإمام عصره، وصاحب التصانيف الراقية، الذي برع في الفقه حتّى أصبح شيخ الشافعيّة في طبرستان. له الكثير من المصنفات؛ منها: «التلخيص»، وهو كتاب في الفقه، و«المفتاح»، و«المواقيت»، و«دلائل القبلة»، و«إحرام المرأة»، و«أدب الجدل»، و«أدب القاضي»، و«شرح حديث أبي عمير»، و«شرح مختصر المزني»، وغيرها.

تعدّدت كتب التراث في «أدب القاضي»؛ فمنها الكتب المبكّرة، كمصنّف يعقوب القاضي (ت ١٨٢ هجري)، الذي كان أوّل من صنّف فيه إملاءً، ومن أتى بعده، مثل: محمّد بن سماعة الذي رواه عن الإمام محمّد (ت ٢٣٣ هجري)، والإمام أبو بكر الخصّاف (ت ٢٦١ هجري)، وأبو المهلب القيسي (ت ٢٧٥ هجري)، وأبو حازم الحنفي (ت ٢٩٢ هجري)، وأبو جعفر الأنباري (ت ٣١٧ هجري)، وأبو قاسم السِمنَاني (ت ٤٩٩ هجري)، وغيرهم ممّن كتبوا على مذهب أبي حنيفة.

---

(١) أحمد بن أبي أحمد الطبري (ابن القاص)، أدب القاضي؛ دراسة وتحقيق حسين خلف الجبوري، الطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، في جُزأين.

وهناك من كتب على مذهب الإمام الشافعي، وبعنوان «أدب القاضي» أيضـاً؛ مثل: محمّد بن إدريس (ت ٢٠٤ هجري)، وأبو عبيد اللغوي (ت ٢٢٤ هجري)، وأبو سعيد الاصطخري (ت ٣٢٨ هجري)، وغيرهم.

لكنّ كتاب ابن القاص هذا يمتاز بأنّ منهجه جاء مقارِنـاً؛ فجمع بين قوْلَي أهل الحديث (وهم الشافعيّة)، وأهل الرأي (وهم الحنفيّة)؛ إضافة إلى أنّه ذكر أقوال أئمّة آخرين، فتنوّعت الآراء وتعدّدت. لذلك، حاولنا التركيز عليه دون غيره باختياره لهذه الموسوعة.

يُسوّغ ابن القاص تأليف كتابه بأنّه جاء من باب الحرص على العدالة، التي هي أساس استقرار الدولة وازدهارها؛ ومن باب نصرة المظلومين الذين غالبـاً ما يكونون من الضعفاء. وعندما يذكر ابن القاص الحُكم المتفَق عليه بين الشافعي والكوفي (الحنفي)، فإنّه يُقدّم الشافعي على الكوفي في الذكر، على قاعدة أنّ الشافعي قريشي، وذلك يأتي انسجاماً مع قول الرسول الكريم: «قدّموا قريشـاً ولا تَقَدمُوها».

كذلك يذكر الحُكم المُختَلَف فيه بيْن الشافعي والكوفي، وأقوال الأئمّة الآخرين في ذلك؛ بل يُضيف أقوال تلامذتهم وأئمتهم، ومنهم: المازني والربيع، من الشافعيّة؛ وأبو يوسف والحسن بن زياد، وغيرهما، من الحنفيّة. ويذكر الحُكم في النهاية منسوبـاً إلى قائله، مع ذكر دليله، إذا وُجِد.

ويتّبع أسلوبـاً منهجيّاً في الوصول إلى الحكم: حيث يبدأ بذكر أصل المسألة أوّلاً؛ فيبيّن الحكم فيها، ويُفرّع عليها، مُوضحـاً أحكام هذه الفروع. وكان يهتمّ بذكر الأحاديث، مدلّلاً بها على الأحكام؛ ولم يغفل دليلاً على حكم أيّ مسألة. ومن اللافت أنّه أصدر أحكامـاً انفرد بها عن غيره؛ فكان يقول: «والحكم عندي كذا وكذا». ويذكر أيضـاً أحكامـاً انفرد بها شيخه أبو العبّاس بن سُريج. جاء كل ذلك عبر أسلوب لغويّ رصين، وعبارات واضحة المعنى، مُتقنة الصياغة؛ تركيبها دقيق، وأسلوبها بديع؛ سليمة من الحشو، وخالية من اللحن.

وفي باب صفة القاضي، يقول ابن القاص: إنّ الفريقيْن يتّفقان على أنّ صفة القاضي أنْ يكونَ: عارفًا بـِ «علم الكتاب والسنّة وإجماع الأمّة، واختلاف أئمّة السلف؛ فقيهَ النّفس: يعقل وجوه القياس إذا ورد، ويعرف اللغة إذا سمع؛ عَالِمـًا بتخريج الأخبار إذا اختلفت، وترجيح أقاويل الأئمّة إذا اشتبَهَتْ؛ وافِرَ العقل، أمينـًا، مُثبتـًا، حليمـًا، ذا فِطنةٍ وتيقُّظ؛ لا يُؤتى من غفلةٍ ولا يُخدع بغيره؛ صحيحَ حواس السمع والبصر؛ عارفًا بلغات قضائه، جامعـًا للعفاف، نزيهـًا بعيداً من الطمع؛ عادلاً، رشيداً، بريئًا من الشحناء والحيف والعصبيّة؛ صدوقَ اللهجة؛ ذا رأي ومشورة؛ لكلامه لينٌ إذ قرَّب، ومساواة إذ حاور، وهيبة إذ أوعد، وجِدٌّ إذا حَكم؛ فصلاً لا تَأْخُذه في الله لومة لائمٍ؛ ذا هيبةٍ وأَناة، وسكينةٍ ووَقار».

•••

٢٤- الكتاب: آراء أهل المدينة الفاضلة[١]

الفارابي (٢٦٠ – ٣٣٩ هـ / ٨٧٤ – ٩٥٠ م)

هو أبو نصر، محمّد بن محمّد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي، الفارسيّ الأصل. وُلد في مدينة فاراب بكازاخستان اليوم، وسكن بغداد؛ حيث درس على أبي بشر متّى بن يونس، ويوحنا بن حيلان الحرّاني. إلى جانب اللغة العربيّة، أجاد الفارسيّة والتركيّة؛ وألمّ بالسريانيّة واليونانيّة. كان رياضيًّا، وفيلسوفًا، وعالمًا في صناعة الموسيقى، ومتخصّصًا في كتابات أرسطو؛ حيث بات يُعرف بالمعلّم الثاني بعد أرسطو. ارتحل إلى مصر، فدمشق؛ حيث توفّي فيها عند سيف الدولة الحمداني في زمن خلافة الراضي. ترك الكثير من المؤلّفات؛ من أهمّها تلك التي عمدت إلى شرح كتب أرسطو. كما شرح كتاب «المجسطي» في علم الهيئة لصاحبه بَطْلَمْيُوس، وكتاب «النواميس» لأفلاطون. ومن مؤلّفاته: «المختصر في المنطق»، و«السياسة المدنيّة»، و«الخطابة»، و«مختصر في الفلسفة»، و«مبادئ الفلسفة القديمة»، و«الجمع بين رأيَي الحكيمَيْن أرسطو وأفلاطون»، و«المدخل إلى الهندسة الوهميّة»، و«الرد على الرازي في العلم الإلهي»، و«تحصيل السعادة»، و«آراء أهل المدينة الفاضلة»، و«إحصاء العلوم»، والرسائل الفارابيّة، وغيرها.

«المدينة الفاضلة» هو تعبير سيطر على أذهان الفلاسفة منذ أفلاطون، وربّما قبل ذلك في الحضارات الشرقيّة القديمة؛ حيث تصوّروا مدينة تتمتّع بأكمل أنواع الخِدمات وأكثر نُظم الحكم عدلاً، وعلى مستوىً عالٍ من التحضّر، حيث تتمتّع بوحدة حيّة

---

(١) أبو نصر محمّد الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها (**Hindawi.org /books**)، تمّت زيارة الموقع بتاريخ ٩/ ٥/ ٢٠٢٠.

تتكوّن من أفراد وخلايا نوويّة يعيشون وَفق تنظيم اجتماعي وسياسي ناجم عن غاية محدّدة في الذهن البشري، وهي الاجتماع المنظّم الهادف إلى نشدان السعادة.

والفارابي، بوصفه «المعلم الثاني» بعد أرسطو، حاول بلورة مفهوم متكامل للمدينة الفاضلة، من منظور عربيّ إسلاميّ، يقوم على أسس الفضيلة السائدة في مدينة أفلاطون الفاضلة. والهدف هو نشدان السعادة عبر ممارسة الفضائل؛ ومن ثَمّ الصمود في مواجهة المدن الأخرى الجاهلة.

تمتاز مدينة أفلاطون بأنظمةِ تربيةٍ خاصّة، ومساواة بين أفرادها وجِنسَيْها؛ حيث يسود العدل. كذلك مدينة الفارابي، حيث الحُكم فيها ليس بالضرورة بيَد شخص واحد؛ لكنّ الحكماء هم الأولى برئاسة الحكم. ويمكن أن يكون هناك حاكمٌ ثانٍ وثالثٌ وأكثر. وبالنسبة لخصال الرئيس الأوّل، أي الإمام، فيجب أنْ يكون تام الأعضاء الجسديّة، جيدَ الفهم والتصوّر والحِفظ لما يرى ويسمع ويقرأ، جيدَ الفطنة، حسنَ العبارة، مُحبّاً للتعلّم والاستفادة، غيْرَ شَرِهٍ في المأكل والمشرب. كما يجب أنْ يكون مُحبّاً للصدق وأهله، كبيرَ النفس، مُحبّاً للكرامة؛ وأنْ يكون الدرهم والدينار وسائرُ أعراض الدنيا هيّنةً عنده؛ وأنْ يكونَ، بالطبع، مُحبّاً للعدل وأهله، مُبغضاً للجور والظلم وأهلهما؛ وأنْ يكونَ قويّ العزيمة، مِقداماً قويّ النفس. ثُمّ يضع خِصالاً للرئيس الثاني، فالثالث، حتّى السادس.

يشتمل الكتاب على فصول مُتعدّدة: تبدأ بالقول في «الموجود» الأوّل، وكيف يَعقل العقل الأوّل نفسه، فعندها توْلد الطبيعة، والأفلاك، فالأجسام السماوية وحركتها؛ ثمّ يأتي الحديث عن الفرق بين الصورة والمادّة، ومراتب الأجسام الهَيُولي الحدوث، أي التي تتحوّل من الهيولي غير المحدّدة الشكل، إلى مادّة ما ذات صورة، وأجزاء النفس الإنسانيّة وقواها؛ وصولاً إلى القوة الناطقة العاقلة.

ووضع الفارابي تصوّراً للفرق بين الإرادة والاختيار، وفي السعادة، والوحي، وما إلى ذلك؛ حتّى نصلَ إلى رؤيته في احتياج الإنسان إلى الاجتماع والتعامل والتعاون معاً. يقول في هذا الصدد:

«وكلّ واحد من الناس مفطور على أنّه محتاج، في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته، ... ولذلك لا يمكن أن ينال الإنسان الكمال، الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعيّة، إلا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين، يقوم لكل واحد لبعض ما يحتاجه إليه في قوامه؛ فيجتمع، ممّا يقوم به جملة الجماعة لكل واحد، جميع ما يحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ القوام».

وفي الفصل الأخير، السابع والثلاثين، بعنوان «القول في المدن الجاهلة»، يُنهي الفارابي كتابه بتعريفات بأحوال المدن الجاهلة. فمنها: «الضروريّة، ومنها المبدلة، ومنها الساقطة، ومنها الكراميّة، ومنها الجماعيّة. وتلك الأخرى، سوى الجماعيّة، إنّما همّة أهلها جنس واحد من الغايات. وأمّا الجماعيّة، فذات همم كثيرة، قد اجتمع فيها همم جميع المدن.

فالغلبة والمدافعة التي تُضطر إليها المدن المسالمة: إمّا أن تكون في جماعتهم، وإمّا أو تكون في طائفة بعينها، حتّى يكونَ أهلُ المدينة طائفتيْن: طائفة فيها القوة على المغالبة والمدافعة، وطائفة ليس فيها ذلك. فبهذه الأشياء يستديمون الخيرات التي هي لهم. وهذه الطائفة، من أهل الجاهلة، هي سليمة النفوس. وتلك الأولى رديئة النفوس، لأنّها ترى المغالبة هي الخير، وذلك بوجهين: مجاهدة ومخاتلة. فمن قدر منهم على المجاهدة فعل ذلك؛ وإنْ لم يقدر، فبالدغل والغِش والمراياة والتمويه والمغالطة».

وينتهي الفصل الأخير بقوله: «وبهذا الرأي وما جانسه تَبطل الحكمة، وتجعل ما يرسم في النفوس أشياء محالة على أنّها حقّ؛ بأنّها تجعل الأشياء كلّها ممكنة أن توجد في جواهرها وجودات متقابلة ووجودات بلا نهاية في جواهرها وأعراضها، ولا تجعل شيئًا مُحالاً أصلاً».

•••

٢٥- الكتاب: الموسيقى الكبير[١]

الفارابي (٢٦٠ – ٣٣٩ هـ / ٨٧٤ – ٩٥٠ م)

هو أبو نصر، محمّد بن محمّد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي، الفارسيّ الأصل. وُلد في مدينة فاراب بكازاخستان اليوم، وسكن بغداد؛ حيث درس على أبي بشر متّى بن يونس، ويوحنا بن حيلان الحرّاني. إلى جانب اللغة العربيّة، أجاد الفارسيّة والتركيّة؛ وألمّ بالسريانيّة واليونانيّة. كان رياضيّـًا، وفيلسوفـًا، وعالمـًا في صناعة الموسيقى، ومتخصّصـًا في كتابات أرسطو؛ حيث بات يُعرف بالمعلّم الثاني بعد أرسطو. ارتحل إلى مصر، فدمشق؛ حيث توفّي فيها عند سيف الدولة الحمداني في زمن خلافة الراضي. ترك الكثير من المؤلّفات؛ من أهمّها تلك التي عمدت إلى شرح كتب أرسطو. كما شرح كتاب «المجسطي» في علم الهيئة لصاحبه بَطْلِمْيُوس، وكتاب «النواميس» لأفلاطون. ومن مؤلّفاته: «المختصر في المنطق»، و«السياسة المدنيّة»، و«الخطابة»، و«مختصر في الفلسفة»، و«مبادئ الفلسفة القديمة»، و«الجمع بين رأيَيّ الحكيميْن أرسطو وأفلاطون»، و«المدخل إلى الهندسة الوهميّة»، و«الرد على الرازي في العلم الإلهي»، و«تحصيل السعادة»، و«آراء أهل المدينة الفاضلة»، و«إحصاء العلوم»، والرسائل الفارابيّة، وغيرها.

ألّف الفارابي كتبـًا عِدّة في صناعة الموسيقى؛ مثل: كتاب «الموسيقى الكبير»، و«في إحصاء الإيقاع»، و«كلام في الموسيقى»، وغيرها. لكنْ، لم يتبقَّ منها سوى كتاب «الموسيقى الكبير»، الذي يُعَدّ من أهم المؤلّفات في الموسيقى العربيّة. ويُظنّ

(١) أبو نصر الفارابي، الموسيقى الكبير؛ تحقيق وشرح غطّاس خشبة؛ القاهرة: دار الكتاب العربي، بلا طبعة، بلا تاريخ.

أنّ «الكتاب الثاني» الذي أشار إليه الفارابي في»الموسيقى الكبير» مفقود. أمّا «الكتاب الأوّل»، كتابنا هذا، فيقع في جُزأيْن:(١) مدخل إلى صناعة الموسيقى؛ (٢) في مبادئ المعرفة بصناعة الموسيقى. فمن الواضح أنّ اهتمام الفارابي بإرث الإغريق الموسيقيّ لم يكن أقلّ من اهتمامه بإرثهم الفلسفيّ العقليّ، باعتبار تذوّق الموسيقى حالة ذهنيّة ووجدانيّة معـاً.

في مدخله إلى صناعة الموسيقى، يُعرّف الفارابي معنى اللحن، وُيعدّد أصناف الألحان وغاياتها. كما يبحث في نشأة الآلات الموسيقيّة تاريخيّاً، وأصل الموسيقى ونشأتها، واختلاف هيئاتها العمليّة والنظريّة بوصفها عملاً إنسانيّاً وجدانيّاً رفيعَ المستوى. أمّا في مبادئ المعرفة بالموسيقى، فيُعرّج على التعريف بالألحان الطبيعيّة للإنسان، ومناسبات النغم، واتفاقاتها، واختلافاتها.

كما فصّل أسباب حدوث النغم، والثقل، والحدّة في العمل الموسيقى. كذلك، صنّف الآلات الموسيقيّة، كالعود، والطنبور، والمزمار، والرّباب، والمعازف، وميّز بينها. وتحدّث عن تأليف الإلحان وفصولها وكيفيّتها، وما إلى ذلك. ومن الواضح أنّ فهم التفصيلات المُتّصلة بهذا الفن الراقي يَستدعي شخصـاً ملمّـاً تمامـاً بالموسيقى وآلاتها، كي يستوعبَها وَفق أصولها، ويُحللَ جذورها، ويفهمَ منطوياتها المعرفيّة.

وجد الفارابي أنّ الميْلَ إلى الموسيقى إنّما هو رغبة غريزيّة لدى الإنسان، تدفعه إلى التعبير عن انفعالات النفس البشريّة؛ فتسكن هذه أو تتأجّج، أو ربّما تُعين على «تخيّل المعاني في الأقاويل التي تقترن بها». ومن حيث تأثيرُ الموسيقى في النفس البشريّة، يُميز الفارابي بين «الألحان المُلذّة» التي تُكسب النفس لذّة وراحة، و«الألحان المُخيّلة» التي تستفز الإنسان على التخيّل، وكذلك «الألحان الانفعاليّة» التي تُزيل انفعالات النفس أو تُضخّمها. ويضع الفارابي معايير الجمال للموسيقى، التي رأى أنّها تتطور عَبر الزمن، مدركـاً نِسبيّة معايير الحقيقة والخير والجمال.

ويُذكَر أنّ الفارابي ابتكر «الربابة»، التي تطوّرت إلى « الكمان» لدى الغرب؛ وكذلك «آلة القانون». وربّما يكون أبو إسحاق الكِندي أوّل من تناول تدوين الموسيقى العربيّة في رسالته: «رسالة في خبر تأليف الألحان». وقد أثبتت الأيّام أنّ الموسيقى العربيّة أسهمت في إغناء إرث أوروبا الموسيقيّ، مع الغناء الكنسيّ التقليدي الطابع، ومع الشعر الغنائيّ التراجيديّ الموروث عن اليونان والرومان.

مزج الفارابي بين الفلسفة والشريعة والموسيقى؛ علماً أنّ الفقهاء لم يوجّهوا إليه أي نقد لاشتغاله بالموسيقى، كما آلت إليه الحال بعد تراجُع الحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ في حين أُوسِعَت آراؤه الفلسفيّة نقداً وتحليلاً، كتلك الواردة في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة»، ولم يكفّره عاقل. وقد سعى إلى التوفّيق بين فلسفة أرسطو وأفلاطون.

ردّ الفارابي فكرة اتفاق الفلسفة مع الشريعة إلى «وحدة الواسطة»، حيث يستمدّ النبي وحْيَه من الله، ويتلقّى المعرفة مباشرة من الله؛ في حين يستمدّ الفيلسوف علمه من « العقل الفعّال». والفرق بينهما منهجي: فالأوّل يتلقّى المعرفة مباشرة، من دون وساطة، متجلية بشخوصها وصورها؛ في حين يستخدم الفيلسوف المنطق العقلي، فتحضره المعرفة مجرّدة. وفي سياق هذه المحاولات التوفيقيّة طوراً والإبداعيّة تارة أخرى، أَنتجت الفلسفة العربيّة الإسلاميّة فلسفة جديدة قمّة في الروعة والجمال.

•••

٢٦- الكتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر[١]

المسعودي (٢٨٣~ هـ - ٣٤٦ هـ / ~٨٩٦ - ٩٥٧ م)

هو أبو الحسن، علي بن الحسين بن علي المسعودي، مؤرّخ وجغرافيّ وفلكيّ عربيّ، من فاتحة العلماء الموْسوعيّين الذين جمعوا التاريخ والجغرافيا والفلك في عمل متكامل. تُطلق عليه كنية «هيرودوت العرب»، ويُعَدّ رائدَ «نظرية الانحراف الوراثيّ». ولد في بغداد ونشأ فيها، ثم ارتحل إلى مصر، وطاف في بلاد فارس والهند والصين، ووصل إلى سيلان، ومدغشقر، وعُمان، واليمن، وما وراء أذربيجان وجرجان، وعاد إلى بلاد الشام، ونزل الفسطاط في مصر، حيث توفّي فيها. له الكثير من المؤلّفات، إلى جانب «مروج الذهب»؛ مثل: «معادن الجوهر في تحف الأشراف»، و«الكتاب الأوسط»، و«المسائل والعلل في المذاهب والملل»، و«التنبيه والإشراف» في علم الفلك والهيئة. وله أيضـًا كتب في العلوم والتاريخ وعلم الأخلاق والأنساب؛ مثل: «أخبار الزمان» في ثلاثين مجلّداً؛ وهو مفقود، لكنْ، له مختصر بعنوان «الملوك وأهل الديارات».

اعتمد المسعودي في كتابه على الكثير من المراجع المُتوافرة آنذاك، مثل «تاريخ الطبري»، و«فتوح البلدان»، وغيرهما؛ فيما يُعتقد أنّ باقي المراجع والإسنادات مفقودة، أو ربّما أتلفت. ولأهمّيّة الكتاب التاريخيّة، نقله الفرنسي أدريان باربيه دي مينار Adrien Barbier de Meynard إلى الفرنسيّة، ونشره في باريس عام ١٨٧٢ للميلاد، في مجلّدات تسعة. وقد سبقته الطبعة الإنجليزيّة التي نُشر الجُزء الأوّل منها في لندن عام ١٨٤١ للميلاد.

---

(١) أبو حسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر؛مراجعة كمال مرعي، صيدا: المكتبة العصريّة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.

الكتاب عملٌ موسوعيّ في التاريخ والجغرافيا، يبدأ من خَلق العالم، مروراً بالتاريخ العبريّ، وحضارات الهند واليونان والكلدان والفرس والرومان والعرب القدماء، حتّى عصر الرسالة الإسلاميّة. والأحداث متسلسلة تاريخيّاً، يصف فيها المسعودي بالتفصيل جغرافيّة كلّ منطقة، وعادات أهلها، ودياناتهم، والحياة الاجتماعيّة فيها، وعَلاقاتهم مع دول الجوار.

وُيفصّل الكتاب المحيطات والبحار والملاحة البحريّة فيها، كما يصف المُناخ والنظام الشمسي وتقويمات شعوب تلك المناطق؛ وكأنه نوع من «الاستشراق» يُمهّد الطريق استعداداً لتوسّع الحضارة العربيّة الإسلاميّة في أرجاء المعمورة، على غرار الاستشراق الأوروبيّ قبيل الاستعمار الإمبرياليّ الغربيّ.

وفي باب الحديث عن بدء العالم وخَلقه، حتّى صدر الإسلام، يبدأ من آراء المذاهب القديمة في نشوء المادّة والحياة، مروراً بالفلسفات القديمة والأدلّة التي قُدّمت على حدوث العالم (أي أنّه مَخلوق، وليس قديماً كما قال الكِندي في فكرته عن القدماء الخمسة)؛ فضلاً عن سرد التوقّعات المختلفة لعمر الدنيا من وجهة نظر الكثيرين، لكنْ، دون التدقيق فيها والتوقّف عندها.

كذلك، يأتي المسعودي على ذكر ديانات العرب وأقاويلهم في الهواتف (أي الأصوات المسموعة من أجسام غير مرئيّة)، والجن، والكهانة، وتفسير الأحلام.

وفي ذكر الغرائب والعجائب، فإنّه لا يتحقّق منها أو يُشكك فيها. فمثلاً، نجده يذكر في وصف بحر الصين أنّه إذا عَظم موج البحر، ظهر «أولاد الأحباش الصغار؛ ولكن لا يُحدثون ضرراً. وعندما يظهر في أعلى صاري المركب شيء على صورة طائر يتوقّد نوراً، لا يستطيع الناظر منهم على فكّ بصره منه». فالمسعودي يَعدّ ظهور الطائر علامة خلاص ودليل نجاة، دون أن يعترض على ذلك في شيء!

ويشرع في وصف الرسالة المحمّديّة، منذ ولادة الرسول الكريم، مروراً بالحروب التي سادت في عصره، والاضطهاد الذي عانى منه إثر تسلّمه الرسالة، وهجرته إلى

المدينة، وبناء الدولة؛ وصولاً إلى وفاته. ويستمرّ في الحديث عمّن تسلّم العُهدة بعد الرسول من الخلفاء، ويستعرض الحروب التي استعرت، ويسرد النزاعات السياسيّة التي هبّت آنذاك بين المسلمين أنفسهم وغيرهم من الشعوب المجاورة. ويستمرّ في شرح تاريخ نشوء الحضارة العربيّة الإسلاميّة حتّى خلافة المطيع لله (٩١٤- ٩٧٤ ميلادي)، الذي مات في عهده المسعودي نفسه.

ويصف كيف أنّ البيئة الجغرافيّة تُسهم بفاعليّة في صوْغ ملامح البشر وشخصيّاتهم؛ كقوله في أرض حِمْص الواقعة شماليّ سورية: إنّها «تُحسّن الجسم وُتصفّي اللون...». أمّا اليمن، «فيُضعف الأجسام وُيذهب الأحلام ... وبهم قطعة من الحسن، وشعبة من التّرفَة ...». وأمّا الحجاز، «فهواؤه حَرور وليله بَهور، يُنحّف الأجسام...». وأشار المسعودى في هذا الكتاب إلى الانحرافات الوراثيّة في الحِمضيات التي تحدث خلال عملية نقلها من السند إلى مصر؛ حيث راقب هذا الانحراف ودوّنه على أصناف من الليمون. كما أبدى إشارات على نظريّة التطوّر عمومـاً.

وخَصّص فصلاً لذكر تنازع الناس في المعنى؛ حول تسمية اليمن والعراق والشام والحجاز. وفي فصل آخر، ذكر الهياكل العظيمة وبيوت النيران والأصنام في حضارات مختلفة في الهند، والصين، وبلاد اليونان، وبيت المقدس، والروم، ولدى الصقالبة. كما وصف البيوت العظيمة عند الصابئة، وبيوت النار والنور عند الفرس المجوس، وغيرهم. ووصف الزلازل، والبحر الميت؛ فضلا عن طواحين الريح الأولى، ورفعها للمياه بفعل الطاقة المائيّة، التي شاهدها بنفسه في بلاد الشام.

ويأتي الكتاب على ذكر ملوك العالم في ذلك العصر: السريان، والأشوريّون، والبابليّون، والنبط (الكلدانيّون)، والفرس الساسانيّون، واليونان، والروم، وملوك الروم المتنصّرون، وحضارة مصر وأخبار ملوكها، والإسكندريّة، والسودان، والحبشة، والصقالبة، والإفرنجة، والنوكبرد (اللومبارديّون)، وعاد وثمود، ومكّة وأخبارها، واليمن، وملوك الحيرة والشام، وعرب البادية، والكرد، وغيرهم.

•••

٢٧- الكتاب: رحلة ابن فضلان[1]

ابن فَضلان (٢٦٣ – ٣٤٨ هـ / ٨٧٧ – ٩٦٠ م)

هو أحمد بن العبّاس بن رشيد بن حمّاد البغدادي، الملقّب بابن فضلان، رحّالة وجغرافي وسياسي. ولد في بغداد وتعلّم فيها، وأُرسله الخليفة العبّاسي المقتدر بالله على رأس بعثة دينيّة سياسيّة إلى أرض الصقالبة، استجابة لطلب مليكهم. عمل ابن فضلان مُساعداً للقائد العسكري محمّد بن سليمان في حملاته العسكريّة، التي امتدت إلى حدود الصين في الشرق. وقد تعلّم الكثير من هذه التجربة على مدار عشر سنوات، أهّلته للوصول إلى بلاط الخليفة العبّاسيّ المقتدر بالله كرجل دولة وفقيه وعالِم إسلاميّ؛ الأمر الذي مهّد لإرساله على رأس بعثة سفيراً إلى القيصريّة البلغاريّة، لشرح مبدأ دين الإسلام، بناءً على طلب مليكها الذي كان محاصَراً آنذاك بالروم الأرثوذكس والخزر اليهود.

كانت رحلة ابن فَضلان، في بلاد خوارزم وروسيا وبلاد البلغار ومملكة الخزر، تجربة مهمّة دوّنت أحوال تلك البلاد في ذلك العصر. وقد استوحت حضارتنا الحديثة من هذه الرحلة أعمالاً مهمّة، كرواية مايكل كرشتون «آكلة الموتى» التي ُصوّرت فلمـًا بعنوان «المقاتل الثالثَ عشر»، وقام ببطولته أنطونيو بانديراس بدوْر ابن فضلان. كذلك، صدر كتاب «مغامرات سفير عربيّ» لأحمد البقالي، وأُنتج استناداً إليه عملٌ تلفزيونيّ بعنوان «سقف العالم» في عام ٢٠٠٥ للميلاد.

---

(١) أحمد بن فضلان، رسالة ابن فضلان؛ تحقيق سامي الدهّان؛ دمشق: المجمع العلميّ العربيّ، بلا طبعة، بلا تاريخ.

تنبع أهمّيّة هذه الرحلة، إلى بلاد روسيا والترك والبلغار والخزر، من أنّها من أقدم الرحلات التي وفّرت معلومات عن تلك البلاد؛ فلم يسبق ابنَ فضلان أحدٌ إلى تلك الأصقاع. انطلقت الرحلة من بغداد صوْبَ نيسابور، مروراً ببخارى، فخوارزم، فبحر الخزر، حيث جمهورية كازخستان حاليّاً؛ وصولاً إلى مدينة البلغار. يصف ابن فضلان شعوب الأتراك الغزيّة البدويّة في ذلك الزمان بالتفصيل؛ حيث كانوا على وثنيّتهم. فشرح أوضاعهم الاجتماعيّة، وعَلاقاتهم العاطفيّة، ومعاملاتهم للمرأة، وطريقة دفن موتاهم، وطبيعة معيشتهم.

وفعل ابن فضلان الشيء نفسه مع بلغار الفولغا بدقّة لامُتناهية، وإحاطة وشمول عظيميْن؛ فيكاد لا يَغفل شيئاً من حياتهم العامّة والخاصّة في السلطة، والسلوك الاجتماعي، والعقيدة، والطقوس الدينيّة، ونحو ذلك. أمّا بالنسبة لرحلته إلى بلاد الروس، فجاءت قبل أن يعتنق أهلها المسيحيّة. فحدّثنا عن أصولهم الآتية من الشمال (إسكندنافيا)، وأساليب حياتهم المعيشيّة، ومعتقداتهم الدينيّة، وسلوكهم الثقافي والاجتماعي، وعلى نحو من التفصيل.

ربّما يعود الفضل إلى ياقوت الحموي، في كتابه «مُعجم البلدان»، في التعريف برحلة ابن فضلان. لكنّ المستشرق الروسي كراتشكوفسكي كان أوّل من أظهر أهمّيّة ابن فضلان، وأكّد أنّ رحلته لم تكتفِ بالوصول إلى نهر الفولغا؛ بل أوشكت على الوصول إلى مشارف القطب الشمالي من المِنطقة الإسكندنافيّة.

وأوضح كراتشكوفسكي أيضاً أنّ المعلومات التي جمعها ابن فضلان عن تاريخ روسيا في ذلك الوقت قدّمها للروس على طبق من ذهب، وبأسلوب ممتع ومُشوِّق؛ فضلاً عن دقّة الملاحظة في وصف الأمراء والناس العاديّين على حدّ سواء. فجَمعت رسالته بين الجغرافيا والتاريخ، من حيث اهتمامُها بالمكان في ضوء المعيار الزمني آنذاك؛ إضافة إلى اهتمامه بإثنوغرافيّة الشعوب، من حيث أصولها، وعاداتُها، وتقاليدُها، ومعتقداتُها، وطقوسُها، ومظاهر العمران فيها، وأحوال الطقس، والمظاهر العجيبة والمدهشة التي رصدها في حياة تلك الشعوب.

ويُخبرنا ابن فضلان عن المسؤوليّات والمهمّات السياسيّة والدينيّة والثقافيّة والتجاريّة والاستطلاعيّة التي كان على الوفد النهوض بها بشكل عام. ويَضرب لنا أمثلة كثيرة على الوفود التي ابتعثها في ذلك الوقت (منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً) الخليفة الواثق بالله إلى يأجوج ومأجوج، والتي ذكرها ياقوت الحموي في «معجم البلدان». كذلك، ذكر أيضاً الوفود التي أرسلها الخليفة إلى الصين، في أيّام المحادثات مع السامانيّين (من السلالة الفارسيّة) وملك الصين، والتي وصفها أبو دلف العجلي وصفاً رائعاً. ومن تلك الوفود الرسميّة بعثات كانت تستطلع الأخبار ومهمّتها التجسّس، كما جاء في حديث ابن حوقل عن عهد هارون الرشيد.

وبالرغم من قِصر رحلة ابن فضلان، فإنّها غطّت مدّةً استمرّت أحد عشر شهراً، وصف خلالها تلك البلاد بدقّة، وشرح أحوال الناس، والبرد الشديد، والمخاطر التي تعرّضت لها البعثة. كما شرح عادات الناس، وعقد مقارنات بين الأحوال الاجتماعيّة والمعيشيّة وشعائر المسلمين المختلِفة من جهة، والممارسات الفظيعة التي شهدها من جهة أخرى؛ مثلاً في قصّة حرْق الجارية إلى جانب سيّدها الميت. وعموماً، فإنّ نهج الكتابة تتمثّل في المحاورة المباشرة، معتمداً على آداب القرآن الكريم في المحاورات والمقابلات.

كذلك، تنبع أهمّيّة الرحلة، وبصورة خاصّة، ممّا كتبه ابن فضلان حول أحوال الروس آنذاك، التي أغفلها الغرب تماماً لأسباب كثيرة؛ ربّما ما زال بعضها ماثلاً أمامنا في أيّامنا هذه. لذلك، جاءت هذه الرسالة لتسدّ تلك الثغرة من تاريخ روسيا القديم.

•••

٢٨- الكتاب: الدرّة الفاخرة في الأمثال السّائرة[١]

الأصبهاني (~٢٨٠ – ~٣٥١ هـ / ~ ٨٤٣ – ~ ٩٦٣ م)

هو أبو عبد الله، حمزة بن الحسن الأصبهاني. ولد في مدينة أصبهان في بلاد فارس، التي كانت ذات مكانة علميّة راقية في زمانه. ارتحل إلى بغداد مرات عدّة، وأقام فيها طويلاً. تتلمذ على السمعاني، وعبدان الجواليقي، وأبي جعفر الطبري، ومحمّد المديني، وأبي بكر بن دريد، وغيرهم. له الكثير من المصنّفات في اللغة والأدب والتاريخ، تصل إلى أربعة عشر كتابًا، بعضها من الأمّهات والأصول؛ منها: «التنبيه على حدوث التصحيف»، و«تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء»، و«تاريخ أصبهان»، و«ديوان أبي نُواس»، و«تشبيهات»، و«مضاحك الأشعار»، و«الخصائص أو الموازنة بين العربيّة والفارسيّة». كما عُني بجمع شعر أبي نُواس طوال عمره.

يُعَدّ الأصبهاني من أبرز مؤلّفي القرن الرابع الهجريّ ومُصنّفيه. وتمتاز أعماله بدقّة التصنيف، وبراعة التقسيم، ودقّة المنهج، وروعة الأسلوب؛ كما تمتاز بالمقدّمات الوافية التي تقدّم لموضوع الكتاب وتشرح تفصيلات أجزائه وأقسامه. كذلك، اعتمد منهجه على توثيق المعلومات من أمّهات المراجع وتوزينها ومقارنتها فيما بينها، استناداً إلى أعمال أساطين العلم والأدب.

هناك أسماء عِدّة لهذا الكتاب؛ لأنّ مؤلّفه لم يطلق عليه اسمًا محدداً عند تأليفه. فأشارت أقدم النسخ التي عُثر عليها بأنّ اسمه: «الكلمات الفاخرة والأمثال السّائرة»؛ فيما أُطلق عليه أحيانًا «الدرّة الفاخرة»، وسمّاه البغدادي، صاحب «خزانة الأدب»:

---

(١) حمزة بن الحسن الأصبهاني، الدرّة الفاخرة في الأمثال السّائرة؛ حقّقه وقدّم له ووضع حواشيه وفهارسه عبد المجيد قطامش، مصر: دار المعارف، بلا طبعة، بلا تاريخ، في جُزأيْن.

«الأمثال التي على وزن أفعل»؛ لأنّ بداية الأمثال جاءت على وزن أفعل . والجدير بالذكر أنّ بعض المحقّقين يروْن أنّ أبا هلال العسكري في مقدّمة كتابه «جمهرة الأمثال»، وكذلك أبو فضل الميداني في مقدّمة كتابه «مجمع الأمثال»، لم يصرّحا بأنّهما نقلا عن أمثال الأصفهاني؛ مع أنّهما فعلا ذلك، كما يقول محقّق الكتاب.

اتُّهم الأصبهاني بالشعوبيّة والتعصّب ضدّ الأمّة العربيّة. وجاءت التهمة من الثعالبي والقِفطي والبيروني، على وجه الخصوص؛ فيما لاحظ بعضهم أنّ كتبه متحيّزة إلى اللغة الفارسيّة، ربّما بكتابه «الخصائص أو الموازنة بين العربيّة والفارسيّة» تحديداً. وأيّاً كان الأمر، فقد أظهر الأصبهاني عواطفَ حارّة وصادقة نحو بعض علماء العربيّة، سيما الخليل بن أحمد وسيبويه.

كان منهجه في التأليف مُحكماً، من حيث ترتيبُ الأقسام وترابطُها وتسلسلُها. فقد بدأ بمقدّمة، فَسّر فيها اشتغاله بأمثال تبدأ على وزن أفعل؛ شارحاً دواعي التأليف. وشرع في تقسيم الكتاب إلى أقسام، اشتمل أوّلها على الأمثال العربيّة، ومعناها، وأنماط استعمالها، والموضوع الذي تدور في فلكه. وفي القسم الثاني، جاءت الأمثال المولّدة؛ فيما اشتمل القسم الثالث على الكلمات التي تجري في الكلام مجرى الأمثال. أمّا القسم الرابع، فاشتمل على خُرافات العرب وخرزاتهم وأحجارهم. وقد رتّب الأمثال العربيّة ترتيباً ألفبائيّاً في ثمانية وعشرين باباً، وَفق عدد حروف المعجم. فأصبحت نهجاً سار عليه فيما بعد العسكري، والميداني، والزمخشري.

وجاءت الأمثال، كما يقول المؤلّف في المقدّمة، على وزن «هو أفعَلُ من كذا»؛ كالأمثال الآتية: «آمَنُوا من الأرض»، و»آمَنُوا من حَمَام مكّة»، وهكذا. فيَشرح الأمثال ومعنى مفرداتها، ويُفصح عن القصد منها، ويَستشهد بالأشعار لتأكيد ذلك. مثلاً، في قولهم: «أبعد من بيض الأَنُوق»، يقول: «فالأَنُوق: ذكر الرَّخَمة، والعرب تؤنّث هذا الاسم وإنْ كان للذكر، وهي من أبعد الطير وَكْراً؛ فضَربت بها العرب مثلاً في تأكيد بُعد الشيء، وما لا يُنال. قال الشاعر:

وكنت إذا استُودِعْتَ سِرّاً كتمتَه

كبيض الأَنُوق لا يُنال لها وَكْرُ»

وفي مثال آخر، يستند إلى الشعر لتعزيز قولهم : «أَشْأَم من زُحَلَ»؛ ويؤكّده بقول الشاعر:

وأكذبُ من عُرْقُوبِ يَشْرِبَ لَهجَة

وأَبْيَنُ شُؤْماً في الكواكب من زُحَلْ

ولبيان مدى غزارة الأمثال في الكتاب، نذكر فيما جاء منها «وأوله ضاد»؛ وهو سبعة وثلاثون مثلاً: أَضْيَقُ من ظِلّ الرُّمْح؛ أّضيق من خُرْت الإبْرة؛ أَضيق من سُمّ المِخْيط؛ أَضيَق من زُجّ؛ أَضيق من تِسْعين؛ أَضيق من مَبْعَج الضبّ؛ أَضْعَف من بَقَّة؛ أضعف من بَعوضة؛ أَضعف من فَراشة؛ أَضعف من قارورة؛ أَضعف من بَرْوَقَة؛ أَضعف من يَدٍ في رَحِم؛ أَّضْيَعُ من لَحْم على وَضَم؛ أّضيع من بَيْضَة البَلَد؛ أَضيع من غِمْد بغير نَصْل؛ أَضيع من دَلْو بلا وَذَمٍ؛ أَضيع من طَاوُوس في نَاوُوس؛ أَضيع من سِراج في شَمْس؛ أَضيع من قَمَر الشتاء؛ أَضيع من تراب في مَهَبّ الريح؛ أَضيع من دَم سَلاَّغ؛ أَضيع من وَصيّة؛ أَضيع من مَوْؤدة؛ أَّضَلُّ من مَوْؤدة؛ أّضلُّ من سِنَان؛ أَضلُّ من قَارِظ عَنَزة؛ أَضلُّ من ضبّ؛ أَضلُّ من وَرَل؛ أضلُّ من وَلَد اليَرْبُوع؛ أَضلُّ من يَدٍ في رحم ... أَضبط من نَمْلة؛ أضبط من الأَعْمَى؛ أَضبط من عائشة بن عَشْم؛ أَضْوَأُ من الصُبح؛ أَضوأُ من ابن ذُكَاء؛ أَضوأُ من نَهار؛ أَضوأُ من الشمس.

•••

٢٩- الكتاب: الأغاني[١]

الأصفهاني (أبو الفرج) (٢٨٤ – ٣٥٦ هـ / ٨٩٧ – ٩٦٧ م)

هو أبو الفرج، علي بن الحسين الأصفهاني، نسبة إلى أصفهان، وانتسب أيضًا إلى بني أميّة. عاش في أصفهان، وما لبث أن غادرها إلى بغداد، فدرس على علماء الحديث؛ مثل: محمّد بن جعفر القتات، وعلي بن أحمد الرزّاز، وغيرهما. حفظ الشعر، والأغاني، والأخبار، والآثار، والأنساب، واستدعى ذلك معرفته باللغة والنحو والسِّيَر والمغازي. حفظ الشعر، وأصبح شاعراً، فمدح الوزير أبا محمّد المهلّبي. له أشعار في وصف الخمر والهجاء المُقذِع. كان كاتبًا لركن الدولة البويهي. ورغم كثرة أسفاره، فقد كان دومًا يعود إلى بغداد، وتوفّي فيها. له الكثير من المؤلّفات في سياق مؤلّفه الشهير الأغاني (وربّما استُلّت منه)؛ منها: «أخبار جحظة»، و«المماليك الشعراء»، و«أدب السماع»، و«الغلمان المغنين». كتب في الأنساب أيضًا، مثل كتاب «مناجيب الخصيان»، و«جوهرة النسب»، وغيرهما. وله كتاب «مقاتل الطالبين» في أخبار العلويّين، ومَنْ قُتل منهم.

يَشهد المؤرّخون لأبي فرج الأصفهاني بأنّه: «كان إليه المُنتهى في معرفة الأخبار وأيّام الناس والشعر والغناء والمحاضرات» (ميزان الاعتدال، الجُزء ٣: صفحة ١٤٣، ولسان الميزان، الجُزء ٤: صفحة ٢٢٠ –٢٢١). وتأتي هذه الشهادة بالرغم من تشيّعه وتهاونه في شُرب الخمر. ويَروي «الأغاني» عن كثير من العلماء المعروفين، مثل ابن دريد والمبرّد، وعن الرواة السابقين، مثل أحمد الطوسي وأبي خليفة الجمحيّ؛ لكنّه

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني؛ تحقيق إحسان عبّاس وإبراهيم السّعافين وبكر عبّاس، بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨، في خمسة وعشرين جُزءاً.

في الوقت نفسه يَروي عن شخصيّات مجهولة. لذا، لا بُدّ من التأمّل والتدقيق في كتاباته.

ولا يُفرّق الأصفهاني بين الخبر التاريخيّ والحكايات المرويّة لأغراض التسلية، على اعتبار أنّهما مثيران للقارئ. فالمتعة مسألة أساسيّة في عصر الترف في بغداد خلال القرن الرابع الهجري. كما كان يَروي أحداثـاً منسوبة إلى بني أمية وخلفائهم، ربّما لإثبات أنّ قومه، بني أميّة، الذي انتسب إليهم في مرحلة ما، لم يقلّوا شأنـاً في ترفهم عن بني عبّاس.

ويرى إحسان عبّاس، مُحقّق الكتاب، أنّ المهتمّين بكتاب «الأغاني» هم في فئتين: الأولى تقرؤه رغبة في التسلية أو للاقتباس وصياغة سيناريوهات معيّنة في روايات أو مسرحيّات؛ أمّا الفئة الثانية، فهي من ثلّة الدارسين، والساعين لبناء تاريخ أدبيّ أو سياسيّ لذلك العصر، الذين يُفترض أن يكون لديهم قدرة نقديّة عالية.

تبدأ قصة «الأغـاني» بأمير المؤمنين هـارون الرشيد، الذي أمر كُلّاًمن إبراهيم الموصلي وفُليح بن العَوْراء وإسماعيل بن جامع باختيار مئة صوت من الأغاني والأشعار لبداية مشروع توثيقيّ ضخم تجاوز فترة حكمه. فتابع الخليفة الواثق بالله المشروع، وأمر إسحاق بن إبراهيم أنْ يختار له منها الأفضل. ويقول مؤلّف كتاب «الأغاني» إنّه ابتدأ بأصوات ثلاثة مختارة كان شعراؤها من المتأخرين: فانطلق من أبي قطيفة، فعمر بن أبي ربيعة، ثم نُصيب، وانتهى بهم في الجُزء الأوّل من الأغاني؛ إلى جانب أخبار ابن سريج ونسبه، وأخبار ابن محرز ونسبه، وأخيراً أخبار العَرْجيّ ونسبه.

وينتقل من جُزء إلى آخر بهذا الأسلوب حتّى الجُزء الثاني والعشرين. وينتهي الكتاب في الجُزء الرابع والعشرين، بغناء دُقاق في شعر شبيب بن البرصاء، وغناء إبراهيم الموصلي في شعر يزيد بن الحَكَم الثقفيّ، وغناء علويّة في شعر أبو الأسود الدؤلي. أمّا الجزء الخامس والعشرون، فهو مُخصّص للفهارس التي تحتوي على حشدٍ كبير من المغنين وأسماء الشعراء.

ويتحدّث الأصفهاني عن كلّ صوت أو شعر نظمه كلّ شاعر ومُغنٍّ بشيء من التفصيل: ما نسبه، نوع بحر الشعر، مَنْ أدّى غِناءه، ولماذا، وأين؟ وكان أيضـًا يذكر الأشعار التي قيلت في هجاء الشعراء، وذم شعرهم أو مدحه. والتفصيلات كثيرة لكل مغناة، نأمل أن يتمتّع القارئ بها ويتندّر.

•••

٣٠- الكتاب: الأمالي[(١)]

القالي البغدادي (٢٨٨ – ٣٥٦ هـ / ٩٠١ – ٩٦٧ م)

هو أبو علي، إسماعيل بن القاسم بن عيدون بن هارون بن عيسى بن محمّد بن سلمان القالي البغدادي، وجَدّه البعيد بن سلمان كان مولى لعبد الملك بن مروان الأمويّ. ولد القالي في ديار بكر، ورحل إلى العراق طلباً للعلم. سُمّي القالي نسبة إلى قَالى، وهي بلد من أعمال أرمينيّة؛ وسُمِّي البغدادي لإقامته في بغداد. سمع الحديث من أبي القاسم البغوي، وأبي سعيد العدوي، وأبي بكر السجستاني، وغيرهم. نبغ القالي في اللغة والأدب، وأقام في بغداد قُرابة خمس وعشرين سنة حتّى استدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى الأندلس واحتفى بقدومه وأكرمه وأحسن منزلته. وهناك استقطب العلماء والأدباء من حوله، وكان يُملي عليهم بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: «الأمالي»، و«الممدود والمقصور»، و«الإبل»، و«تفسير السبع الطوال»، و«البارع». توفّي في قرطبة.

يُعَدّ «الأمالي» من أمّهات الأدب العربي، ليس فقط لمن يريد التعمُّق في علم اللغة، بل أيضـاً للتعرُّف إلى الآداب العربيّة والأشعار المختارة والأمثال المستجادة والحِكم البالغة. ويُوضّح ذلك أبو علي القالي في مقدّمة كتابه، بقوله:

«لمّا رأيت العلم أنفسَ بضاعة، أيقنت أنّ طلبه أفضلُ تجارة. فاقتربت للرواية، ولَزِمتُ العلماء للدراية؛ ثم أعملتُ نفسي في جمعِه، وشَغَلْتُ ذهني بحفظه، حتّى حَوَيْتُ خَطِيره، وأحرزتُ رَفيعَه، ورَويْت جليلَه، وعرفتُ دقيقَه، وعَقَلْت شارده،

(١) إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي؛ تقديم محمّد عبد الجواد الأصمعي، مصر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٧٥، في جُزأين.

ورَويت نادره، وعَلِمت غامضه، ووعَيت واضحه ... فأمْللتُ هذا الكتاب من حفظي في الأخمسة بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة، وأودعتُه فنونـًا من الأخبار، وضُروبـًا من الأشعار، وأنواعـًا من الأمثال، وغرائبَ من اللغات ...».

وفي التمييز بين لحن وآخر، يسعى القالي البغدادي لتفسير قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (سورة محمّد، آية ٣٠). فقوله تعالى: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ القَوْل»؛ المقصود به في معنى القول. أمّا في مذهب القول، كما يقول، فإنّه يُميز بين لَحَنَ، ولَحِنَ بقوله، كما في قوله: «يقال قد لَحَنَ الرجل يَلْحَنُ لَحْنـًا، فهو لاحِنٌ إذا أخطأ؛ ولَحِنَ يَلْحَنُ لَحَنـًا، فهو لَحِنُ إذا أصاب وفَطِن ...».

ويستمرّ بتفسير مطالب غريب الكلام في اللغة؛ كأسماء الزوجة وأسماء الرجل الذي يُحبّ محادثة النساء، وأسماء الألوان وأوصافها، وشرح الغريب من ذلك، ومطلب ما قيل في الشيب والخضاب مدحـًا وذمّـًا، ومطلب حديث الأعرابي الذي اشترى خمراً بجزة صوف وما حصل بينه وبين امرأته، وغير ذلك من قضايا اجتماعيّة تعكس طبيعةَ ذلك العصر ونظامَه الأخلاقيّ.

وفي الشعر يُخصّص أمثلة ممّا نظَمه الشعراء في البكاء ووصف الدموع، وما قيل في الحُسن، وفي النساء، وما إلى ذلك من أشعار مختارة في موضوعات متنوّعة. وبهذه المختارات الشعريّة ينتهي الجُزء الأوّل من الكتاب.

وفي الجُزء الثاني، يستمرّ بتفسير بعض القضايا اللغويّة الغريبة، كبحثه في مطلب الكلمات التي يتعاقب فيها الصاد والضاد. كذلك، يذكر نماذج من أمثال العرب في أكثر من موقع: مرّة يُسمّيها «شذرة من أمثال العرب»، وتارة «نبذة من أمثال العرب». ويَروي الأحاديث والقصص والحكم. ومع أنّه يقفز من فكرة إلى أخرى، ومن موضوع إلى آخر، ثم يعود إلى الموضوع الأوّل ثانيةً، وفي أكثر من موقع، فإنّ أسلوبه جاء مميّزاً ومُشوِّقـًا بحيث يَشدّك لمتابعة القراءة.

فعلى سبيل المثال، يُخبرنا بشيء من أمثال العرب، فيُتبِعها بموضوع عن إبدال الياء جيمـًا في لغة فقيم، ثم ما تعاقب فيه الحاء والجيم، فما تعاقب فيه الهمزة والعين، فوصيّة بعض نساء الأعراب لابنها وقد أراد سفراً، فما قاله بعض العرب بهجاء أخيه الشقيق، ويعود مرّة أخرى إلى أمثال العرب فيما تعاقب فيه النون والميم، ويَليها حديث الخيار بن أوفى الهندي مع معاوية؛ وهكذا دَوَالَيْك حتّى نهاية هذا الجُزء.

ويَضرب القالي مثلاً على الإتْباع في اللغة؛ فيقول: «الإتْباع على ضربيْن: فضرْب يكون فيه الثاني بمعنى الأوّل، فيؤتى به تأكيداً، لأنّ لفظه مخالف للفظ الأوّل؛ وضرْب فيه معنى الثاني غير معنى الأوّل. فمثلاً، من الإتباع قولهم: «أَسْوان أَتْوان» في الحزن. «فأسْوان من قولهم: أَسِيَ الرجل يَأْسَى أسَى إذا حَزِنَ؛ ورجل أسيان وأسوان، أي حزين. وأتْوان من قولهم: أَتَوْتُه آتُوهُ بمعنى أَتَيْتُه آتِية وهي لغة لهذيل». خلاصة الأمر أنّ معنى قولهم «أَسْوان أَتْوان» أنّه حزين ومتردّد؛ فبات يذهب ويجيء من شدّة الحزن.

•••

٣١- الكتاب: تاريخ افتتاح الأندلس[١]

ابن القوطيّة (؟؟ – ٣٦٧ هـ / ؟؟ – ٩٧٧ م)

هو أبو بكر، محمّد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم. وُلد في قرطبة، ولُقّب بالقوطي نسبة لأسرته التي تنحدر من سارة القوطيّة، زوجة جَدّه عيسى بن مزاحم مولى الخليفة عمر بن عبد العزيز. تتلمذ ابن القوطيّة على الفقه والحديث والأدب في إشبيليّة وقرطبة، وبرع في علوم اللغة ورواية التاريخ، وكان حافظًا للحديث الذي سمعه من قاسم بن أصبغ البياني، وغيره. له الكثير من الكتب؛ منها: «تصاريف الأفعال»، ويُعَدّ أوّل كتاب يتناول الأفعال الثلاثيّة والرباعيّة، و«المقصور والممدود»، و«شرح رسالة أدب الكاتب»، و«تاريخ افتتاح الأندلس»، وغيرها.

قال الذهبي إنّ ابن القوطيّة كان يُملي كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» من صدره غالبًا. يبدأ الكاتب بالحديث عن تاريخ آخر ملوك القوط بالأندلس «غَيْطشة» الذي توفّي عن ثلاثة أولاد: المُند، وقلته، وأرقباش. ويذكر كيف دخل طارق بن زياد الأندلس، بعد أن اتّفق المُند وأخواه على الغدر بـ «لذريق» الذي كان قائداً عند أبيهم الملك، واحتلّ قرطبة؛ مع أنّهم اتفقوا مع لذريق أن يجابهوا طارق بن زياد معًا. لكنْ، في الليلة الأخيرة، اتفق المُند وأخواه على الغدر بلذريق؛ على أن يمضي لهم ابن زياد ضياع أبيهم بالأندلس، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة. ففعل؛ وسُمّيت بعد ذلك: «صفايا الملوك».

---

(١) ابن القوطيّة، تاريخ افتتاح الأندلس (**www.kutub-pdf.net**) تمّت زيارة الموقع بتاريخ ١٦ / ٤ / ٢٠٢٠.

ويذكر ابن القوطيّة سبباً آخر لتسهيل دخول طارق بن زياد إلى الأندلس؛ وهو أحد التجار الإسبان الذي يُسمّى «يليان» الذي كان يتاجر مع مدينة طنجة بشماليّ المغرب، والذي كان قد ترك ابنته في قصر الملك لذريق أمانة بعد موت أمّها. وما أنْ ارتحل التاجر حتّى استحوذ لذريق على ابنته. فحين علم التاجر بذلك، أراد أن ينتقم. فقصد طارق بن زياد، «فرغّبه في الأندلس، وذكر له شرفها وضَعف أهلها، وأنّهم ليسوا أهل شجاعة؛ فكان فتحها سنة ٩٢ هجريّة».

ويُخبرنا ابن القوطيّة عن تأسيس الدولة الإسلاميّة في الأندلس، والحروب التي دارت بين أمرائها المسلمين، والفِتن التي كانت تقوم بين العرب والبربر، وأصحاب «النزعة القحطانيّة» فيما بين العرب أنفسهم، التي كانت تؤول إلى حروب وكوارث ومذابح؛ حيث يَروي قصّة إبادة عبد الرحمن الداخل لمُشعلي ثورات كثيرة، ومنها الهجوم على قرطبة عندما كان عبد الرحمن في الثغر. فنزل لهم ووقعت معركة شرسة في مِنطقة رُصافه، واستطاع أن يفتن بين العرب والبربر، وأغار على الثوّار الذين كان يَقودهم عبد الغفّار. فقتله ومن معه، الذين قدّرهم بثلاثين ألف رجل. ويقول ابن القوطيّة في تلك المعركة: «... والحُفرة التي جُمعت فيها رؤوسهم، خلف وادي أمنبس، معروفة إلى وقتنا هذا». وانصرف عبد الرحمن وقد ظفر.

ويُخصّص فصلاً عن أخبار أرطباش الذي ُخصّصت له ضياع فيما مضى. لكن عبد الرحمن بن معاوية أمر بقبضها منه، حتّى ساءت أحواله. فقصد قرطبة واستأذن الأمير وقابله، ودار نقاش بينهما، وأقنعه بصرف عشرين ضيعة له. ويروي ابن القوطية أنّ أرطباش كان من عقلاء الرجال في أمر دنياه، كريماً ومتواضعاً. فكان يستقبل الناس واقفاً أو جالساً على الأرض معهم، وكان يُلبّي حاجاتهم ويكرمهم. وربّما أراد ابن القوطيّة بهذه الروايات أن يُعلّم الأمراء بطريقة غير مباشرة التواضع والكرم وحُسن التعامل مع الرعيّة.

ثمّة فصول أخرى عن أخبار حُكّام الأندلس ونشاطهم، كأخبار الحَكم بن هشام الذي كان جميلَ السيرة في رعيّته، والذي استقضى خيرَ قضاة الأندلس وأعدلَهم؛ مثل

القاضي محمّد بن بشير. ويَروي عنه ابنُ القوطيّة الروايات في هذا الشأن، وأنّ من كريم فعلاته غزوته للثغر طلباً للجهاد. كما خصّص فصولاً للحديث عن مفاخر الحَكم بن هشام وابنه عبد الرحمن بن الحَكم؛ إضافة إلى رواية أخبار أميّة بن عيسى بن شهيد، وغيره.

كذلك، يُخصّص فصليْن للأمير/ القاضي محمّد وأخباره وأفعاله، وفصولاً لأخبار موسى بن موسى، وولاية المنذر بن محمّد، وولاية عبد الله بن محمّد؛ وفصلاً آخرَ لخروجه إلى ديسم بن إسحاق ... علماً أنّ أغلبَ هذه الروايات كان عن الولاة الذين انقطعوا عن أداء الجباية لأمرائهم، أو ثاروا عليهم بفعل ارتفاع الجباية؛ فكانت الروايات تدور حول البعثات التأديبيّة التي كان الأمراء يرسلونها لتأديب الناس والولاة. ويصف الأمير محمّد بأنّه: «كان من أهل الأناة، وقلة العجلة، والتَنزُّه عن العُقوبة، مُكْرِماً لأعلام الناس من أهل العلم والموالي والأجناد، متخيّراً لعُماله، إلى أن ولّى أمره هشاماً؛ فأفسد عليه ...».

•••

٣٢- الكتاب: طبقات الأطبّاء والحكماء[١]

ابن جُلجُل (٣٣٢-٣٧٧ هـ / ٩٤٤-٩٨٧م)

هو أبو داؤود، سليمان بن حسّان، المعروف بابن جُلجُل. كان عالمـًا وطبيبـًا أندلسيّـًا، ولد في قرطبة في عائلة من المُوَلّدين. درس الطب وعلم الحديث واللغة والنحو في قرطبة على أبي بكر الدينوري، ووهب بن مسرة، وأحمد الصدفي، وغيرهم، كما أخذ علوم اللغة من محمّد بن يحيى الرباحي حتّى سنة ٣٥٨ للهجرة، ثم صحب أبا بكر بن القوطيّة، وسليمان بن محمّد الفقيه. ولكنْ، غلب على دراسته الطب؛ فأصبح في خدمة الخليفة هشام الثاني المؤيد بالله وطبيبه الخاص. فرغ من كتابه «طبقات الأطبّاء والحكماء» سنة ٣٧٧ للهجرة. له مؤلّفات أخرى؛ منها: «مقالة في أدوية الترياق»، و«مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه»، و«ممّا يستعمل في صناعة الطب»، و«رسالة في التبيين فيما غلط به المتطبّبون»، و«تفسير أسماء الأدوية المفردة» من كتاب ديسقوريدس، وغيرها.

ذكر ابن جُلجُل في مقدّمة كتابه بعض المراجع التي اقتبس منها في تأليف كتابه؛ وهي: كتاب «هروشيش» صاحب القصص، وكتاب «الألوف» لأبي معشر الفلكي، وغيرهما. يمتاز الكتاب بأنّه يقسّم الأطبّاء والحكماء إلى تسع طبقات، تبدأ بطبقة الهرامسة الثلاثة (انظر لاحقـًا)، وتنتهي بطبقة الأطبّاء الأندلسيّين. واقتبس من كتابه هذا أشهر من ألّف في طبقات الأطبّاء، ومنهم جمال الدين القِفطي (ت ٦٤٦ هجري)، وابن أبي أُصيبعة (ت ٦٦٨ هجري)، وغريغوريوس بن العبري (ت ٦٨٥ هجري).

---

(١) ابن جُلجُل، طبقات الأطبّاء والحكماء؛ تحقيق فؤاد سيّد، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.

يُعَدّ الكتاب من أقدم المصادر التي عرضت تراجم الأطبّاء، إلى جانب كتاب «الفهرست» الذي ألّفه النديم في السنة نفسها التي ألّف فيها ابن جُلجُل كتابه هذا (٣٧٧ هجري). لكنّ ابن جُلجُل استقى بعض معلوماته من كتاب «تاريخ الأطبّاء والحكماء» لإسحاق بن حُنين، المتوفى سنة ٢٩٨ للهجرة، والذي يُعد أوّل مؤرّخ في الإسلام. ويجدر التنبّه إلى أنّ اليعقوبي، المتوفّى سنة ٢٨٤ للهجرة، أورد بضعة فصول عن أطباء اليونان والرومان في عصور ما قبل الإسلام. أمّا إسحاق بن حُنين، فاعتمد على مراجع يونانيّة؛ مثل يحيى النحوي الإسكندراني.

وفي الوقت الذي بدأت الكتب الطبيّة المشرقيّة تدخل الأندلس، ذكر ابن جُلجُل أنّ يحيى بن إسحاق الطبيب كان أوّل أطباء الأندلس، وأنّه ألّف كتاباً سمّاه «الأبريسم»، يقع في خمسة أسفار، كما ذكر ابن الأنبار الذي أورد ترجمة لابن جُلجُل نفسه؛ فقال: هو «سليمان بن حسّان المتطبّب، من أهل قرطبة يُعرف بابن جُلجُل ويُكنّى أبا أيّوب. سمع الحديث بقرطبة في سنة ثلاث وأربعين وثلاثماية، وهو ابن عشر سنين، من أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري وأبي الحزم وهب بن مسرة، ...».

واضح من إشارات التقديم والخاتمة أنّ ابن جُلجُل ألّف هذا الكتاب استجابة لطلب أحد الخلفاء الأمويّين القرشيّين؛ فهو يقول في مقدّمته: «وكان السبب في تأليفي لهذا الكتاب تحريك لي، لم أجد لنفسي عذراً في التخلّف عن إسعافك فيما سألته ورغبته، فقيدت ذلك ووجهت به إليك؛ فكن به سعيداً ومن الله موفقاً رشيداً. فقد نحلك باريك بنحلة من العلا، فَصَلك بها من ذوي الهمم الناقصة المظلمة، كما قال المسيح عليه السلام في الإنجيل الطاهر: كل نِحلة يُوهَبُها الشخص من العقل فهي نازلة من باب النور من العلا». وهذه من الاقتباسات النادرة من الإنجيل في تلك المرحلة المبكّرة من التأليف.

يبدأ ابن جُلجُل كتابه بذِكر الطبقة العالية الأوّليّة ممّن تكلّم في الحكمة الطبيّة والفلسفة العلويّة، أي فلسفة ما وراء الطبيعة. وبدأ بذكر الهرامسة الثلاثة، وهم: هرمس الأوّل الذي كان قبل الطوفان؛ وهرمس الثاني الذي سكن بابل بعد الطوفان، وكان

بارعـًا في علوم الطب والفلسفة والعدد، وتتلمذ على فيثاغورس؛ وهرمس الثالث الذي سكن مدينة مصر بعد الطوفان، وهو صاحب كتاب «الحيوان ذوات السموم». ثم ينتقل إلى الأطبّاء اللاحقين من تلامذتهم.

أمّا الطبقة الثانية، فهي للحكميّة الروميّة اليونانيّة، ممّن تكلّم في الطب والفلسفة. وبدأهم بأبقراط، وصولاً إلى سقراط، فأفلاطون، وأرسطوطاليس، على اعتبار أنّ فلاسفة ذلك العصر كانوا يشتغلون بجميع العلوم؛ حتّى ديمقريطس منهم. وأمّا الطبقة الثالثة، فمن حكماء اليونان الذي جاؤوا بعد الفرس، ممّن اشتُهروا بالطب والفلسفة أيضـًا.

وتشتمل الطبقة الرابعة على حكماء اليونان في الدولة القيصريّة الرومانيّة، بدءاً من جالينوس؛ وصولاً إلى الطبقة الخامسة من الحكماء الإسكندرانيّين؛ ثم الطبقة السادسة ممّن لم يكن في أصله روميًّا ولا سريانيـًّا، ولا فارسيـًّا، أي من العرب، فيبدأ من الحارث بن كَلَدة الثقفي الطبيب، الذي عاش في أيّام الرسول والصحابة ومعاوية، ويتحدّث عن الأطبّاء الذين عاشوا في فجر الإسلام، مثل ابن أبي رمثة، وابن أبحر، وماسرجويه الطبيب البصْريّ.

أمّا الطبقة السابعة، فمن حكماء الإسلام ممّن برع في الطب والفلسفة، ومنهم مسلمون ومسيحيّون. فيبدأ بالطبيب بختيشوع، وجبريل ابنه، ويوحنا بن ماسويه، ويوحنا بن البطريق، وحُنين بن إسحاق، الذي يستفيض في الحديث عنه. وينتهي بابن أم البنين، وسعيد بن عبد ربه، وأبي حفص عمر، وأصبغ بن يحيى الطبيب، ومحمّد بن تمبيخ، وأبي الوليد محمّد، وأحمد بن حكم، وأبي بكر أحمد، وأبي عبد الملك الثقفي، وأبي موسى هارون، وأحمد بن يونس، ومحمّد بن عبدون.

•••

٣٣- الكتاب: الفِهرست [١]

النديم (٣٢٠ – ٣٨٠ هـ / ٩٣٢ – ٩٩١ م)

هو أبو الفرج، محمّد بن إسحاق بن محمّد بن إسحاق، عُرِف بابن النديم، وهو مؤلّف كتاب الفِهرست الشهير، مع أنّ ياقوت الحموي في كتابه « مُعجم الأدباء» ذكره باسم محمّد بن إسحاق النديم. لا توجد معلومات وافية عن حياته؛ فقد أَهمله ابنُ خلّكان، والكَتبي، صاحب «فوات الوفيّات»، وغيرهما، ولكنّه بغدادي الولادة والمعيش، مدائني الأصول. وما يُعرف عنه أنّه عاش في بغداد لأب ورّاق، وتعلّم على أبي سليمان المنطقي، وأبي الفرج الأصفهاني، وغيرهما. كان شيعيًّا مُعتزلاً، ويعدّ أوّل من أدخل كلمة الفهرست الفارسيّة إلى العربيّة، وكان أوّل المصنفين في العالم فلم يكن قبله سوى كتب صنّفت الشعر والشعراء وأُطلق عليها «الطبقات». ذكر ابن النجّار في كتابه «ذيل تاريخ بغداد» بأنّ تصنيف النديم للفهرست كان سنة ٣٧٧ للهجرة. وكشف لطف الله قاري أنّ له كتابيْن آخريْن، أحدهما كتاب «التشبيهات».

تَعني كلمة «الفِهرست»، الفارسيّة الأصل: «الكتاب الذي تُجمع فيه أسماء الكتب». ومع أنّ النديمَ عمل ورّاقـاً في بغداد، أي ينسخ الكتب، فإنّ كتابَه هذا هو عملٌ موسوعيّ يتجاوز حِرفة الورّاقة إلى التأليف والشرح والتصنيف. ولا شك أنّ الكتاب حافظ على الكثير من إرثنا العربيّ الإسلاميّ، سيما بعد غزو التتار لبغداد.

جاء «الفِهرست» في عشرة أجزاء، أحصى فيها النديم ٨٣٦٠ كتاباً لِـ٢٢٣٨ مؤلّفـاً، منهم ٢٢ امرأة، جلّهم من الشعراء. بدأ بوصف لغات الأمم من العرب والعجم، ثمّ

---

(١) النديم، الفِهرست، مصر: المكتبة التجاريّة؛ تحقيق أيمن فؤاد سيّد، بلا طبعة، بلا تاريخ.

تنوّع حروف الكتابة في التاريخ العربيّ: الحِميريّ، والسريانيّ، والعِبريّ، والفارسيّ، والروميّ، وغيرها. كذلك، تحدّث عن أنواع الخطوط، وأشكال كتابتها؛ وذكر خطّاطي المصاحف. وانتقل للحديث عن الكتب الدينيّة، ابتداءً بالتوراة، ومروراً بالأناجيل، ووصولاً إلى القرآن الكريم، مع تسمية الكتب المصنّفة في معاني القرآن، ولغته، وغرائبه، وتشكيله؛ فضلاً عن ذكر أسماء من قام بذلك.

ويَعنينا هنا وجود فصول كاملة في الكتاب تتحدّث عن جانب فلسفيّ إنسانيّ. فعلى سبيل المثال، هناك الفصل الذي يستعرِض كتب الإغريق منذ بداية تفلسفهم مع طاليس في أيونيا حتّى أرسطوطاليس ومن تلاه من فلاسفتهم. فوثّق الكتب اليونانيّة القديمة، وعرّفنا بمن ترجمها، أو نقلها، أو شرحها ، ومتى.

كذلك، خَصّص لفيلسوف العرب الكِنديّ وتلامذته عشرات الصفحات للحديث عن موقفه من العالم وفلسفته، وذكر كتبه التي نشرها في صنوف شتّى من المعارف؛ علماً بأنّه خَصّ الفارابي بفِقرة صغيرة فقط، وهذا يحتاج الى تفسير! كذلك يتحدّث في الجُزء الثاني من المقالة السابعة عن أخبار العلماء منذ عهد اليونان حتّى عصرِه؛ فيستعرض كتب إقليدس وأرخميدس، على سبيل المثال، ويُخبرنا عن أعمالهما، ومَن نقلها، أو فسّرها، أو ترجمها، أو شرحها، من العرب أو العجم.

وهناك جُزء خاصّ في المقالة التاسعة عن المذاهب الإسلاميّة بشكل عام؛ حيث ميّز بينها وشرحها باستفاضة. كما تطرّق إلى مذاهب الكلدانيّين من الصابئة المندائيّين ببعض التفصيل؛ مُوضحـاً الفلسفة التي يستند إليها كلّ اعتقاد والاختلافات فيما بينها. وعُمومـًا، بالنسبة للمذاهب غيْر الإسلاميّة، فقد تناولها بالشرح، كالمانويّة والمزدكيّة وغيرهما، وبيّن مواعيد الصلاة والصيام والعادات الاجتماعيّة والمأكل لكلّ مذهب، وبحث في قضايا الثواب والعقاب، ووصف أعيادهم والقرابين التي كانوا يُقدّمونها، والطقوس المرافقة لها، خلال أشهر السنة كاملة؛ بل ذكر أيضـًا أسماء رسائل ماني، والأئمة الذين أتوْا من بعده، وفصّل الحديث عن عشرات المذاهب الأخرى التي كانت سائدة آنذاك، كالمجوسيّة.

ويبدو لنا أنّ انتشار الشعوبيّة، وشيوع اتّهام الناس بالزندقة، وربطها بالمانويّة، وغيرها من مذاهب الفرس، هو الذي استدعى توسّع النديم في الشرح عن تلك المذاهب. وهذا الثراء في المعلومات والتفصيلات في الشروحات هو ما يجعل من «الفِهرست» أكثرَ من مُجرّد فهرس للكتب؛ فهو من أمّهات الكتب التراثيّة في العلوم الإنسانيّة.

و«الفِهرست» لا يوثّق فقط الكتب العلميّة والأدبيّة وكتب الشعر وأصحاب المذاهب والفلسفة؛ بل يُؤرّخ أيضاً لكلّ شيء آخر! فهناك كتابات حول الفروسيّة والحرب والبيطرة والجوارح والعِطر والطبيخ والتعاويذ، وما إلى ذلك. فلم يترك شاردة أو واردة إلا ذكرها، سواء كانت كتاباً أو مخطوطاً أو رسالة قصيرة. ويُخبرنا مَنْ كتبها أو شرحها أو ترجمها، ويُطلعنا على الخلافات في شأن ذلك.

وقيمة الفهرست غيْر مقصورة على موْسوعيّته، ففيه ما فيه من بُعد نظر ومنهجيّة واضحة دقيقة وصبر وأناة؛ الأمر الذي يجعل منه مِنْ أهمّ كتب التراث المُبكّرة. ولكنّ القارئ ينبغي أن يتنبّه إلى حقيقة أنّ هناك طبعات عديدة للفهرست تعرّض بعضها إلى التصحيف والتحريف، كما اكتشفت الباحثة مها أحمد إبراهيم مستعينة بالمنهج المقارن، لذلك واجه الكتاب ومصنّفه النقد الشديد عبر التاريخ.

•••

٣٤- الكتاب: أشعار النساء[١]

المرزباني (٢٩٧ – ٣٨٤ هـ / ٩١٠ – ٩٩٤ م)

هو أبو عبيد الله، محمّد بن عمران بن موسى المرزباني، خُراساني الأصل، مؤرّخ وأديب وفقيه. ولد في بغداد وتوفّي فيها في زمن الخليفة العبّاسي القادر بالله. أخذ العلم عن كبار علماء عصره، ومنهم: ابن دريد، وابن نفطويه، والأنباري، وغيرهم. كان معتزليّاً فكراً ومنهجاً. له كتب كثيرة؛ منها: «معجم الشعراء»، و«الموشّح»، و«أخبار أبي تمام»، و«الرياض في أخبار المتيّمين من الشعراء الجاهليّين والمخضرمين والإسلاميّين والمحدثين»، و«المقتبس»، و«أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من المحدثين»، و«الموشّح»، وغيرها. عاش في زمن الخليفة العبّاسي القادر بالله، وتعلّم على ابن دريد والألباني وغيرهما. وصفه النديم في الفهرس أنّه كان صادق اللهجة، واسع المعرفة بالروايات، كثير السمات الحسنة.

بدأ المرزباني كتابه عن «أشعار النساء» بأخبار الشاعرة ليلى الأخيليّة ، في مقارعاتها الشعريّة مع النابغة الجعدي، إذ شرع النابغة في هجاء ليلى قائلاً:

ألا حَيِّيا ليلى وقولا لها هلا

فقد ركبت «...» أغرُّ محجَّلا

فقالت ترد عليه شعراً، وغلبته بقولها:

---

(١) أبو عبيد محمّد المزرباني، أشعار النساء (**www.Al-Mostafa.com**) زيارة الموقع بتاريخ ٢٨/ ٣/ ٢٠٢٠.

وعـــيَّـــرتـــنـــي داءً بـــأمـــك مِـثـلُـه

وأيُّ جـــــواد لا يُـــقـــال لـــهـــا هـــلا

هلا: هي كلمة تقال للفرس الأنثى.

كذلك كانت لها حوارات مع الحجّاج بن يوسف الثقفي، في أواخر أيّامها، حيث كانت تزور مجلسه، فقال الحجّاج يُعرّف بها يومـًا: «أتدرون من هذه؟ قالوا: ما نعرفها، ولكنّا ما رأينا قط امرأة أطلق لسانـًا منها، ولا أجمل وجهـًا، ولا أحسن لفظـًا، فمن هي أصلح الله الأمير؟ قال: هذه ليلى الأخيليّة صاحبة توبة بن الحمير العقيلي التي يقول فيها»:

فـلـو أنّ لـيـلـى الأخـيـلـيّـة سلّـمــت

عـلـي وفــوقــي تــربـــة وصــفــائــح

لـسـلّـمـت تـسـليـم الـبـشـاشـة أوزَقـــا

إلـيـهـا صـــدى مـــن جـانِـب الـقـبـر صـائـحُ

وفي مقام آخر، يقول المرزباني، نقلاً عن إبراهيم بن محمّد النحوي، إنّ الفارعة، بنت معاوية، من بني قشير، قالت في مدح فرسان عشيرتها:

مـنّـا فـــوارس قـاتـلـــوا عـــن سبيهم

يـــوم الـــنـــســاري لـيـس مــنّــا أشـطـر

ولـبِـئـس مـــا نَـصـر الـعـشـيـرة ذو لـح

وحـفـيـف نـــافـحـة بـلـيـل مـسـهـــر

ذو لح: ذو اللحية بن عامر بن عوف بن كعب بن كلاب. ومسهر: هو مسهر بن عبد قيس بن كلاب.

وفي مقام آخر، قالت أم الورد العجلانيّة (العجلان هو عبد الله بن كعب بن ربيعة) عندما خلت برجل:

هــل أنــت مـطـيـعـي يــا نــمــيــريّ مــرّة

وتـعـصـيـنـي غـــدراً إذا طـلـع الـفـجـر

فـــتجعـلـها دنــيـــا نـعـيش بظلها

فــلا عـيـن إلا الـعـيـس والـبـلـد الـقـفـر

ويروي المرزباني العديد من الأشعار لمُرّه بنت صعصعة بن معاوية، وجماعة من نساء بني عامر وغيرهم؛ حتّى الجواري كان لهنّ نصيب في الشعر، إذ يذكر أنّ جارية أخذت تبكي شيخ بيتها قائلة:

ألا أبــكـي لـمـيت شـفّ مهجـتـه

طـول الـسِـقـام وأضـنـى جـسـمـه الـكـمـد

يـا لـيـت مـن كـلـف الـقـلـب الـمـهـيـم بـه

عـنـدي فـأشـكــو إلـيـه بـعـض مـا أجـد

وفي أشعار عِجْل بن لُجين بن صعب، من بني وائل، يروي المرزباني الآتي:

«أخبرنا إبراهيم بن محمّد بن عرفة النحوي، قال: أخبرنا أحمد بن يحيى النحوي، قال: أخبرنا سعدان بن المبارك عن أبي عبيدة، قال: لمّا كان يوم ذي قار تقدّمت عَجل وأبلت بلاء حسنا، واضطمت عليهم جنود العجم، فقال الناس: هَلكت عِجْل. ثم حملت بكر، فوجدت عِجْل ثابتة تقاتل، وامرأة تقول في حضّ الناس على القتال»:

إن تــهــزمــوا نــعــانــق

ونــفــرش الــنّــمــارق

أو تــــهـــــزمـــوا نـــفـــارق

فـــــراقـــــا غـــيـــر وامــــــق

شئنا الاهتمام بهذا الكتاب: «أشعار النساء» للمرزباني، من باب الإطلالة على شاعرات من صدر الإسلام كنّ يقارعن شعراء ذلك العصر المعروفين، ولم يكنّ قلائل عدداً، إذ أحصينا في الكتاب العشرات من الشاعرات أغلبهنّ مجاهيل الأسماء، مثل قشير بنت كعب، ومُرّة بنت صعصعة، وربيعة بنت نزار، وشيبان بنت ثعلبة، وعِجْل بنت لجين، وغيرهنّ.

•••

٣٥- الكتاب: جمهرة الأمثال[١]

أبو هلال العسكري (٣٠٧ – ٣٩٥ هـ / ٩٢٠ – ١٠٠٥ م)

هو أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن مهران، اللغويّ العسكريّ. ولد بعسكر مُكْرَم في محافظة خوزستان. كان تاجراً كثير التنقّل بين بلاد متعدّدة، وأخذ العلم والأدب والفقه عن خاله أبي أحمد العسكري (الحسن بن عبد الله؛ هو فقيه وأديب، وله الكثير من الكتب). لأبي هلال الكثير من المؤلّفات والشروحات والرسائل، مثل: كتاب «جمهرة الأمثال»، و«أعلام المعاني في معاني الشعر»، و«الأوائل»، و«التبصرة»، و«تفسير القرآن»، و «كتاب الصناعتين: الشعر والنثر»، و«ديوان المعاني»، و«شرح الحماسة»، وغيرها من الكتب والمخطوطات. ذكر القِفطي أنّه عاش إلى ما بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، بالرغم من تداول تاريخ موته قبل ذلك بخمس سنوات تقريباً.

يبدأ أبو هلال العسكري باشتقاق كلمة «مَثَل» من المَثل والتماثُل بين الشيئيْن في الكلام، كقولهم: «كما تَدين تُدان». وجعل كل حكمة سائرة بين الناس مثلاً. ونقول ضربنا ذلك القول مثلاً، أي جعلناه يسير في البلاد على لسان العباد؛ كما في قول: «ضَرب في الأرض»، أي سار فيها. ويرى العسكري أهمّيّة كبرى للأمثال، بسببِ «حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان، بعد سلامته من اللحن».

ورأى كذلك أنّ المَثلَ يَزيد المنطق تفخيماً، ويُكسبه قَبولاً لدى الناس. وطالما أنّ العرب تَستخدم الأمثال في أكثر وجوه الكلام، فإنّ المعرفة بالأمثال تَختصِر من الألفاظ

---

(١) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال؛ حقّقه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه محمّد إبراهيم وعبد المجيد قطايش، بيروت: المكتبة العصريّة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، في جُزأيْن.

وتجعل الكلام نبيلاً وشريفاً. ومن عجائب الأمثال أنّها، رغم إيجازها، فهي تعمل عَمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخِطاب. والوقوف عند معانيها وأصولها ضروريّ، لأنّ الجهلَ بذلك يجعل من صاحبه منقوصَ الأدب ضعيفَ الحجّة.

وفي تفسير الحكمة التي ذهبت مثلاً، ولشرح أصولها، لنأخذ بعض الأمثلة من الكتاب:

(١) «جاء بخُفيّ حُنين». يقول العسكري: قِيل إنّ «حُنيْن»، وهو إسكافيّ من الحيرة، كان قد ساومه أعرابيّ بخُفّيْن، فانصرف ولم يشترِهما. فألقى حُنين أحدَهما في أول طريق الأعرابيّ، والآخر في آخره. فعندما مرّ الأعرابيّ بالأوّل تركه، ولمّا رأى الآخر رخا راحلتَه ورجع ليأخذَ الأوّل. فركب حنين الراحلة وطار بها، كما يقول في روايته. فرجع الأعرابيّ إلى قومه من دون ناقته؛ «فقط بخُفيّ حُنيْن».

(٢) وفي قولهم: «خير العِلم ما حُوضر به»، أي خير العلم ما حضرك عند الحاجة إليه، فيُعنى به الفطنة لما تحفظه، وإيراده في موضعه. وفي كلام بعضهم: «خير العلم ما حاضرت به، ولا يَعتاصُ عند مطلبه». وعَوِصَ الكلام، أي صَعُب فهمه. فقال بعض الفلاسفة: «خيرُ العلم ما إذا غرقتْ سفينَتُك سبح معك، أي ما كان محفوظاً في الذاكرة. فأمّا ما جاء في الكتب، فإنّه بمظّانّ الآفات؛ على أنّ النسيان آفة الحفظ أيضاً». وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول: «اجعل ما في كتبك رأسَ مالك، وما تحفظ لنفقتك».

(٣) وفي قولهم: «انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً»، يُميّز العسكري بين مذهب الجاهليّة والحال الذي أتى به الإسلام، بقوله: إنّ أهل الجاهليّة نصروا جيرانهم وأصدقاءهم وأقرباءهم، سواء أكانوا على حق أم على باطل؛ كقول الإمام علي بن أبي طالب:

إنّ أخَ الصدق الذي يسعى معك

ومَنْ يَضرّ نفسَه لينفعك

ومَـــن إذا صَـــرْفُ زمـــان صَـدعـك

شـــتّـــتَ شـمـل نَــفْـسِـه لـيـجـمعـك

وإن غــــدوت ظـالـمـا غــــدا معك

ورُوي عن النبيّ الكريم هذا الكلام أيضـًا، فإذا كان صحيحـًا فإنّ معناه، يقول العسكري: «انصرْ أخاك مظلومـًا، وكُفّهُ عن ظُلمه إنْ كان ظالمـًا. فتكونَ قد نصرتَه إذا منعتَه من الإثم؛ لأنّ النبيّ لا يأمر بنصرة الظالم». فواضح أنّه كان يسعى إلى تجاوز العصبيّة القبليّة التي سعى الإسلام إلى الحدّ منها.

•••

٣٦- الكتاب: مقامات بديع الزّمان الهمذاني[١]

الهمذاني (٣٥٨ – ٣٩٥ هـ / ٩٦٩ – ١٠٠٥ م)

هو أبو الفضل، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد ، المعروف ببديع الزمان الهمذاني. ولد في همذان لأسرة عربيّة ذات مكانة علميّة مرموقة، وكان أبوه الحسين بن يحيى مفتي همذان. تتلمذ على أحمد بن فارس اللغوي المعروف، وأبي بكر الفرّاء اللغوي الشهير، ثم ارتحل إلى أصفهان، حيث اتّصل بمحمود الغزنوني، وانضم إلى حلبة شعراء الصاحب بن عباد. إضافة إلى شهرته الواسعة كأديب ورائد في فن المقامة في الأدب العربي، فكان شاعراً متميّزاً أيضـًا، ولكنّ إنتاجه كان محدوداً. له ثلاثة مصنّفات؛ هي: «الرسائل»، و«المقامات»، و«الديوان». انقسمت رسائله إلى صنفين: الرسائل الديوانيّة (في شؤون الدولة)، والرسائل الإخوانيّة (في المناسبات الخاصّة)، أو المساجلات البلاغيّة.

تبدأ مقامات بديع الزمان الهمذاني، وعددها واحد وخمسون، بالمقَامة القَريضَيّة وتنتهي بالمقَامة البِشْرية. قال الإمام محمّد عبده، وهو محقّق الكتاب الذي اعتمدناه ههنا، إنّ أحمد بن الحسين الهمذاني ألّف أكثر من أربعمئة مقامة، ولكنّ الناس لم يعثروا منها إلّا على عدد قليل جداً لا يزيد على الخمسين مقامة.

يمتاز أسلوب الهمذاني بانتقاء الألفاظ الموسيقيّة العذبة واهتمامه بألوان البيان، كالتشبيه والاستعارة والمُحسنات البديعيّة، كالجناس والسجع والطباق. وهو أوّل من

---

(١) أحمد بن الحسين بن يحيى، مقامات بديع الزّمان الهمذاني؛ قدّم لها وشرح غوامضها الإمام الشيخ محمّد عبده، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥.

ابتكر فكرة المقامات، التي كانت تشير إلى المجالس التي كان يستقبل فيها الخلفاء العلماء والأدباء. وكان موضوع المقامات في أغلبها متّصلاً بأحوال الناس الاجتماعيّة والتصوّرات الأخلاقيّة، وامتازت بكثرة الشواهد الشعريّة والمواءمة بين الشعر والنثر، فضلاً عن إظهار براعة صاحب المقامة بيانيّاً باستخدام اللغة والمحسنات البديعيّة.

كان فن المقامة يعالج مشكلات المجتمع باستخدام القصّة المركّبة، بلفظ جميل وصياغة ماهرة وسبك حسن وسجع جميل، فيَنشدّ السامع إليها، ولا ينتبه إلى هدفها ومضمونها، إلّا بعد عمق تفكير. لذلك فإنّ الكثير منها كان يتناول القضاء والقوانين والأعراف السائدة آنذاك ومشكلاتها في تلك الفترة، فيما بعض المقامات كانت تتعامل مع الخرافات السائدة في المجتمع، ودعت إلى التفكّر فيها وتغييرها. إذن، كان هناك هدف اجتماعيّ وسياسيّ للمقامة في المقام الأوّل.

يُحدّثنا بديع الزمان الهمذاني في مقاماته، نقلاً عن محدّثه الوهمي عيسى بن هشام، كما فعل الحريري في مقاماته فيما بعد، الذي حدثنا على لسان الحارث بن همام. وتجدر الإشارة إلى تجاوز المألوف في هذه المقامات، إذ تُمرّرُ الفكرة من خلال السجع والكنايات وغيرها من ضروب اللغة، التي تخفي الباطن عند روايتها، فلا تخلو المقامات من بعض المخالفات في العقيدة، وذكر الخمر، والمجون، وإلى غير ذلك، كذلك لا تخلو من الفكاهة والمُلح، كما في المقامة «المضيريّة» التي جاء فيها:

«دَعَاني بَعْضُ التُّجَّارِ إلَى مَضِيرَةٍ وَأَنَا بِبَغْدَادَ، وَلَزِمَني مُلاَزَمَةَ الغَرِيم، وَالكَلْبِ لأَصْحَابِ الرَّقِيم، إلَى أَنْ أَجَبْتُهُ إلَيْهَا، وَقُمْنَا فَجَعَلَ طُولَ الطَّرِيقِ يُثْني عَلَى زَوْجَتِه، وَيُفَدِّيهَا بِمُهْجَتِهَ، وَيَصِفُ حِذْقَهَا فِي صَنْعَتِهَا، وَتَأَنُّقَهَا فِي طَبْخِهَا وَيَقُولُ: يَا مَولاْيَ لَوْ رَأَيْتَهَا، وَالخِرْقَةُ فِي وَسَطِهَا، وَهْيَ تَدُورُ فِي الدُّورِ، مِنَ التَّنُّورِ إِلَى القُدُورِ وَمِنَ القُدُورِ إِلَى التَّنُّورِ تَنْفُثُ بِفِيهَا النَّارَ، وَتَدُقُّ بِيَدَيْهَا الأَبْزَارَ، وَلَوْ رَأَيْتَ الدُّخَانَ وَقَدْ غَبَّرَ فِي ذَلِكَ الوَجْهِ الجَمِيلِ، وَأَثَّرَ فِي ذَلِكَ الخَدِّ الصَّقِيلِ، لَرَأَيْتَ مَنْظَراً تَحارُ فِيهِ العيُوُنُ:

وَأَنا أَعْشَقُهَا لأَنَّهَا تَعْشَقُنِي، وَمِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ أَنْ يُرْزَقَ المُسَاعَدَةَ مِنْ حَلِيلَتِهِ، وَأَنْ يَسْعَدَ بِظَعِينَتِهِ، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كانَتْ مِنْ طِينَتِهِ، وَهْيَ ابْنَةُ عَمِّي لَحَا، طِينَتُها طِينَتِي، وَمَدِينَتُهَا مَدِينَتِي، وَعُمُومَتُهَا عُمُومَتِي، وَأَرُومَتَهَا أَرُومَتِي، لَكِنَّها أَوْسَعُ مِنِّي خُلْقاً، وَأَحْسَنُ خَلْقاً. فَصَدَّعَنِي بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ، حتّى انْتَهَيْنَا إِلَى مَحَلَّتِهِ...».

•••

٣٧- الكتاب: الإمتاع والمؤانسة[1]

التوحيدي (أبو حيّان) (٣١٠ – ٤١٤ هـ / ٩٢٢ – ١٠٣٢ م)

هو أبو حيّان، عليّ بن محمّد بن العبّاس التوحيديّ البغداديّ، فيلسوف مسلم متصوّف، ولد في بغداد، وتوفّي في شيراز. يعود في أصوله إلى شيراز بفارس؛ وقيل أيضـًا نيسابور. وربّما يكون سبب كنيته بالتوحيدي أنّ أباه كان يبيع نوعـًا من التمر العراقيّ يُطلق عليه التوحيد؛ أو لأنّه مُعتزل، حيث يُطلِق المعتزلة على أنفسهم لقب أهل العدل والتوحيد. ونرجّح الرأي الأخير. امتهن حرفة الوراقة وتتلمذ على أبي سعيد السيرافي عِلمَي النحو والصرْف، وعلى يحيى بن عَدي دروس الفلسفة، وغيرهما. له الكثير من المؤلّفات التي امتازت بتنوّع المادة، وغزارة المحتوى من نوادر وحوادت تكشف عن الأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة في ذلك العصر. فإلى جانب كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، نذكر من مؤلّفاته: «البصائر والذخائر»، و«الصداقة والصديق»، و«أخلاق الوزيرَيْن»، و«الهوامل والشوامل»، و«المقابسات»، و«تقريظ الجاحظ»، و«الإشارات الإلهيّة».

قصّة هذا الكتاب: أنّ أبا حيّان سامَرَ الوزير أبا عبد الله العارض سبعـًا وثلاثين ليلة، دارت بينهما خلالها أحاديثُ وحوارات. وعندما طلب صديق التوحيدي، أبو الوفاء المهندس، أن يقصّ عليه تلك الحوارات والأحاديث، كتب ذلك على هيئة أسئلة يطرحها الوزير، فيجيب عنها أبو حيّان. وتمخّض ذلك عن كتاب «الإمتاع والمؤانسة» الذي بين أيدينا، والذي جاء في ثلاثة أجزاء.

---

(١) أبو حيّان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة؛ اعتنى به وراجعه هيثم خليفة الطعيمي، صيدا – بيروت: المكتبة العصريّة، بلا طبعة، ٢٠١١.

قسّم أبو حيّان أجزاءَ الكتاب إلى أقسام تُساوي ليالي السمر نفسَها التي كان يقترح فيها الوزير الأسئلة على التوحيدي. وعند الانتهاء من جلسة السمَر، كان الوزير يُطالبه بطرفة من الطرائف، أطلق عليها اسم «مُلحة الوداع». فتكون على هيئة نادرة لطيفة، أو بيت رقيق من الشعر.

وفي أحيان أخرى، كان الوزير يُكلّفه إجراء دراسة مُحدّدة؛ كالبحث في المصادر التي تجيء على وزن «تفعال». فيُجيب أبو حيّان عن بعضها في اليوم التالي؛ حيث يَجمع له ما ورد في كتب اللغة حول ذلك. وتارةً، كان يطلب الوزير أن يُحضّرَ له التوحيدي رسالة في موضوع ما كي يتلوها عليه في الجلسة القادمة؛ كطلبه أن يكتب له في المُجون والملح. وتارة أخرى، كان يأخذ الكلام شكل حوار، أو كان يدفع الوزير لأبي حيّان برقعة تضم أسئلة يطالبه بالإجابة عنها؛ كسؤاله عن الروح، وصفاتها، ومنافعها.

مثلاً، في الليلة السادسة، سأل الوزيرُ أبا حيّان: أتفضّل العربَ على العجم؛ أم العجمَ على العرب؟ فأجابه التوحيدي: إنّ الأمم عند العلماء أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند؛ وهكذا يكون ثلاثٌ من هؤلاء الأمم عجماً. واستدلّ التوحيدي من ذلك أنّه من الصعب القول إنّ العرب وَحْدَها أفضلُ من هؤلاء الأمم الثلاث. وعندما خصّ الوزير السؤال بالفرس، استخدم التوحيدي كلاماً لابن المقفع، بوصفه فارسيّاً عريقاً. فروى عنه أنّه سألنا ذات مرة: «أيّ الأمم أعقل؟ فظننا أنّه يريد الفرس. فقلنا: فارس أعقل الأمم؛ نقصد مقاربته، ونتوخّى مصانعته. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها؛ هم قوم عُلّموا فتعلّموا ... . فقلنا له: الروم. فقال: ليس ذلك عندنا؛ بل لهم أبدان وثيقة، وهم أصحاب بناء وهندسة، لا يعرفون سواها ... . قلنا: فالصين. قال: أصحاب أثاث وصنعة؛ لا فكر لها ولا رويّة. قلنا: فالتّرك. قال: سِباع للهِراش. قلنا: فالهند. قال: أصحاب وَهْم ومخرقة وشعبذة وحيلة. قلنا: فالزّنج. قال: ... هاملة».

بعد هذه الإجابات، رددْنا الأمر إليه؛ فقال: العرب. وبدأ يُسوّغ رأيه بالشرح كيف أنّ العربَ، «رغم أنّهم أهل بلدٍ قَفْر، فقد احتاج كلّ واحد منهم في وَحدته إلى فكره ونظره

وعقله؛ ... كلّ واحد منهم يُصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته وفكرته. فلا يتعلمون ولا يتأدّبون؛ بل نَحائرُ (أي: العادات والطبائع) مؤدّبة، وعقولٌ عارفة. فلذلك قلت لكم: إنهم أعقل الأمم، لصحّة الفطرة واعتدال البنية وصواب الفِكر وذكاء الفهم».

وفي الليلة الخامسة والثلاثين، تساءل الوزير عن الفرق بين الإرادة والاختيار. فأجابه التوحيدي بأنّ «كلّ مرادٍ مُختار، ولكنْ ليس كلّ مختار مُراداً؛ لأنّ الإنسان يختار شرب الدواء الكريه وضرب الولد النجيب وهو لا يُريد، ويختار طرح متاعه في البحر إذا ألجئ وهو لا يريد ...». فقال الوزير: «فما الفرق بين المحبّة والشهوة؟» فكان الجواب: «إنّ الشهوة ألصقُ بالطّبيعة، والمحبّة أصْدر عن النفس الفاضلة؛ وهما انفعالان. إلا أنّ أحدَ الانفعاليْن أشدّ تأثّراً؛ هو انفعال الشهوة».

وعند سؤال الوزير: «ما النفس؟ وما كمالها؟ وما الروح؟ وما صفته؟ وما منفعته؟ وما العقل؟ وهل يعقل العقل؟ وهل تتنفس النفس؟ «يبدأ التوحيدي باستخلاص آراء الآخرين. فيستعرض تعريفات الفلاسفة والمفكّرين. فمنهم من قال: «إن النفس مِزاجُ الأركان»؛ فيما قال آخر: «النفس عَرَضٌ مُحرّكٌ بذاته»، وآخر: «النفس تمامٌ لجسم طبيعي ذي حياة»، وغيرها من التعريفات. أمّا إجابته عن السؤال: هل تبقى النفس؟ فيقول: «فكيف لا تبقى وهي مبسوطة، لا يدخل عليها ضِدّ، ولا يدبّ إليها فساد، ولا يصل إليها شيء منها بِلى. والإنسان إنّما يَبلى ويَفسد ويُخلق ويَبطل ويموت ويُفقد، لأنّه يفارق النفس؛ والنفس تُفارق ماذا حتّى تكونَ في حكم الإنسان بشكله؟».

•••

٣٨- الكتاب: البصائر والذخائر[١]

التوحيدي (أبو حيّان) (٣١٠ – ٤١٤ هـ / ٩٢٢ – ١٠٣٢ م)

هو أبو حيّان، عليّ بن محمّد بن العبّاس التوحيديّ البغداديّ، فيلسوف مسلم متصوّف، ولد في بغداد، وتوفّي في شيراز. يعود في أصله إلى شيراز بفارس؛ وقيل أيضـًا نيسابور. وربّما يكون سبب كنيته بالتوحيدي أنّ أباه كان يبيع نوعـًا من التمر العراقيّ يُطلق عليه التوحيد؛ أو لأنّه مُعتزل، حيث يُطلِق المعتزلة على أنفسهم لقب أهل العدل والتوحيد. ونرجّح الرأي الأخير. امتهن حرفة الوراقة وتتلمذ على أبي سعيد السيرافي عِلمَي النحو والصرْف، وعلى يحيى بن عَدي دروس الفلسفة، وغيرهما. له الكثير من المؤلّفات التي امتازت بتنوع المادة، وغزارة المحتوى من نوادر وحوادث تكشف عن الأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة في ذلك العصر. فإلى جانب كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، نذكر من مؤلّفاته: «البصائر والذخائر»، و«الصداقة والصديق»، و«أخلاق الوزيريْن»، و«الهوامل والشوامل»، و«المقابسات»، و«تقريظ الجاحظ»، و«الإشارات الإلهيّة».

جاء الكتاب في عشرة أجزاء، كما ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء. ومع أنّ التوحيدي عاش ورّاقـًا فقيراً، إلا أنّه يُعَدّ من الفلاسفة المهمّين والأدباء المعروفين، ومن المتصوّفة أيضـًا. وفي مصنّفه «البصائر والذخائر»، لا يسلك منهجـًا موضوعيّـًا جامعـًا؛ فقد جاءت المعلومات والمعارف والحِكم والأشعار، على ثرائها، محشودةً حشداً وراء بعضها بعضـًا. لكنْ، لهذا النهج فائدة كبيرة ومسليّة أيضـًا؛ حيث تشدّ هذه السمات انتباه القارئ وتزيد من تشوّقه للقراءة.

---

(١) أبو حيّان التوحيدي، البصائر والذخائر؛ تحقيق وداد القاضي، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، بلا تاريخ، في عشرة مجلّدات.

وضمن هذا الحشدِ الكبيرِ من المعلومات، هناك مسائلُ في التصوّف، والشعر، والحكمة، واللغة، والنوادر، والفكاهة، وغيرها. ويضمّ الكتاب ما يزيد على ٧٠٠٠ قطعةٍ أدبيّة، اختارها المؤلّف بعناية لإيصال فكرة معيّنة. ويُعتقد أنّه جمعها من خزانة أحد الأعلام المشهورين في عصره، كما كانت حال الورّاقين آنذاك.

اختلفت الآراء في شأن أهمّيّة التوحيدي: فمنهم من يذمّه؛ ومنهم من يرفع من شأنه. ومن أبرز المدافعين عنه والمادحين له: تاج الدين السبكي، ووالده تقيّ الدين السبكي، وابن النجّار. وأيّاً كانت الاعتراضات، فقد كان بارعاً في الكتابة: يختار الأخبار القصيرة، ويجتنب الطويلة منها حتّى لا يَملَّ القارئ. كذلك، نَشد الحكمة والفصاحة، مع مزجهما ببعض المزاح والهزْل.

وكان فيلسوفاً؛ فعالج مسائلَ مثلَ عَلاقة الإنسان بالله. وتساءل عن حدود المعرفة، وسبب تنوّع الأفكار والمعتقدات البشريّة. وكان يستند إلى القاضي أبي حامد في كلّ ما أراد قوله من أفكار تتجاوز المألوف. وقد أثبت ابنُ تيميّة لأبي حيّان اشتغالَه بالفلسفة؛ لكنّه لم يجزمْ له بالزندقة. قال:

«فإنَّ أبا حيّان تغلب عليه الخطابة والفصاحة، وهو مركّب من فنون أدبيّة وفلسفيّة وكلاميّة، وغير ذلك؛ وإنْ كان قد شهد عليه بالزندقة غيْرُ واحد وقرنوه بابن الراوندي، كما ذكر ذلك ابنُ عقيل وغيرُه» (العقيدة الأصفهانيّة).

ومن أبرز القادحين في التوحيدي : ابن الجوزي، وابن بابي، والذهبي. قال عنه الإمام الذهبي: «أبو حيّان التوحيدي ، الضالّ المُلحد؛ أبو حيّان، عليّ بن محمّد بن العبّاس البغداديّ الصوفيّ، صاحبُ التصانيف الأدبيّة والفلسفيّة...». وقيل إنّه كان من أعيان الشافعيّة .

وقال ابن بابي في كتاب «الخريدة والفريدة»: «كان أبو حيّان هذا كذّاباً ، قليلَ الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان؛ تعرّض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل ...».. فيما قال أبو الفرج بن الجوزي: « زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن

الراوندي، وأبو حيّان التوحيدي، وأبو العلاء المعرّي. وأشدّهم على الإسلام: أبو حيّان...».

وإذا حاولنا أنْ نُعرّفَ القارئ على أسلوبه في الكتابة، ونوْعيّة الاقتباسات والأمثلة التي استخدمها، فيُمكن أن نسوقَ أوّلاً قوْله الآتي: «العقل وزيرٌ ناصح، والهوى وكيلٌ فاضح». وفي موضع آخر، يتحدّث على لسان أعرابيّ، قائلاً: «لا تقلْ ما لا تعلم، فتُتّهم فيما تعلم»؛ أو على لسان أحد الفلاسفة: «أعلمُ الناس بالدهر أقلُّهم تعجُّباً من أحداثه».

وعن الشاعر يعقوب الحمدوني، استعار هذا البيت:

وقد يُرْجَى لجرْحِ السيف بُرءٌ

ولا بُرْءٌ لما جَرح اللِسانُ

وقوله في الإيجاز: «الإيجازُ إقلالٌ بلا إخلالٍ. ... اجعَلْ سرَّكَ إلى واحدٍ، ومشورتَك إلى ألفٍ».

وفي عزة النفس، قوله:

«لَأَنْ تستغنيَ عن الشيء فتُكفاه، خيرٌ مِن أنْ تسأَلَه فتُعطاه».

فالكتاب، إذن، موسوعة في الآراء الفلسفيّة والحِكم والنصائح والأدب، وتستحقّ القراءة أيّما استحقاق.

•••

٣٩- الكتاب: المقابسات[١]

التوحيدي (أبو حيّان) (٣١٠ – ٤١٤ هـ / ٩٢٢ – ١٠٣٢ م)

هو أبو حيّان، عليّ بن محمّد بن العبّاس التوحيديّ البغداديّ، فيلسوف مسلم متصوّف، ولد في بغداد، وتوفّي في شيراز. يعود في أصله إلى شيراز بفارس؛ وقيل أيضـًا نيسابور. وربّما يكون سبب كنيته بالتوحيدي أنّ أباه كان يبيع نوعـًا من التمر العراقيّ يُطلق عليه التوحيد؛ أو لأنّه مُعتزل، حيث يُطلِق المعتزلة على أنفسهم لقب أهل العدل والتوحيد. ونرجّح الرأي الأخير. امتهن حرفة الوراقة وتتلمذ على أبي سعيد السيرافي عِلمَي النحو والصرْف، وعلى يحيى بن عَدي دروس الفلسفة، وغيرهما. له الكثير من المؤلّفات التي امتازت بتنوع المادة، وغزارة المحتوى من نوادر وحوادث تكشف عن الأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة في ذلك العصر. فإلى جانب كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، نذكر من مؤلّفاته: «البصائر والذخائر»، و«الصداقة والصديق»، و«أخلاق الوزيرَيْن»، و«الهوامل والشوامل»، و«المقابسات»، و«تقريظ الجاحظ»، و«الإشارات الإلهيّة».

يُعَدّ «المقابسات» أحدَ أهمّ كتب أبي حيّان التوحيدي؛ من حيث إنّه أقربُ إلى النهج الفلسفيّ المُتخصّص في حقبةٍ زاهرة من الحضارة العربيّة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ. ومصطلح «المقابسات» مشتقّ من قَبَس قَبسـًا. ومعنى «المقابسات» أن يشترك اثنان أو أكثر في محاورة؛ بحيث يَقبس الواحد العلم والمعرفة من الآخر، ويُقدّم له ما عنده. ويحتوي الكتاب على مئة وستّ مقابسات، يبدأها بمقابسة تحت

---

(١) أبو حيّان التوحيدي، المقابسات (www.Al-Mostafa.com)؛ تمّت زيارة الموقع بتاريخ ٦/ ٥/ ٢٠٢٠.

عنوان: «تطهير النفس وتجريدها من الشوائبِ البدنيّة. وينتهي بمقابسة: «في الصديق وحقيقة الصداقة وفلسفة العِشق والحُبّ، وفي تعريفات فلسفيّة صالحة».

جاءت المقابساتُ الأولى في موضوع الأخلاق والفضائل. وفيها حوارات على شاكلة الحوار الأفلاطونيّ في حواريّة مينو Meno، التي تمتاز بقدرة المحاور على تحفيز الطالب لاستخلاص المعرفة الأكثر دقّةً بنفسه. وتليها مُقابسات في السببيّة، وحرّيّة الاختيار، ونسبيّة المعارف والحقائق؛ وحوارات حول اختلاف مذاهب الناس وآرائهم ونِحلهم. ويُفسّر هذا الاختلاف بقوله في المقابسة الحادية عشرة:

« ... فاختلاف الصور إنما ينشأ من اختلاف الموادّ؛ وهذا أصل لا أصل فيه، وعلّة لا علّة لها، لأنّه لم يفعله فاعل على ذلك؛ بل صورة من شأنها هذا، والمادّة من شأنها ذلك. والأمر مسبّب على سُنن ما ترى. فعلى هذا، كلّ أحد ينتحل ما شاكله مزاجه، ونبض عليه عِرقُه، ونزع إليه شوطُه، وعجن به طينُه، وجرى بعد ذلك على دأبه وديْدنه».

وتذهب المقابسة الحادية عشرة إلى اعتناق فكرة السببيّة في الطبيعة، وإظهار أثر البيئة والطبيعة معاً في صياغة الظواهر الملاحظة عيانيّاً.

وتستمرّ المُقابسات والحوارات الساخنة والذكيّة حول مفاهيمَ متعدّدة، كالحركة والسكون، والتساؤل في أيّهما أقدم! كذلك، يُقيم حواراً حول المكانِ والزمان، والصوتِ والسماع، والغناءِ وأثرِه في النفس. كما يصل بالاستدلال المنطقيّ إلى أنّ النظر في حال النفس بعد الموت مبنيّ على الظنّ والوهْم؛ ويُخصّص له فصلاً مستقلاً.

ويُقيم حواراً حول ما بعد الموت، من خلال مناقشة أفكار الفيلسوفِ المجوسيّ ماني؛ تليهِ حوارات حول المعقولِ والمحسوس، وعِلّةِ المحسوساتِ والمعقولات (الفاعل الأوّل). ويطرح تساؤلات مُتّصلة بالميتافيزيقا؛ كقوله:

«وفي عجيب شأن أهل الجنّة، وكيف لا يملّون النعيم والأكل إلى آخره ... أما تَضيق صدورُهم؟ أما يأنفون؟ أما يَضجرون؟ ...».

ويُناقش الكتابُ مسائلَ في العلوم الطبيعيّة: كأثر القمر على المَدّ والجزْر، وعلّة اختلاف الرأي في المسائل العلميّة، خاصّة في الفيزياء؛ كقوله: «في أنّ البياضَ ينشرُ البصر، والسوادَ يجمعُه»؛ بمعنى أنّ الجسم الأسود يمتصّ الضوْء. ويناقش فكرة الوسَط الذي ينتقل فيه الضوْء، ومسألة الخلاء (الفراغ) الإشكاليّة، مادّيًّا وفلسفيًّا، وفضيلة العقل، وطبيعة النفس البشريّة، وفي أنّ النفسَ لا تقومُ بذاتها.

كذلك، يُناقش مسألةَ إمكانيّة المعرفة «بالخاطرِ والإلهام»؛ وهي قضايا فلسفيّة. وتنتهي المحاورات بحِكم فلسفيّة وتعريفات مَنطقيّة؛ كالتساؤل: ما الكوْن؟ ما الفساد؟ ما الباطل؟ ما الشرّ؟ ما الحقيقة؟ ما المعرفة؟ ما اليقين؟ ما الحِسّ؟ ما الرطوبة؟ ما الشجاعة؟ وغيرها الكثير من التساؤلات الفلسفيّة الهادفة إلى تحسين نوعيّة المعرفة، وجعل المرء يُدرك نسبيّة الحقائق ومشروعيّة الاختلاف على الصعيديْن الوجوديّ والمعرفيّ.

•••

٤٠ - الكتاب: تجارب الأمم وتعاقب الهمم[١]

ابن مِسْكَوَيْه (٣٢٠ – ٤٢١ هـ / ٩٣٢ – ١٠٣٠ م)

هو أبو علي، أحمد بن محمّد بن يعقوب مِسْكَوَيْه، الملقّب بابن مسكويه. مؤرّخ يعود في أصوله إلى مدينة الريّ. سكن أصفهان، وتوفّي فيها. كان متنوّعَ المواهب؛ فقد اشتغل بالكيمياء والمنطق والفلسفة، وولع بالتاريخ والإنشاء والأدب. كما صُنّف من أوائل العلماء المسلمين ممّن كتبوا في علم الأخلاق بالمفهوم الفلسفيّ، من خلال كتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»؛ لذلك، لقّبه البعض بالمعلّم الثالث. درس على الطبري وابن الخمّار، وغيرهما. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: «الفوْز الأكبر»، و«الفوْز الأصغر»، وهما كتابان في الأخلاق، و«تجارب الأمم»، و«أنس الفريد»، في الأخبار والأشعار والحِكم والأمثال، و«ترتيب العادات»، في السياسة والأخلاق، و«المستوفي»، و«الجامع»، و«السيَر»، و«الأدوية المفردة»، و«كتاب في الطبّ»، و«تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»، و«الأشربة»، و«في تركيب الباجات من الأطعمة»، و«في اللذات والآلام في جوهر النفس»، و«أجوبة وأسئلة في النفس والعقل»، و«الجواب في المسائل الثلاث»، و«طهارة النفس».

اشتغل ابن مِسْكَوَيْه بالفلسفة والكيمياء والمنطق والتاريخ والأدب والإنشاء، وولع بالتاريخ تحديداً. قال أبو حيّان التوحيدي في جملة وصف ابن مِسْكَوَيْه: «لطيف الألفاظ، سهل المأخذ، مشهور المعاني، شديد التوقّي، ضعيف الترقّي، يتطاول جهده

(١) أحمد بن محمّد بن يعقوب مِسْكَوَيْه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم؛ تحقيق سيّد قصروي حسن، بيروت: دار الكتب العلميّة، ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، في جُزأيْن.

ثم يقصر، ... وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء». ولكنّه غفل عن مدحه لنقده المنهجي الرفيع لأعمال الآخرين، وخاصّة فيما يتعلّق بالخرافات السائدة.

سعى ابن مِسْكَوَيْه في كتابه هذا إلى الوقوف على المبدأ أو القانون الذي يَحكم التاريخ، كما فعل ابن خلدون في علم الاجتماع؛ حيث أخضع روايات المؤرّخين للنقد الصارم. واعترض على أنّ الهدفَ من رواية التاريخ هو التسلية فقط؛ وإنّما أوّلاً لمعرفة أسباب العمران، والظروف التي تؤدّي إلى زوال الأمم. يقول ابن مِسْكَوَيْه في مقدّمة كتابه:

«ووجدْتُ هذا النمطَ من الأخبار مغموراً بالأخبار التي تَجري مجرى الأسمارِ والخُرافات التي لا فائدة فيها غير استجلابِ النوم بها، والاستمتاعِ بأنس المستطرَف منها؛ حتّى ضاع بيّنُها، وتبدّد في أثنائها. فبطَل الانتفاع به، ولِمْ يتّصَل لسامعه وقارئه اتّصالاً يربط بعضه بعضـاً؛ بل تنسى النكتة منها قبل أنْ تجئ أُختها، وتتفلّت من الذهن قبل أنْ تُقيّدها نظيرتها، ويشتغل الفكر بسياقة خبرها دون تحصيلِ فائدتها. فلذلك، جمعْتُ هذا الكتاب وسميّتُه تجارب الأمم».

أرّخ ابن مِسْكَوَيْه في «تجارب الأمم» للأحداث التاريخيّة، بدءاً من سنة ١٠٤ للهجرة حتّى نهاية ٢٩٤ للهجرة؛ وذلك وَفقـاً للطبعة الأولى الصادرة في طهران بمجلّدَيْن عام ١٩٨٧ للميلاد. وصدرتْ بعدَها الطبعة المصريّة في ثلاثة مجلّدات، وتشتمل على حوادث سنة ٢٩٥ للهجرة، حتّى سنة ٣٦٩ للهجرة؛ وهو آخر ما كتبه ابن مِسْكَوَيْه. فأضيف إليه «ذيل تجارب الأمم» لظهير الدين أبي شجاع الروذراوري، الذي اشتمل على الحوادث الممتدة من سنة ٣٦٩ للهجرة، حتّى نهاية سنة ٣٨٩ للهجرة. ثم أضاف أبو الحسين هلال الصّابي ما غَطّى أحداث سنة ٣٨٩ للهجرة، حتّى سنة ٣٩٣ للهجرة.

يبدأ المؤلّف بتأريخ الحضارة الفارسيّة، انطلاقـاً من الفيشداذيَّة. ويُفسّر معناها بأنّ لقب «فيشداذ» يقابله بالعربيّة: «أوّلُ سِيرة العدل». ويعود تاريخ ملكهم الأوّل «أُوشْهَنج» إلى ما بعد الطّوفان بمئتَيْ سنة. ويستمرّ في الحديث عن السلالات الملكيّة الفارسيّة، وفي ذهنه فكرة العدل وإدارة شؤون الرعيّة. كما يذكر تفصيلات حروبهم

مع الترك، ويشرح بالتفصيل أحداث ذلك الزمان ويُعلّق عليها، ويُسندُها إلى أقوال أصحابها بطريقة منهجيّة لافتة.

ثمّ يتحدّث الكتاب عن ملوك اليمن والعراق والإسكندر المقدوني. وقد اهتم بالمقدوني وما كان يُقال عنه وعن حيله، وعَلاقته بأرسطو وملك الصين. ويذكر أسباب طمع العرب في أطراف الفرس. ويؤرّخ للدولة الساسانيّة حتّى صدر الإسلام، وما بعده.

وفي ذكر أسباب طمع العرب في أطراف الفرس، يَروي ابن مِسْكَوَيْه قصّة تاريخيّة تبدأ من الملك بُختَنصرر الذي أنزل جماعة من العرب في الحيرة، انتقلوا بعد موته إلى الأنبار. فتكاثروا، وانقسموا إلى قبائل، وحدثت بينهم أحداث وحروب؛ ثمّ تفرّقوا: فمنهم من اتّجه صوْب بلاد اليمن، وبعضهم إلى مشارف بلاد الشام، وجُزء آخر اتّجه شرقـًا حتّى نزل بلاد البحرين. وكان فيها جماعة من الأزد؛ فتعاقدوا على التآزر، وصار اسمهم «تنوخ». ولمّا كانت فارس قد انقسمت إلى ملوك طوائف إثر غزو الإسكندر المقدوني، وجدت تنوخ الفرصة سانحة لتتطلّع إلى الأراضي الفارسيّة بعيون الغزاة. وهكذا، يُلاحظ من طريقة روايته ومنهجه التفسير المادّيّ لتاريخ القبائل وارتحالها إلى تلك المناطق.

ويَنتهي الجُزء الأوّل من الكتاب بالحديث عن الدُّهاة الخمس؛ وهم: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل. ويُختتم الكتاب بما قاله الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب في خُطبته بعد الصلح، وقبل أنْ يُغادرَ الكوفة إلى المدينة:

«يا أهلَ العراق! إنّه سَخي بنفسي عنكم ثلاث: قتلتم أبي، وطعنتم إياي، وانتهابكم متاعي».

وفي تهذيب تاريخ دمشق: جاءت هكذا:

«إنّي أضنّ عليكم بنفسي، قتلتم أبي، وطعنتموني، وانتهبتم متاعي».

•••

٤١- الكتاب: رسالة التوابع والزوابع[1]

ابن شهيد الأندلسيّ (٣٨٢ – ٤٢٦ هـ / ٩٩٢ – ١٠٣٥ م)

هو أبو عامر، أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمّد بن عيسى بن شهيد الأشجعي. وزير وشاعر أندلسيّ، وُلد في قرطبة لأسرة مرموقة؛ فجَدّه الأوّل، شهيد بن عيسى، كان أوّلَ الداخلين إلى الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، وأبوه عبد الملك من وزراء الخليفة هشام المؤيّد بالله، وجَدّه أحمد بن عبد الملك من قادة الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، ومن وزرائه، وكان أوّلَ مَنْ تسمّى بذي الوزارتيْن في الأندلس قاطبة. عُرف ببلاغته وشعره الذي امتاز بدمج الجد والهزل معـًا؛ وقد أشاد ابن حَزم ببلاغته، وله نصيب وافر من العلوم الطبّيّة. أمّا ابن خاقان، فأثنى على قدرته الإبداعيّة في طريقة تناول الموضوع وعرْضه. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: «كشف الدك وإيضاح الشك»، و«حانوت عطّار»، و«رسالة التوابع والزوابع»، وغيرها. مات بقرطبة.

يَستثمرُ ابن شهيد روايةَ «التوابع والزوابع»، التي اصطنعها من خياله، في إقامة حوارات بينه وبين الشعراء المعروفين الممتدّين من الجاهليّة حتّى عصره، وذلك لإبراز مواهبه وفنونه ومهارته الشعريّة؛ خاصّة في ضوء النقد الذي كان يُوجّه له بقسوة. ولتحقيق ذلك في مخيّلته، طلب من صاحبه التابع (واسمه زهير)، وهو الجِنّ الذي يتبعُه، أنْ يَصطحبَه لمحاورة الشعراء القدماء في أرض الجِنّ. فذهب زهير لاستئذان شيخه، فطار؛ ثمّ عاد وقد أذنَ له. فركبا معـًا جواداً، وطار بهما حتّى وصلا إلى أرض الجِن. وعندها طاف به زهير على صاحب امرؤ القيس، وصاحب طرفة بن العبد،

---

(١) ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع؛ تحقيق بطرس البستاني، بيروت: مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٥١.

وصاحب قيس بن الخطيم، من شعراء الجاهليّة. وطاف به أيضاً على صاحب أبي تمّام، والبُحتري، وأبي نُواس، وأبي الطيّب، من الشعراء الإسلاميّين. فأخذ يسمع لهذه التوابع، ويَنشد لهم لاستعراض أشعاره؛ فاستطاع في النهاية أنْ ينالَ إعجابَهم.

ويَحضر ابن شهيد مجلسَ أدب من مجالس الجِنّ، يدور الحديثُ فيه حول الموازَنة بيْن الشعراء، وأنماط تعبير شعراء مختلِفين عن معنىً واحد، وَفْق الطريقة الخاصّة بكلّ منهم. كذلك، يبدأ الحديث عن السرقات الأدبيّة وعن البراعة الممكنة لتغطية أمر السرقة دون أنْ ينكشفَ صاحبها، باعتبارها موهبةً وليست رذيلة!

كما قابل ابنُ شهيد توابعَ بعض الخطباء (الكُتّاب)؛ كتابع الجاحظ، وتابع صاحب عبد الحميد. فقام تابع الجاحظ بالشهادة لابن شهيد ببراعته؛ لكنّه أخذ عليه اهتمامَه بالسّجع. وهنا يهبّ ابنُ شهيد للدفاع عن نفسه؛ الأمر الذي دفع تابع عبد الحميد إلى التدخّل في الحوار، مُتّهماً ابنَ شهيد بالتّهمةِ نفسها، أي المبالغة في السّجع.

لكنّ الأمرَ لا يَنتهي هنا؛ حيث يتصدّى له ابنُ شهيد على نحوٍ يُرضي التابعين. ويُصرّح بعد ذلك علانيّة بتفوّقه على حُسّاده من الأندلسيّين الذين كان بعضُهم من اللغويّين، ممّن أكثروا من نقد أعماله؛ مثل أبي القاسم الإفليلي، الذي كان لغويّاً ومن أكثر من هاجم أعماله. وقد استدعى ابنُ شهيد تابعَ الإفليلي الذي تعرّض له بالنقد والتجريح، وردّ عليه بحزم وبلاغة وإسناد. فأدّى ذلك إلى إبطال كلّ أقواله بحُججٍ دامغة، كما تقول الرواية.

كذلك، عارض ابنُ شهيد صاحبَ بديع الزمان الهمذاني في شأن قطعةٍ نثريّةٍ له في وصف شيء ما، وكانت معارضته مُفحِمة على نحو دعت صاحبَي الجاحظ وعبد الحميد للإقرار بتفوّقه.

وهكذا، يتبيّن لنا أنّ «التوابع والزوابع» هي رواية حوارٍ مُتخيّلٍ بيْن ابن شهيد الأندلسيّ وشعراء الجاهليّة والإسلام وأدبائهم، أفضى في النهاية إلى اعتراف هؤلاء ببراعته الأدبيّة. كانت الرواية سبيلاً له في الدفاع عن نفسه ضدّ نُقّادِ ذلك العصر، الذين

تعرّضوا له بالتجريحِ والتقليلِ من شأن أشعاره. فقد وضع نفسه حكَماً بين الشعراء، كما جاء في رواية «أرَض حيوانِ الجِنّ» التي زارها في مُخيّلته، وشرح كيف قام بالتحكيم بيْن نَصّيْن لشاعريْن غزليّيْن، وكيف حققّ مع الشاعريْن، وطرح عليهما أسئلة، وقيّم أعمالهما؛ ومن ثمّ قضى بما رأى من حُكم.

وفي النهاية يُبرز ابنُ شهيد ترفّعَه عن التهم المنسوبة إليه؛ لأنّ تلك المزاعمَ لا تستحقّ الحوارَ حولها مع مُدّعيها، «لسخفِ أفكارِه وحماقتِه»، كما يقول. وبهذا الترفّع عن ردّ النقد، أي نقد النقد، تنتهي رسالتُه.

مُلاحظة أخيرة: ألّف أبو العلاء المعرّي «رسالة الغفران» سنة ٤٣١ للهجرة / ١٠٤٠ للميلاد (انظر الملخّص رقم ٤٤)؛ أي بعد وفاة ابن شهيد ببضع سنوات. فهل تأثّر برسالة نظيره الأندلسيّ؟ أم هل تأثّر كلا الشاعريْن بكتاب ألف ليلة وليلة؛ وتحديداً «حكاية بالوقيا» في الليلة ٤٨٦؟ (انظر المُلخّص رقم ١).

•••

٤٢- الكتاب: فقه اللغة وسر العربيّة[١]

الثعالبي (أبو منصور) (٣٥٠ – ٤٢٩ هـ / ٩٦١ – ١٠٣٨ م)

هو أبو منصور، عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثعالبيّ النيسابوريّ. والثعالبيّ لقب يُنسب إلى خياطة جلود الثعالب. كان من أئمّة اللغة والأدب، وإمامًا في اللغة العربيّة والأخبار. اشتغل بالأدب والتاريخ، ولُقّب بجاحظ زمانه. له الكثير من الأشعار والنثر، ومن الكتب والمصنّفات: «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها في تراجم شعراء عصره، و«فقه اللغة وسِرّ العربيّة»، و«سحر البلاغة وسِرّ البراعة»، و«مَنْ غاب عنهم المطرب»، و«مؤنس الوحيد»، و«المُبهج»، و«التمثيل والمحاضرة»، و«غُرر أخبار ملوك الفرس»، و«ما جرى بين المتنبي وسيف الدولة»، و«طبقات الملوك»، و«الإعجاز والإيجاز»، و«مكارم الأخلاق»، و«ثمار القلوب في المضاف والمنصوب»، و«تُحفة الوزراء»، و«يَواقيت المواقيت»، و«خاصّ الخاصّ».

تحت عنوان «في الشجاعة»، يضع الثعالبي أربع عشرة صفةً للشجاعة، كلّ منها يختلف عن الآخر في درجته أو مرتبته. فأدنى مرتبةٍ من مراتب الشجاعة أنْ نقول «رجل شجاع»، تليها كلمة بطل، وهي أعلى مرتبةً قليلاً، يليها الآتي: صمّت؛ بُهَمَة؛ ذَمِر؛ حِلْس وَحَلْبَس؛ أهْيَس؛ إلْيَس؛ نِكْل؛ نَهِيقم؛ مِحْرَب؛ غَشمشم؛ أيهم.

وفي تفصيل أحوال الشجاعة، فإذا كان الإنسان شديدَ القلب رابطَ الجأش، فهو زِبرّ؛ وإذا كان لزومـًا للقِرْن لا يُفارقه، فهو حَلْبَس؛ وإذا كان شديدَ القتال، فهو غَلِث؛ وإذا كان جريئـًا على الليل، فهو مِخْشَف ومِخَشّ؛ وإذا كان مِقدامـًا على الحرب عالمـًا

(١) أبو منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري، فقه اللغة وسِرّ العربيّة، بيروت: دار الكتب العلميّة، بلا طبعة، بلا تاريخ.

بأحوالها، فهو مِحْرَب؛ وإذا كان به عُبُوس الشجاعة والغضب، فهو باسل؛ وإذا كان لا ينحاش لشيء، فهو أيهم (صفة لليث).

وكذا الحال في الجوع، والعطش، والشهوات، وما إلى ذلك. ففي ترتيب الجوع، على سبيل المثال، أوّل مراتب الحاجة للطعام هو الجوع؛ يليه السّغَب، فالْغرَث، فالطّوى، فالضّرَم، وأخيراً السُّعار، وهو أعلى مرتبة من مراتب الجوع.

هذا البحر الواسع، من مفردات تفصيل أحوال الأشياء ووضع مراتبَ للصفات، جاء في ثلاثين بابًا. وفي كلّ باب، فصول شتّى لا يمكن ذكر جميعها هنا؛ لكنّها تشمَل كلّ ما يخطر ببال الإنسان من مفردات مرتبطة بالبشر، والحيوان، والنبات، والشجر، وطبقات الناس، وأنواع الآلات، وأوائل الأشياء وأواخرها، وصغار الأشياء وكبارها وعظامها وضخامها، والشدّة والشديد من الأشياء. أضف إلى ذلك تفصيل ما يُوْصف بالشدّة، والقلّة والكثرة، وسائر الأحوال والأوصاف المتضادّة، كالسَّعة والضيق، والقديم والحديث، والحَسن والقبيح، والسمن والهزال، والغِنى والفقر، والشجاعة والجبن، والامتلاء والخلاء، والبياض والسواد، ومراتب كلِّ هذه الأشياء وغيرها وصفاتها.

كذلك، يُخصّص فصولاً كثيرة في أعضاء الإنسان وأطرافه، كتقسيم الشَّعر والرؤوس والحاجب والعين، والحديث عن محاسنها ومعايبها؛ وفي وصف الأُذن، وترتيب الصمم؛ ووصف العنق، وتقسيم الصدور والأظفار والعروق والفروق والجلد. ويُخصّص بابًا للأمراض، ووصْف أوجاع الأعضاء وأدويتها، وأوجاع الحلْق ومراتبه، والأورام والبثور والقروح والبَرص والحميات والجروح؛ وصولاً إلى تفصيل أحوال الموت والقتل وأحوال القتيل.

وثمّة أبواب مُخصّصة للباس، والسلاح، والآلات، والأطعمة، والأشربة. ويتحدّث عن الآثار العلويّة، وما يتلو الأمطار والرياح من ذكر المياه وأماكنها؛ فيضع مصطلحات في تفصيل السحاب والمطر، وترتيب شدّة الأمطار وصوت الرعد والبرق والمطر؛

وفي الأرض والرمال والجبال؛ وفي النبت والزرع والنخل. ويُقيم موازنة بين العربيّة والفارسيّة من حيث تشابهُ الكلمات واختلافُها وندرتُها في العربيّة والفارسيّة.

وأخيراً، يضع ملاحقَ من كتاب « كفاية المتحفّظ» حول ما نحتاج معرفته من خُلق الإنسان والحرب والسلاح. ويُخصّص باباً للطير، وآخرَ للنحل والجراد والهوام وصغار الدواب، وثالثاً في الآلات وما شاكلها. كما يضع مُلحقاً من كتاب «الجراثيم» لعبد الله بن مسلم، وفيه أبواب كثيرة؛ منها في أصوات الناس وحركاتهم، والبرد، والظلمة، والرياح، والشجر، والنبات، ومتى يبدأ النبات تَورّقه، ونحو ذلك.

•••

٤٣- الكتاب: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر[١]

الثعالبي (أبو منصور) (٣٥٠ – ٤٢٩ هـ / ٩٦١ – ١٠٣٨م)

هو أبو منصور، عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثعالبيّ النيسابوريّ. والثعالبيّ لقب يُنسب إلى خياطة جلود الثعالب. كان من أئمّة اللغة والأدب، وإماماً في اللغة العربيّة والأخبار. اشتغل بالأدب والتاريخ، ولُقّب بجاحظ زمانه. له الكثير من الأشعار والنثر، ومن الكتب والمصنّفات: «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها في تراجم شعراء عصره، و«فقه اللغة وسِرّ العربيّة»، و«سحر البلاغة وسِرّ البراعة»، و«مَنْ غاب عنهم المطرب»، و«مؤنس الوحيد»، و«المُبهج»، و«التمثيل والمحاضرة»، و«غُرر أخبار ملوك الفرس»، و«ما جرى بين المتنبي وسيف الدولة»، و«طبقات الملوك»، و«الإعجاز والإيجاز»، و«مكارم الأخلاق»، و«ثمار القلوب في المضاف والمنصوب»، و«تُحفة الوزراء»، و«يَواقيت المواقيت»، و«خاصّ الخاصّ».

من مقولات أبي منصور الثعالبي في عشق العربيّة: «من أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربيّة ... ومن أحب العربيّة عُني بها ... والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربيّة خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهّمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء والزند للنار».

---

(١) أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر؛ شرح وتحقيق مفيد محمّد قميحَة، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، في خمسة مجلّدات.

يُعَدّ كتاب «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» أكثر مؤلّفات الثعالبي شهرة وتداولاً. ويُقدّم فيه ترجمات وافية للكثير من الشعراء المعاصرين له والسابقين لزمانه. وتختلف هذه الترجمات عن تلك التي وُضعت في كتب الطبقات؛ لأنّه يجمع كل فئة من الشعراء وَفق بلدانهم أو أقاليمهم أو البلاط الذي انتموا إليه. وهكذا، جمع شعراء الشام معًا، ولملم شعراء مصر معًا من حيث الإقليم؛ كذلك فعل مع شعراء بني بويه في بغداد وأصفهان، ومع شعراء دولة بني حمدان، وبلاط سيف الدولة في حلب.

قسّم الثعالبي كتابه أربعة أقسام، ثم أضاف إليه قسماً خامساً بعد مدّة، وأضاف إلى الأقسام السابقة تتمّات تضمّنت أبواباً ثلاثة، هي: «تتمة القسم الأوّل في محاسن أهل الشام والجزيرة»، و«تتمة القسم الثاني في محاسن أشعار أهل العراق»، و«تتمة القسم الثالث في محاسن أهل الري وهمذان وأصفهان وساير بلاد الجبل». وفي هذه الأقسام، يُترجم لشعراء كُثُر يبدو أنّهم لم يحظوْا بالشهرة الواسعة، كالذين ترجم لهم في الأقسام الأربعة السابقة. لذلك، سعى إلى إلحاقهم في تتمّات الكتاب، كي يتمكّن القارئ من الوقوف على نماذج من أشعارهم.

ممّا يُميّز كتاب الثعالبي هذا أنّه أضاف آراءه النقديّة والتفسيرات الأدبيّة، التي تُعبّر عن ذوق أدبيّ رفيع، إلى الترجمات بوجه عام. فلم يَقصرْها على الاستشهاد بالنصوص الشعريّة، مثلاً، أو مجرد الاكتفاء بالترجمة النثريّة؛ فضلاً عن أنّه سعى إلى عقد المقارنات والموازنات بين تراجم الشعراء. وذلك يكشف عن براعته في إدراك فن الشعر ومعانيه. كما كان ناقداً لبعض الأشعار من حيث رداءة التشابيه وعدم اختيار المعنى بدقّة.

وتتجلّى براعة الثعالبي في تتبّع سرقات الشعراء، كما فعل مع الشاعر الموصلي «السريّ الرّفاء»، إذ أشار إلى نوع السرقة وكفاءة السارق في السرقة؛ بمعنى: هل استطاع الشاعر في سرقته أن يتفوّق على من سبقه؟ لذلك، نجده يقول معلّقًا على بيت لأبي الحسن علي بن هارون بن منجم: «ولقد أحسن السرقة وجَوّد اللفظ وزاد في المعنى».

إذن، كان الثعالبي راضياً عن التحسين في جودة الشعر المسروق؛ بل ربّما عدّه نوعاً من الإبداع!

وبالرغم من إعجابه الشديد بالمتنبي، فقد ذكر بعض هفواته. وتحديداً، أخذ عليه «إتْباع الفقرة الغرّاء بالكلمة العوراء والإفصاح بذلك في شعره عن كثرة التفاوت وقلّة التناسب، وتنافر الأطراف وتخالُف الأبيات. وما أكثر ما يحوم حول هذه الطريقة ويعود لهذه العادة السيّئة، ويجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط، ...». فواضح أنّ غاية كتاب الثعالبي هذا هي خدمة اللغة العربيّة، لغة القرآن الكريم، من خلال الشعر البديع الذي حفظ اللغة العربيّة عبر الأزمان.

ويعتقد الثعالبي أنّ أشعار الإسلاميّين باتت أكثر رقّة من أشعار الجاهليّين والمخضرمين؛ فيما غدت أشعار معاصريه «أنظم للطائف البدائع، وأجمع لنوادر المحاسن، وأبلغ في درجات الجودة والظرف»، إذ «كادت تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز، ومن حدّ الشعر إلى السحر، فكأن الزمان ادّخر لنا من نتائج البراعة وأوفرها نصيباً من كمال الصّنعة ورونق الطّلاوة».

•••

٤٤- الكتاب: رسالة الغفران[١]

المعرّي (أبو العلاء) (٣٦٣ – ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ – ١٠٥٧ م)

هو أبو العلاء، أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعيّ التنّوخيّ المعرّي. ولد في معرّة النعمان الواقعة شماليّ سورية، بين مدينتي حمص وحلب. أصيب بالجدري مُبكّراً؛ ففقد بصره واعتزل الناس. لذلك، أطلق عليه «رهين المحبسين»(سجين العمى، واعتزال الناس). عاش حياة بسيطة فيها تقشّف وزهد، ورفض أكل لحم الحيوان. ترك الكثير من الأشعار والأعمال الأدبيّة فلسفيّة الرؤى. أهم كتبه: «سقط الزند» في الشعر، و«اللزوميات» في الأدب والفلسفة، و«ديوان الدرعيّات»، وكتاب «فقرات وفترات» أو «الفصول والغايات» في الوعظ بأسلوب شعريّ، و«تاج الحُرّة» في النساء، و«رسالة الغفران»، و«رسالة الملائكة»، و«ملقى السبيل»، وغيرها. وله كتب مفقودة؛ من أهمّها: كتاب «الأيك والغصون» الذي تجاوزت أجزاؤة المئة.

تركت هذه الرسالة الشهيرة أثراً عميقاً في الأدب العالمي؛ خاصّة في ملحمة «الكوميديا الإلهيّة» للشاعر الإيطاليّ دانتي. وجاءت ردّاً على رسالة ابن القارح (علي بن منصور الحلبي) الذي ولد في حلب سنة ٣٥١ للهجرة، ووجّه لأبي العلاء فيها أسئلة فقهيّة. فردّ عليها المعرّي بهذه الرسالة، طالباً منه أنْ يرى بنفسه كيف تجري الأحكام الإلهيّة في الآخرة. كذلك، جاءت هذه الرسالة ملازمة لفكرةَ البعث (أي الحياة بعد الموت) في فكر أبي العلاء، التي أرّقته طويلاً. وما فتىء يُناقشها إلى أنْ أنضجها في لزوميّاته، وعبّر عنها بوضوح في «رسالة الغفران»؛ وموضوعها حوارات مع الذين فازوا بالمغفرة، وتساؤلات لماذا حُرم منها آخرون في الآخرة.

---

(١) أبو العلاء المعرّي، رسالة الغفران، مصر: دار المعارف، بلا طبعة، بلا تاريخ.

لجأ أبو العلاء إلى الخيال للخوْض في تجربة شخصيّة للتعرّف إلى الجنّة والنار وأهلها. فيستخدم مخيّلته لزيارة الفردوس؛ حيث يكتشف بعض أسرارها العجيبة، وأنهارها الرائعة، وعسلها اللذيذ، وحياتها الكريمة الممتعة التي تغسل الحقد وتُعيد المحبّة والألفة إلى القلوب. ويدخل في حوارات مع شخصيّات تاريخيّة لامعة تتمحور حول السؤال: بمَ دخلت الجنّة؟ أو لماذا حُرمت من دخول الجنّة، مع أنّك قلت كذا وكذا؟ فمثلاً، وَجد الأعشى في الجنّة، وهو من شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام، ولم يُسلم؛ فمع أنّه مات على جاهليّة، لكنّه دخل الجنّة، لأنه آمن بالله والحساب والبعث.

ويحاور أبو العلاء في الجنّة الشاعر الحطيئة، ويسأله: بمَ وصلت إلى الشفاعة؟ فيجيبه: بالصدق في أشعاري؛ لأنّه وصف نفسه بصدق على أنّه قبيح المنظر، بقوله: «أرى لي وجها قبّح الله خلقه». ويزور أبو العلاء في مخيّلته الجحيم؛ فيرى على أطراف الجنّة الخنساء تهمّ بزيارة ابنها صخر في النار: «فتراه كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه». كذلك، يرى إبليس يضطرب في الأغلال والقيود والسلاسل؛ ويتحدّث إلى بشّار بن بُرد وامرؤ القيس وعنترة العبسي وعمرو بن كلثوم والأخطل وطرفة بن العبد، وغيرهم، من الذين بات الجحيم مثواهم الأبديّ. ويعود إلى الفردوْس مرّة أخرى ليتحاورَ مع آدم وغيره من سكّانها.

يُدرك القارئ عند الشروع في قراءة رسالة الغفران أنّ أبا العلاء «أكثر من غريب اللغة، وأطال في سرد عبارات غامضة، أو ضرْب أمثال شاردة ...»، كما قال محمّد فريد وجدي. فيجد الدارس المعاصر صعوبة في فَهم الكثير من الكلمات. وهو ليس أمراً غريباً؛ لأنّ لكل عصر مفرداته ومعانيها الخاصّة، ضمن الإطار المفهوميّ الخاصّ به في الزمان والمكان.

لكنّ الحواراتِ في عموميّتها تتجاوز ما هو مألوف، وتقتحم ما هو مجهول بشجاعة، وتطرح أسئلة لم يكن بالإمكان طرحها من قبل. وهذا دليل على قدرة الكاتب اللغويّة،

وعلى نُضج العصر فلسفيّاً في تلك الحقبة من الحضارة العربيّة الإسلاميّة في عصرها الذهبيّ؛ فضلاً عن سيادة روح التسامح وقَبول الرأي الآخر، مهما اختلفنا معه. فلو كُتبت هذه الرسالة اليوم، لتصدّى الكثيرون لها بحجّة أنّها تجاوزت المألوف في المُعتقد، وأصرّوا أنّ الجنّة لا يدخلها سوى «المؤمنين»؛ فيما أراد المعرّي أنْ يُوصل لنا رسالة مفادها أنّ رحمة ربّك لا حدود لها.

•••

٤٥- الكتاب : طوق الحمامة في الأُلفَة والألّاف[١]

ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ – ٤٥٦ هـ/ ٩٩٤ – ١٠٦٤ م)

هو أبو محمّد، علي بن أحمد ابن حزم الظاهري الأندلسي. ولد في مدينة قرطبة بالأندلس، وتعلّم فيها. كان فارسي الأصل، ظاهري النشأة، يزيدي الولاء، حيث تولّى الوزارة لبني أميّة، ثم زهد بالسياسة، واتجه إلى العلم والتأليف في مجال الفقه والفلسفة والأدب ونظم الشعر، كما اهتم بشرح منطق أرسطو، وأعاد صياغة الكثير من المفاهيم الفلسفيّة. ويُعدّ أيضـًا أوّل من قال بالمذهب الإسمي في الفلسفة، وهو المذهب الذي يلغي مقولة الكليات الأرسطيّة. ألّف بخط يده ٤٠٠ مجلّد، اشتملت على زهاء ٨٠ ألف ورقة، نذكر منها: «رسائل ابن حزم»، و«الإمامة والسياسة»، و«الإحكام لأصول الأحكام»، و«الأخلاق والسير»، و«جمهرة الأنساب»، و«في المفاضلة بين الصحابة» و«طوق الحمامة في الأُلفَة والألّاف»، وغيرها.

هذا كتاب «طوق الحمامة في الأُلفَة والألّاف» لابن حزم الظاهري الأندلسي، ألفه قبل نحو ألف عام، ويُعد من كتب التراث العربي المهمّة، كما أنّ له شعبيّة كبيرة في الدول الغربيّة، على غرار «ألف ليلة وليلة» و«حي بن يقظان»، وغيرهما، عالج فيه ابن حزم كل ما يتعلّق بتصنيف الحب، ومعانيه، وأسبابه، وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة، وذلك باستخدام عبارات رشيقة وأسلوب يتّسم بالخفّة والظرافة.

بدأ ابن حزم كتابه بذكر أسباب نشوء العاطفة، وتوسَّعَ في ذكر صفاتها الحميدة والذميمة معـًا، وحلل سلوك العشّاق، وأصول الحب، وعلامات الحب، والضّنى،

---

(١) ابن حزم الظاهري الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف؛ اعتنى به وقدّم له عبد الرحمن المصطفاوي، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

والوَصل، والهَجر، والسُلو (السُلُوّ: الهِجْرَانُ، النِسْيَانُ)، والوفاء، وغيرها. ودعّم كل ما توصل إليه بأشعاره، ونوادر شيّقة، وأمثلة في الحب خاصّة به، أكّد فيها ولعه بالشقراوات والحِسان من النساء، كما أعطى أمثلة خاصة بتجارب بعض المشاهير من جيله في الحب.

لم يعتمد ابن حزم على الخيال في كتابه، بل أفصح عن مشاعره الذاتيّة، واعترف بحبّه الحقيقي، فكان واقعيّاً. كذلك نهج المنهج القصصي المحبّب إلى النفوس، وقدّم أكثر من نموذج تحدّث فيها عن قصص حب عاشها هو بنفسه، ورواها بكل صراحة ووضوح. فمن المدهش أنَّ ابن حزم (الفقيه) اعتمد في كتابه على ما يسمى «بأدب الاعتراف»، حيث جاءت اعترافاته بعبارات صادقة عبّر بها عن تجربته الشخصيّة في العشق، حيث يقول في باب الوصل:

«لقد جربت اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن من بَعد الخوف، ولا الترّوح (الراحة) على المال، من الموقع في النفس ما للوصل، لا سيما بعد طول امتناع، وحلول الهجر حتّى يتأجج عليه الجَوى، ويتوقّد لهيب الشوق، وتتضرّم نار الرجاء.»

وانسجاماً مع هذه الأفكار يتحدّث ابن حزم عن أهمّيّة الحب في حياة الإنسان، فيقول:

«لقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيبة تعادل هيبة محب لمحبوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء، وانبساط مدبري الدول، فما رأيت أشدَّ تبجحاً ولا أكثر سروراً بما هو فيه من مُحب أيقن أنَّ قلبَ محبوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له. وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه

الجفاء، ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد، وفي الثانية أذل من الرداء، وألين من القطن، أبادر إلى أقصى آيات التذلل».

لا شك في أنّ هناك فائضاً من المعاني والأحاسيس الرومانسيّة والصور الشعريّة الجميلة في طوق الحمامة تستحق العودة إليها برويّة وتأمّل، فمن خلالها يُعبّر فيها ابن حزم عن مقدرته في فهم أحاسيس المرأة على نحو سيكولوجي مُضمّخ بالتجربة الواعية، حيث يقول:

«ما رأيت قط امرأة في مكان تحسّ أنَّ رجلاً يراها أو يسمع حسّها، إلا وأحدثت حركة كانت عنها بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه غنية، مخالف لكلامها وحركتها قبل ذلك، ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيه، ظاهراً عليه، لا خفاء به».

•••

٤٦- الكتاب: المخصّص[1]

ابن سِيْدَه (٣٩٨ – ٤٥٨ هـ / ١٠٠٧ – ١٠٦٦ م)

هو أبو الحسن، علي بن إسماعيل بن سِيْدَه المرسي. ولد في مرسية (مدينة في الأندلس من أعمال تُدْمير)، وتتلمذ على أبيه، وأبي العلاء البغدادي، وأبي عمر الطلمنكي، وغيرهم. عمل لدى الأمير أبي الجيش العامري، صاحب الدانية، واتّهم بأنّه شعوبي يُفضّل العجم على العرب، ففر منها خوفـًا من الاضطهاد والعقاب، ولكنّه كتب على إثرها قصيدة طويلة استعطف الأمير معتذراً ونادمـًا، فعفا عنه أخيراً، فرجع إلى دانية، وصار وزيراً، وتوفّي فيها. له الكثير من المؤلّفات، نذكر منها: «المحكم والمحيط الأعظم»، و«المخصّص»، و«شرح إصلاح المنطق»، و«العالم في اللغة»، وغيرها. وله الكثير من الشروحات والأشعار، مثل: «شرح ديوان الأخفش»، و«شرح مشكل المتنبي»، و«شرح أبيات الجمل» للزجّاجي، وغيرها.

يأتي كتاب «المخصّص» في خمسة أسفار، فيبدأ السفر الأوّل بشرح لفظ «الإنسان»، من حيث التذكير والتأنيث، والإشارات إلى المفرد والجمع والتثنية، والآيات القرآنيّة التي تثبت كل ذلك، ويتدرّج ليصل إلى حَمل المرأة للإنسان، والأسماء التي تُطلق على المرأة في مراحل حملها، وأسماء ما يخرج مع الولد، والرضاعة، والفطام، وسائر دروب التربية. وابن سِيْدَه في ذلك الشرح بارعٌ وبليغ، من حيث الصرف، والنحو، وضرب الأمثلة والأشعار، ورد الشرح إلى أصحابه.

---

(١) علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، المخصّص؛ تقديم خليل إبراهيم جفّال، طبعة جديدة مصحّحة ومنقّحة ومفهرسة، بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، في جزأين.

يبتدئ من وصف الإنسان، فقامته، فرأسه، وأين يقع من الجسم، وكيف يُجمع ويثنّى. وينتقل إلى صفات الرأس، والشعر على الرأس، وأحوال الشعر، مثل الصلع والشيب، فيتدرّج إلى الوجه، فالحاجب، فالعين، وما فيها من أجزاء، وما يُستحسن فيها من الصّفات، وألوان الحدقة، وعيوب العين من قبل نظرها، وخلقتها، وما يلحق بها من الورم، والاحمرار، والقذى، والرؤية، والنظر، والدمع وما فيه، ويذهب إلى شرح الأنف، فالفم، وما فيه من الشفة، واللسان، والأسنان، فالذقن، حتّى ينتهي في صفات ذراع الإنسان.

أمّا في السِفر الثاني من كتاب «المخصّص»، فيستمر في تسمية أعضاء الجسم، والإشارة إلى الألفاظ التي تُعرف بها في أحوالها المختلفة، كتسمية الكف والأصابع، وذكر أعراض الكف، والقِصر، والطول، والتقبّط، وصولاً إلى الظهر، فأعراض الظهر، والصدر، والبطن، والرُّكب، وصفاتها. وبعدها يشرع في ذكر أسماء وسط الإنسان، ومحاسن البطون، وقبحها، وصولاً إلى ما تبقّى من أجزاء الجسم.

ويتناول القصار من الناس، ونعوت الطوال، والهزال، والألوان، ويُخصّص باباً للفصاحة، وخفة الكلام، وسرعته، وثقل اللسان، واللحن، وقلة البيان، والاختلاط في الكلام والقصد فيه، وشدّة الصوت وضخامته، والدعاء، والصياح، والزّجر، وأصوات التوجّع، والغناء، والطرب، والضحك، وما إلى ذلك. ويُنهي السِفر الثاني بكتاب «الغرائز»، والخصال المحمودة والمذمومة، وحسن الخلق، والتناهي في الفضل.

أمّا السِفر الثالث، فهو في السخاء، والمروءة، وسوء الخلق، والجفاء، والبخل، واللؤم، ورجاحة العقل، وكتم السر، والذكاء، والفهم، والمعرفة، والعلم، والخبرة، والجهل، والسفه، والطيش، والجنون، والشجاعة، والجبن، والحرص، والطمع، واليأس، ودخول الإنسان فيما لا يعنيه. ثم باب السر وإذاعته، والخيانة، والغدر، والرّشوة، والاغتصاب، واللصوصيّة، والخداع، والكذب، والنميمة، والخسّة، ومدّعي النسب، وناقص الحسب. كذلك يخصّص باباً لنعوت مشي الناس، ومشي

النساء خاصّة، والتّبختر، ومشية المقيّد، والمقطوع الرجل، والإعياء في المشي، وما إلى ذلك.

ويتحدّث عن لفظ المَلِك وما إليه، وهناك باب في حلي الملك وسريره وجلسائه، ينتقل بعدها إلى الحديث عن الدول والخدم. وهناك باب آخر في الأمّهات، والآباء، والإخوة، والعم، والخال، والمماليك، والمصاهرة وما إليها. وينهي السِفر بكتاب «النساء»، وفيه حديث عن العذراء (للمرأة عذرتان خَفضها واقتضاضُها)، ونعوت النساء فيما يستحسن من خلقهنّ.

أمّا في السِفر الرابع، فيستمر في الحديث عن نعوت النساء في التعرّض، والضحك، وحسن المشي، واللباس، والحياء، وفي الرأي، والحذق، وفي كافة تفصيلات أمور حياتهنّ: منذ ولادتهن، ومهرهن، وحديثهن، وعشقهن، وكل أحوالهن. ويتحدّث عن كتاب «اللباس» بالتفصيل، ففيه نعوت الثياب، وعيوبها، وألوانها، وأنواعها، من جلود وقماش، ثم أوصاف ونعوت النعال والخفاف. وفي كتاب «الطعام» لا يترك شيئاً إلا ويشرحه، ويُعلّق عليه، ويأتي بأمثلة عنه.

ويستمر الحديث عن الطعام في السِفر الخامس، متوسّعاً فيه، حتّى أنّه لا يغفل عن وصف أواني الطعام (القدور) وأسمائها. ويتحدّث في أبواب المرض عن الألم، والحمّى، وانتشار المرض، وتغيّر لون المريض، وألم الرأس والعنق والحلق، والزكام، وأوجاع البطن، والمعدة، والكبد، والأضلاع، والقلب، والشعور بالغثيان، والقيء. كما يتحدّث عن أعراض الفالج، والخدر، والجدري، والمرض بشكل عام.

وأخيراً، يصل إلى النوم، وقلّته، وكوابيسه، وأحلامه، وأنواع الجماع. وينتهي بصفات البيوت، والصوامع، والسّقائف، والخيم، وغيرها من الموائل البشريّة.

•••

٤٧- الكتاب: المحاسن والمساوئ[1]

البيْهقي (٣٨٤ – ٤٥٨ هـ / ٩٩٤ – ١٠٦٦ م)

هو إبراهيم بن محمّد البيْهقي، تعود أصوله إلى «بيهق»، وهي قرية من أعمال نيسابور. تتلمذ على أبي الحسن العلوي، والحاكم أبي عبد الله الحافظ، وأبي الطاهر الفقيه، وعبد الله الأصبهاني، وغيرهم. طلب منه الأئمة الانتقال من بيهق إلى نيسابور، فوصلها سنة ٤٤١ هجري، وانعقد له مجلس لسماع كتاب «المعرفة» والإفادة من علمه. له العديد من المؤلّفات؛ منها: «السنن الكبير» في عشر مجلّدات، و«السنن والآثار» في أربع مجلّدات، و«الأسماء والصفات» في مجلّدتين، و«المعتقد»، و«البعث»، و«الترغيب والترهيب»، و«الخلافيّات»، و«دلائل النبوة»، و«السنن الصغير»، و«شعب الإيمان»، و«مناقب الشافعي»، و«فضائل الصحابة»، وغيرها.

يُعرّف إبراهيم البيْهقي كتابه هذا بأنّه مجموعة من ضروب الآداب وغُرر الكلام، تدور حول النفس الإنسانيّة وما يرتبط بها من صفات وأفعال، وما يلمّ بها من دوافع الخير أو نوازع الشر. يستهل البيهقي المحاسن في باب الأخلاق، التي يستهلها بمحاسن رسول الله، والمعراج، والخلفاء الراشدين، ومحاسن من أمسك عن الوقوع في أصحاب النبي، ومحاسن الحسن والحسين، وما قيل فيهما من الأشعار.

كما يذكر محاسن السبق إلى الإسلام والمفاخرة بها، ومحاسن كلام الحسن بن علي، وعبد الله بن العبّاس، وغانمة بن غانم، وغيرهم، إضافة إلى المحاسن في شرف

---

(١) إبراهيم بن محمّد البيْهقي، المحاسن والمساوئ؛ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف، بلا طبعة، بلا تاريخ، في جزأين.

بني هاشم وفخرهم، وفي محاسن مجالس أبي العبّاس السفّاح في المفاخرة، وفي محاسن الافتخار بالنبي، ومحاسن الوفاء والشكر والدهاء والحيل والتيقّظ والرُّسل والحُجّاب. كذلك يذكر محاسن بُعد الهمة وكرم الصحبة والسخاء وصلات الشعراء ومحاسن الرجال، وذِكر التَنعّم ومحاسن الفقر والثقة بالله وطلب الرزق واستصلاح المال، إضافة إلى محاسن الدين وإصلاح البدن والندامة والحنين إلى الوطن والدّعاء للمسافر والرؤيا والإزكان.

وفي مساوئ الأخلاق يخصّص البيْهقي مقالات لشرح مساوئ التنبؤ، ومساوئ مَن عادَى عليّاً بن أبي طالب، وقتلة الحسين بن علي ، ومن ارتدّ عن الإسلام. كذلك مساوئ الافتخار، ومساوئ أصحاب الصناعات، وقلة الوفاء وسقوط الهِمّة، ومساوئ الصّحبة والدَّيْن، ومساوئ من استدعى الهجاء، ومساوئ الفقر، ومساوئ الثقة وما يفسد البدن والندامة، ومساوئ من كره الوطن، ومساوئ الدعاء للمسافر، ومساوئ الرؤيا، ومساوئ الإزكان.

وإذا حاولنا الكشف عن أبرز الجوانب الأخلاقيّة التي اهتم بها البيْهقي، نجد أنّه خصّص ما لا يقل عن خمسين صفحة (من صفحة ١٩٧ إلى صفحة ٢٤٥) للحديث عن محاسن صلات الشعراء، ومساوئ منع الشعراء، ومساوئ من استدعى الهجاء، ومساوئ من هجا نفسه. وفي المرتبة الثانية أطال في الحديث عن محاسن الوفاء والدهاء والحيل والتيقّظ والسّخاء، في نحو عشر صفحات. ومن الملاحظ أنّ حديثه عن مساوئ الفقر جاء في عشر صفحات أيضـاً، في حين قابل ذلك حديثه عن محاسن الفقر في صفحة واحدة فقط، إذ يقول فيها عن محاسن الفقر: «رُوِي في الحديث أنّ الفقير الصبور يدخل الجنّة قبل الغني الشكور بأربعين عامـاً».

أمّا بقية الموضوعات في كتابه «المحاسن والمساوئ» فتراوح الحديث عنها بين بضعة أسطر إلى نحو ثلاث صفحات. وهذا يشير بوضوح إلى نوع الموضوعات التي حرص الكاتب على إبرازها والتي تعكس إشكاليّة موضوعيّة اجتماعيّة وسياسيّة

واقتصاديّة عانى منها الناس في ذلك العصر، شأنه شأن المؤلّفين عامّة، فضلاً عن تلك الموهبة الأدبيّة التي تمتّع بها، والتنظيم المنهجي الذي تزيّن به مؤلّفه، إلى جانب الكم الضخم من المعلومات والأخبار والشهادات التي حفظها لنا.

•••

٤٨- الكتاب: تاريخ بغداد[١]

الخطيب البغدادي (٣٩٢ – ٤٦٣ هـ / ١٠٠٢ – ١٠٧٢ م)

هو أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب البغدادي. ولد في غزيّة الواقعة بين الكوفة ومكّة، وتوفّي في بغداد. رحل إلى مكّة المكرّمة، ودرس في البصرة والدينور والكوفة. وعندما عاد إلى بغداد قرّبه رئيس الرؤساء، ابن مسلمة، من البلاط، ثم خرج منها مستتراً إلى الشام لوشاية ضده. كان فصيحاً أديباً شاعراً ولعاً بالمطالعة والتأليف. ذكر ياقوت الحموي ٥٦ كتاباً من مصنفاته، من أفضلها «تاريخ بغداد» الذي جاء في أربعة عشر مجلّداً. ومن مؤلّفاته: «البخلاء»، و«الكفاية في علم الرواية»، و«الفوائد المنتخبة»، و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» في عشر مجلّدات، و«تقييد العلم»، و«الفقيه والمتفقّه» في اثني عشر جزءاً، و«الزهد والرقائق»، وغيرها.

قال شمس الدين بن خِلّكان عن الخطيب البغدادي: «إنّه كان من الحُفّاظ المُتقنين والعلماء المتبحّرين، ولو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه، فإنّه يدل على اطّلاع عظيم». جاء كتابه «تاريخ مدينة السلام» أو «تاريخ بغداد» في أربعة عشر جزءاً بنحو أربعة آلاف صفحة، وكان كاتبه من الثقات وصاحب دين وورع وأمانة، وأظهر في كتابه «تاريخ بغداد» الإتقان وحسن اللغة وشدّة التحرّي، الأمر الذي جعل الكثيرين ينقلون عنه ويهتمّون بشأنه.

---

(١) أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها؛ تحقيق وضبط وتعليق بشّار عوّاد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

بدأ البغدادي مقدّمة كتابه بتناول أقوال العلماء في بغداد ومَن حكمها، كما تناول بالنقد الأحاديث التي رويت عنها، وبيّن مناقب بغداد وفضلها ومحاسن أهلها وطيب أخلاقهم ، فضلاً عن منافع نهري دجلة والفرات، وذَكر شيئًا عن سيرة مؤسّسها، أبي جعفر المنصور. ثم انطلق للحديث عن عمارتها وخبر بناء الكرخ والرُّصافة، والحديث عن دروبها وأرباضها، ودار الخلافة والقصر الحسني ومساجدها وجسورها ومساحتها وحمّاماتها ومقابرها. وأنهى مقدّمته بالحديث عن خبر المدائن وأسماء الصحابة الذين زاروها. أمّا بقية أجزاء الكتاب فهي تراجم لأهل بغداد ومن قصدها، وشملت الخلفاء والأشراف والكبراء والقضاة والفقهاء والمحدّثين والقرّاء والزُّهَّاد والصُّلحاء والمتأدّبين والشعراء من أهل مدينة السلام، بغداد، ومن نزل فيها.

تنبع أهمّيّة كتاب «تاريخ مدينة السلام» من أنّه أوّل الكتب التي وصلتنا عن تاريخ بغداد حتّى منتصف القرن الخامس الهجري، علماً بأنّ هناك من سبقوه، ولكن لم تصلنا كتبهم للأسف، مثل كتاب «أخبار بغداد وطبقات أصحاب الحديث» لابن الجيعابي (ت ٣٥٥ هجري) وكتاب ابن المُنادي (ت ٣٣٦ هجري)، الذي رتّبه وفق أسماء المدن، ولم يصل إلينا منه شيء، كذلك كتاب «تاريخ بغداد» لكل من: يزدجرد بن مهمندار، وأحمد السَّرخسي، وأحمد بن أبي طاهر طيفور، وهلال الصّابي، وغيرهم.

كذلك تنبع أهمّيّة كتاب الخطيب البغدادي من تصويره لجوانب مهمّة من تاريخ الحركة الفكريّة في بغداد، في القرون الهجريّة الخمسة الأولى، سيّما طبقات رجال الدين من الفقهاء والمحدّثين والصوفيّة ونحوهم. وأظهر الكتاب منزلة بغداد العلميّة بين المدن الإسلاميّة وطبيعة العلاقات التي كانت قائمة مع المدن الأخرى. واستخدم لتحقيق ذلك مئات المصادر، فحفظ لنا ثروة عظيمة من النصوص القديمة من تلك المصادر المفقودة. كما كان يتأكّد من المعلومة باستخدام منهجيّة ذكر روايات متعدّدة للواقعة الواحدة مستخدمًا مصادر مختلفة، الأمر الذي جعل منه كتاباً يُركن إليه، فغدا مرجعًا من مراجع التراث الذي لا يمكن الاستغناء عنه.

وفي ذكر أنهار بغداد الجارية، التي كانت تمرّ بين الدور والمساكن، يحدّثنا الخطيب البغدادي عن نهر عيسى الذي يأتي من الفرات ويسقي الضيع والقرى، مروراً بقناطر متعددة، وصولاً إلى نهر دجلة عند أسفل قصر عيسى. ويَذكر أيضاً نهر الصَّرات، ونهر رزين، والنهر الكبير، ونهر بطاطيا، ونهر موسى، ونهر الخالص، ونهر الفضل، وغيرها من الأنهار التي يتحدّث عنها بالتفصيل. إنّ تفحّص أحوال هذه الأنهار اليوم ربّما يكون مهمّاً للدراسات الجغرافيّة والبيئيّة في عصرنا، لتقييمها وعقد مقارنات بين الماضي والحاضر، لمعرفة مدى الضرر الذي ألحقه التغيّر المناخي على الأرض وجغرافيّتها، وغطائها الأخضر، ومجاري المياه في زمن الانحباس الحراري المعاصر.

•••

٤٩- الكتاب: بهجة المَجالِس وأنسُ المُجالِسُ[١]

القرطبي (٣٦٨ – ٤٦٣ هـ / ٩٧٨ – ١٠٧١ م)

هو الإمام أبو عمر، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي. وُلد لأحد فقهاء قرطبة، وتجوّل في بلاد الأندلس بعد الفتنة البربريّة، حيث قضى وقتًا في «دانية» الواقعة أقصى شرقي الأندلس، وكانت فترة خصبة في حياته، حيث ألّف هناك أشهر كتبه، ومنها: «التمهيد»، و«الاستذكار»، و«الكافي بالفقه على مذهب مالك وأصحابه»، و«الصحابة»، و«بهجة المجالس»، و«جامع بيان العلم»، وغيرها. تولّى القضاء في غربي الأندلس، وأمضى بقيّة عمره متنقلاً في الأندلس، بين دانية وبلنسية وشاطبة التي مات فيها. من مؤلّفاته الأخرى: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، وهي موسوعة في فقه الحديث، و«الاستيعاب في طبقات الأصحاب»، وهو في الروايات والسير، و«جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله»، وهو في الآداب الشرعيّة والتاريخ، و»الإنصاف فيما في بسم الله من الخلاف»، و«الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء»، و«القصد والأمم في التعريف بأصول العرب والعجم»، و«الدرر في اختصار المغازي والسير»، و«أخبار أئمة الأنصار»، وغيرها.

كتاب «بهجة المجالس وأنس المُجالِس وشحذ الذّاهِن والهاجَس» هو كتاب الإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي الذي يخبرنا أنّه جمع فيه «من الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والحِكم البالغة، والحكايات الممتعة في فنون كثيرة وأنواع جمة من معاني الدين والدنيا، ....». فعلى سبيل المثال، في باب أدب المجالسة يروي

(١) يوسف بن عبد الله القرطبي، بهجة المَجالِس وأنسُ المُجالِس؛ تحقيق محمّد مرسي الخولي، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية، ١٩٨١، في جزأين.

لنا قول أبو البَخْتَري أنّ العرب كانوا يكرهون أن يقوم الرجل للرجل من مجلسه، ولكن يُوسّع له. ويستشهد بالحديث النبوي الشريف: «لا يوسّع في المجالس إلا لثلاثة: لذي علم لِعِلمه، ولذي سِن لِسنّه، أو لذي سلطان لِسلطانه». ومن حديث جابر عن النبي الكريم قوله: «المجالس بالأمانة، إلا ثلاثة: مجلس سفك فيه دم حرام، ومجلس استحل فيه فرج حرام، ومجلس استحل فيه مال حرام بغير حقه».

وفي باب حمد اللسان، وفضل البيان، يأتي برواية عن النبي الكريم قوله: «رحم الله عبداً تكلّم بخير فغنمه، أو سكت فسلِم». وفي باب حشو الكلام، عن الخليفة عمر بن الخطّاب قوله: «من كَثُر كلامه كَثُر سَقطه»، وقول الحسن: «رحم الله عبداً أوجز في كلامه، واختصر على فصاحته، فإنّ الله يكره كثرة الكلام».

وهناك أبواب أخرى لمن خطب فارتجّ واستغلق عليه الكلام، كما روي عن عثمان بن عفّان عندما أخذ البيعة، إذ قام بحمد الله وأثنى عليه، ثم ارتج عليه، فقال: «ولّيناكم وعدلنا فيكم، وعدلنا عليكم خير من خطبتنا فيكم، فإنْ أعش يأتيكم الكلام على وجهه». وما روي عن عبد الرحمن بن جابر عندما خطب في الناس على منبر في حمص، فارتج عليه، فقال: يا أهل حمص أنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب بليغ عالي الصوت لا يرتج عليه في كلامه.

وينتقل من باب إلى آخر، فيحدّثنا عن نوادر وطرائف حول الأجوبة المُسكِتة وحسن البديهة، والتجارة، والحرص والأمل، والطمع واليأس. وهناك أبواب في المال، حمداً وذمّاً، والسفر، والاغتراب، والتوديع والفراق، والمصافحة، وتقبيل اليد والفم، والضيف، والمعروف، والشكر، وطلب الحاجات، والكتاب والكتابة، وأمثال السلطان وصحبته، والظلم والجور، والعفو، والتجاوز، وكظم الغيظ.

كذلك، كتب في الغضب، والرجاء، والخوف، والعافية، والبلاء، والمرض، والطاعة، والمعصية، والغيبة، والنميمة، والبغي، والحسد، وغيرها من الموضوعات

التي يتعامل معها بشواهد من حوادث ونوادر حصلت للناس، فضلاً عن أنّه يستشهد بأبيات من الشعر، حيثما يستدعي ذلك.

ويحدّثنا في باب مختصر عن الشّيب، والبكاء على فقدان الشباب، بلسان حال الفرزدق، قوله:

وتـقـول كـيـف يـمـيـل مـثـلـك لـلـصّـبـا

وعـلـيـك مـن سِـمَـت الـكـبـار عِـذَار

وفي باب الزهد والقناعة يذكرنا بقصيدة لأبي العتاهية:

تـبـغـي مـن الـدنـيـا الـكـثـيـر وإنّـمـا

يـكـفـيـك مـنـهـا مـثـل زاد الـرّاكـب

وهناك أبواب في وصف النساء بالحسن والرّقَة، وما يُحمد من نعومتهن، ووصف لمنطقهن، كالحديث عن الوجه الحسن، وتزويج الأكفّاء منهن، وعن اللباس، والمراكب من الخيل، والطعام والأكل، وما إلى ذلك. وهناك أبواب في نوادر الأخبار، ومنثور الحكم والأمثال، وأخرى في الشيب ومدحه أو نتفه، والهِرَم، والزهد، والقناعة، والمواعظ، والدّعاء، والتعازي، فضلاً عن نماذج من كلام المحتضرين.

كتاب «بهجة المجالس وأنسُ المُجالسُ» يأتي في قسمين بثلاثة مجلّدات، وفي نهاية المجلّد الثالث فهارس عامّة متعدّدة، تبدأ بفهرس الآيات القرآنيّة، فالأحاديث النبويّة، فالأمثال، فالقوافي، فأنصاف الأبيات، فالأرجاز، فالأعلام، فالقبائل، فالأمم والطوائف والبلدان والأمكنة، فالكتب والمراجع، وتنتهي بفهرس الفهارس. إنّه كتاب موسوعي يشد القارئ لمتابعته من باب إلى آخر، وفق الموضوعات التي ترغّبه.

•••

٥٠- الكتاب: نصوص عن الأندلس[١]

ابن الدلائي (العُذري) (٣٩٣ – ٤٧٨ هـ / ١٠٠٣ – ١٠٨٥ م)

هو أبو العبّاس، أحمد بن عمر بن أنس العُذري، المعروف بابن الدلائي. ينتسب إلى قبيلة عُذرة العربيّة، ومنها أخذ لقب العُذري. نزل أجداده قرية دلاية بالأندلس، ومنها أخذ لقب الدلائي أيضاً، وشاركوا في الفتنة التي تلت وفاة عبد الرحمن الداخل. ارتحل مع أبويه إلى المشرق، وقضى وقتاً في مكّة المكرّمة، وسمع إلى الحافظ أبي ذر الهروي. توفّي ابن الدلائي في مدينة المريّة بالأندلس. ترك الكثير من المؤلّفات؛ منها: «فهرست شيوخه» كما جاء في فهرست ابن خير (طبعة مدريد صفحة ٤٣٠)، و«دلائل النبوّة»، و«افتضاض أبكار أوائل الأخبار»، وغيرها؛ إضافة إلى هذا المخطوط «نصوص عن الأندلس»،الذي وُجد مكتوباً بالخط الأندلسي في مكتبة البديري في مدينة القدس.

هذا الكتاب هو جزء من الكتاب الأصليّ، الذي جاء تحت عنوان «ترصيع الأخبار والمسالك» لابن الدلائي، في خمسة مجلّدات، وأطلق ياقوت الحموي على الكتاب اسم: «نظام المرجان في المسالك والممالك» (وشاركه الإدريسي في رأيه). أمّا ابن الأثير، فيَنسب إلى ابن الدلائي كتباً أخرى؛ مثل: كتاب «المسالك والممالك الشرقيّة»، وكتاب «المسالك والممالك الغربيّة».

يَسدّ هذا الكتاب ثغرات في التراث الأندلسي المفقود، وفي تاريخ الأندلس وجغرافيّتها؛ كما يُزيل الغموض الذي أحاط بتاريخ الثغور الأندلسيّة في مناطق

---

(١) أحمد بن عمر الدلائي (العُذري)، نصوص عن الأندلس؛ تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلاميّة، بلا طبعة، ٢٠١٣.

الشمال. ويكشف كذلك عن تاريخ الأسر والأعلام، الذين حكموا تلك الثغور؛ فضلاً عن التذكير بالأعداد الكبيرة من القرى والحصون والمدن من الثغور الأندلسيّة، التي برزت في تلك الفترة، والتذكير بما يقع حولها في مناطق الشمال .

ويستعرض الكتاب في البداية بلاد «تدمير» الأندلسيّة، ويصفها بالتفصيل. ويذكر الفتنة المضريّة واليمنيّة فيها، التي شارك فيها أجداده إثر الفتنة التي تلت وفاة عبد الرحمن الداخل، ويتحدّث عن غرائبها وأخبارها. ويخبرنا عن أقاليم « تدمير» وغيرها من البلاد، ويأتي على ذكر الثوّار الذين انتفضوا بتدمير، ويذكرهم بالاسم؛ مثل: عبد الرحمن الصقلبي، وأميّة بيسم، وغيرهما.

ثم يذكر الكتاب «بلنسية»، بدءاً من مدينة بلنسية، فشاطبة، فدانية، فجزيرة شقر، فأقاليم بلنسية المتعدّدة. ويلي ذلك الشرحَ المستفيض ذكر أقاليم سرقسطة وما والاها، وذكر أسماء الثوار الذين انتفضوا أيضاً بمدينة سرقسطة وذواتها، ومنهم سليمان الكلبي، وحسين الأنصار، وغيرهما. ويقصد بالثوار هنا مَن ثاروا على الحكام في ذلك الوقت؛ كقوله تحت عنوان إسماعيل بن موسى: «وممّن ثار في أيّام الإمام محمّد إسماعيل بن موسى مع إخوته بتطيلة في سنة ثمان وخمسين ومائتين، ثم تقدّم إلى مدينة سرقسطة فدخلها يوم الثلاثاء لسبع خلون من ربيع الأوّل من العام المذكور، وكان محمّد بن وهيب عاملاً بها؛ ثم دخلها...، فقبضا على أولاد وهيب وسجنوا مع أبيهم».

كذلك، يخبرنا ابن الدلائي أنّه كانت هناك مناوشات عند الثغور مع الإسبان. ويُفصّل الغزوات التي كانت تجري بين فينة وأخرى، وكان يُحدد تاريخها، كقوله في غزوة برشلونه: «وغزا محمّد بن أبي عامر برشلونه، وكانت صائفة مفردة، الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة أربع وسبعين وثلثمائة، ولخمسة أيّام خلت من شهر مايُه. وعاد إلى ثمانين يومـاً».

أمّا الحديث عن أقاليم «إلبيرة»، فيأتي مفصّلاً بالولاة الذين تناوبوا على حُكمها، والغزوات التي تعرّضت لها الكورة وتوابعها، كفتح السواقي وتوصيل المياه إلى أرياضها، وبناء البساتين والقصور، وجلب الثمار الغريبة إليها، كالموز وقصب السكر. ويذكر في مدينة «المرايا» عجائب، كحديثه عن الصبي الأعمى وفيه كثير من اللاعقلانيّة. لكن، من الواضح أنّه شاء أن يجعل من كتابه شائقـًا للقراءة على حساب الواقعيّة، حاله حال الكثير من الكتّاب من أبناء عصره. كذلك، يَذكر من الغرائب تمثالَ فرس منحوتـًا من الحجر، عندما ركبه بعض الأطفال انكسر بعض من أطرافه؛ فتشاءم الناس. ونتيجة لذلك، ربط ابن الدلائي ذلك «باستيلاء الفتنة على إلبيرة، فدخلها البربر؛ وكان ذلك العام أوّل خرابها».

كما ذكر أخبار مدينة «طالقة» منذ عهد الرومان والقوط، وخروج المجوس من البحر إلى ناحية إشبيليّة. وذكر الثوّار بأقاليم إشبيليّة وقرمونة؛ فضلاً عن ذكر أخبار «لبلة»، المدينة منها والأقاليم. كما ذكر مَن ثار بها من الأعلام، خاصة في إقليم «شذونة». وتحدّث عن الجزيرة، ووصف أقاليمها والثوّار الذين كانوا فيها.

وفي نهاية الكتاب، له حديث جميل عن قرطبة، وبحث في أصول اسمها ووصف مساحتها وأبوابها. كما يُسلّط الضوء على قصر قرطبة وقصر الزهراء وتأسيس مسجد الجامع بقرطبة وأقاليمها. وأخيراً، يذكر قصيدة في مدح الخليفة الناصر تنتهي بمبالغة ما بعدها مبالغة؛ حيث يقول الشاعر:

لو عدّا جودك كل من فوق الثرى

لم يبلغوا من ذاك عُشر عشير

•••

٥١- الكتاب: سفر نامة[١]

خسرو (ناصر) (٣٩٤ – ٤٨٠ هـ / ١٠٠٤ – ١٠٨٨ م)

هو أبو معين، ناصر خسرو علوي قبادياني، رحّالة وشاعر وفيلسوف من أصل فارسي. نشأ على مذهب أهل السنّة وقراءة الفلسفة، وتعرّف إلى المذاهب المختلفة في خُراسان، اعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي ودعا له، كما خاطرته نزعات إلحاديّة. ولد في قباديان، عاش في مرو، وتمتّع بثقافة واسعة أهّلته لخدمة السلطان محمود بن سبكتكين، وابنه السلطان مسعود. وعندما سيطر السلاجقة تولّى ناصر أمر خزانة جغري بك داؤود السلجوقي حاكم خُراسان. ولسبب ما عزم على الترحال إلى الشام، فمصر، فالحجاز. توفّي في وادي «يمكان» في شمالي شرقي أفغانستان. له الكثير من الأعمال؛ منها: «سفر نامة»، و«الديوان»، و«كتاب السعادة»، و«زاد المسافرين»، و«جامع الحكمتين في الكلام»، وغيرها.

يقسّم الكتاب رحلته إلى عدّة مراحل، ففي المرحلة الأولى ينطلق من مدينة مرو سنة ٤٣٧ للهجرة، وتنتهي بوصوله إلى القاهرة بعد سنتين، أمّا المرحلة الثانية فتصف إقامته في مصر. أقام ناصر خسرو في مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، ويبدو أنّه كان مهتمّاً بالمذهب الفاطمي، بدليل الإشارات العديدة للمستنصر في الكتاب بوصفه أميراً للمؤمنين، وكونه حجّ مرّتين بصحبة رسول الخليفة. فضلاً عن أنّه كان يُفصح عن مذهبه وصِلته بالإمام المستنصر عبر قصائده.

---

(١) ناصر خسرو علوي، سفر نامة؛ ترجمة يحيى الخشاب، تصدير عبد الوهاب عزام، مصر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، طبعة ثانية، ١٩٩٣.

أمّا المرحلة الثالثة فتصوّر رحلته إلى الحجاز والبصرة، وصولاً إلى بلخ. فغادر مصر متوجهاً إلى الحجاز، حيث أقام ستة أشهر في مكّة، وغادرها قاصداً الحسا، التي سيطر عليها القرامطة آنذاك. وأخيراً عاد إلى بلخ سنة ٤٤٤ للهجرة، وانتقل إلى مازندران، حيث استطاع إقناع الكثيرين من أهلها بمذهبه، وبذلك استثار مشاعر الناس فاعتدوا على منزله، الأمر الذي اضطرّه إلى الهجرة مرّة أخرى.

لا تخلو رحلة ناصر خسرو من مشروعات سياسيّة مرتبطة بمذهب الفاطميّين ومشروعهم في بلاد الهلال الخصيب وبلاد الشام، إذ يمكن تفسير رحلته في هذا السياق. وتنبع أهمّيّة هذه الرحلة من وصفها الدقيق للقلاع والحصون، فعلى سبيل المثال، عندما يصل إلى آمد يخبرنا أنها شيّدت على صخرة، ويحدد طولها وعرضها، وأنّها محاطة بسور من الحجر الأسود، مع تفصيلات طريقة لصق الحجارة بعضها ببعض. كما حدد ارتفاع السور بعشرين ذراع وعرضه بعشرة أذرع، وأماكن وجود الأبراج، وأحجامها، وشرفاتها، والسلالم التي تصل القلاع بقمة كل برج، وذكر أبوابها الأربعة: باب دجلة، وباب الروم، وباب الأرمن، وباب التل. ووصف سوراً آخر من الحجر نفسه، ارتفاعه عشرة أذرع، وعليه شرفات، وأبوابه من الحديد. كذلك ذكر أنّ في داخل المدينة عين ماء، ورسم صورة واضحة لتفصيلات هيكلها التنظيمي العام.

وعندما مرّ بمدينة معرّة النعمان، وصفها بأنّها وافرة العمران، وأنّ زرعها من القمح كثير، وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق واللوز والعنب، ومصادر مياهها من الأمطار والآبار. وذكر أنّ في المدينة رجلاً أعمى اسمه أبو العلاء المعرّي، «وهو حاكمها. وكان واسع الثراء عنده الكثير من العبيد، وكان أهل البلد كله خدم له. أمّا هو فقد تزهّد ... واعتكف في البيت ...». ويشير إلى شهرة المعرّي في الشعر والأدب، وأنّ أفاضل الناس أقرّوا بأنّه لم يوجد من يدانيه في هذه الموهبة. كما يشير إلى التهمة التي وجهت إليه بوضع كتاب في معارضة القرآن.

وفي وصف مدينة عكّا يشير إلى قبر النبي صالح خارجها، في حين قام بمسح المدينة، كما فعل في وصف مدينة آمد وقلعتها، فثبّت طولها بألفي ذراع، وعرضها بخمسمائة،

ووصف قلعتها وميناءها والسلاسل التي تتحكّم بمدخل الميناء، حتّى لا تقتحم سفينة عدو ميناءها. كما وصف عين البقر التي تجاورها عند الباب الشرقي وغيرها من معالم المدينة الحصينة.

كما وصف ناصر خسرو المسجد الأقصى وصفاً دقيقاً: «وكانت الصخرة قِبلة بُني مسجداً حولها بحيث أصبحت في وسطه، وظلّت الصخرة قِبلة حتّى عهد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، فكان المصلّون يولّون وجوههم شطرها، إلى أن أمرهم الله تعالى أن يولوا وجوههم شطر الكعبة ...». وفي وصف المسجد يقول:

«وقد أردت أن أقيس هذا المسجد ... فرأيت عند الجانب الشمالي، بجوار قبة يعقوب عليه السلام، طاقاً مكتوب على حجر منه أنّ طول هذا المسجد أربع وخمسون وسبعمائة ذراع وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع، ... وأرض المسجد مغطاة بحجارة موثقة إلى بعضها بالرصاص، والمسجد شرقي المدينة والسوق، فإذا دخله السائر من السوق فإنه يتجه شرقاً، فيرى رواق عظيماً جميلاً ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وللرواق جناحان وواجهتهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء المثبتة بالجص على الصورة التي يريدونها وهي من الدقة بحيث تبهر النظر». ويقول أيضاً: «وفي الجانب الشرقي من هذا المسجد محراب مريم عليها السلام. وبه محراب أخر لزكريا عليه السلام. وعلى هاذين المحرابين آيات القران التي نزلت في حق زكريا ومريم... وعلى حجر من عمده نقش أصبعين كأن شخصاً أمسكه. ويقال أن مريم أمسكته بأصبعيها وهي تلد».

•••

٥٢- الكتاب: سير الملوك (سيَاسَت نَامه)[١]

الطّوسِي (نِظام المُلك) (٤٠٨ – ٤٨٥ هـ / ١٠١٨ – ١٠٩٢ م)

هو أبو علي، الحسن بن علي بن إسحاق بن العبّاس الطوسي، الملقّب بخواجة بزك، أي نِظام المُلك. ولد في طوس في خُراسان، وكان أشهر وزراء السلاجقة، خدم الملك ألب أرسلان وابنه ملك شاه. كان داعية للعلم والآداب، وأنشأ المدارس النظاميّة، واستقطب لها الفقهاء والمحدّثين، وفي مقدّمتهم أبو حامد الغزالي. وكان فقيهاً شافعيّاً، وعندما تولّى الوزارة قرّب منه الأكفّاء الصالحين. وبعد وفاة ألب أرسلان، وقف إلى جوار ابنه ملك شاه، وأصبح مستشاره، فأدّت هذه العلاقة إلى ازدهار الدولة وبلوغها ذروة المجد. أهم مؤلّفاته هو «سياست نامه»، أو «سير الملوك» الذي كتبه بالفارسيّة. قُتل طعناً بسكين في طريقه إلى بغداد، بالقرب من كرمانشاهان، وقيل أنّ قاتله كان إسماعيليّاً.

مكث نِظام المُلك في الوزارة ثلاثين سنة (٤٥٥ – ٤٨٥ هجري) خلال حكم الملك ألب أرسلان وابنه ملك شاه السلجوقي، في فترة كانت الدولة السلجوقيّة مهيمنة على المنطقة بأسرها، ولم يكن الخليفة العبّاسي في بغداد يخالف أمر ملوكها. وكان نِظام المُلك من النفوذ والقوة أنْ أوكل لأبنائه الاثني عشر، إلى جانب أصهاره وأقربائه الكثر، بمناصب مهمّة في أرجاء الدولة الفسيحة، فضلاً عن تملّكه ألفي غلام كانوا في خدمته في الحرب والسلم.

---

(١) نِظام المُلك الطوسيّ، سير الملوك (سياست نامه)؛ ترجمه عن الفارسيّة يوسف بكّار، وزارة الثقافة الأردنيّة: مكتبة الأسرة، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢.

وكان يولي اهتماماً خاصاً بالأئمّة والمتصوّفة، واعتنى بالتربية والتعليم، وأسّس «المدارس النظاميّة» في ديار الإسلام الواسعة، والتي كانت مفتوحة ليلاً نهاراً للمطالعة والتدريس والتحصيل، كنظاميّة نيسابور، وبغداد، والبصرة، والموصل، ومرو، وأصفهان، وغيرها، وكان الاتجاه الفقهي فيها للمذهب الشافعي. وفي عهده اكتنزت خزانة الدولة، وانتعشت أحوال الرعيّة، وانداح العدل والإنصاف والأمن في أرجاء الدولة. وهكذا، فإنّ سيرة نِظام المُلك، التي أثمرت اندياح العدل والأمن والاستقرار في الدولة، تتمظهر في هذا الكتاب بوصفها نظاماً متكاملاً في إدارة شؤون الدولة.

يضمّ الكتاب خمسين فصلاً، يبدأها بالحديث عن «أحوال الناس وتغلّب الأيّام ومدح سلطان العالم»، وينتقل إلى الحديث عن معرفة الملوك لنعمة الله في اصطفائهم، وعن ضرورة تحلّيهم بالخصال الحميدة، ضارباً أمثلة من حكايات متعدّدة، فينتقل للحديث عن عُمّال الخراج، وضرورة التقصّي الدائم لأحوالهم، وأحوال الوزراء، وذلك لتحقيق النزاهة والعدل واجتناب ظلم الناس. وينتقل إلى الحديث عن أهمّيّة نزاهة القضاء، لتحقيق الإنصاف والمساواة والعدل، مع ضرورة التحقّق والتحرّي في أمور الدين والشريعة، للتأكّد من مطابقة الأحكام الوضعيّة مع الشرع.

يدخل نِظام المُلك في تفصيلات إدارة جزئيّات الدولة، وضرورة التحقّق من كفاءة موظفي الدولة، وأهمّيّة تعظيم الأوامر السامية والمراسيم الصادرة عن البلاط. كذلك، ضرورة متابعة مهمّات الغلمان عند إرسال الأوامر، وتنظيم أمور ندماء الملك ومقرّبيه، والعناية بلباسهم ومعداتهم، وإعداد زينة القصر، وتنظيم كيفيّة التعامل مع الرهائن، ونساء القصر، والحريم، وتنظيم أعمال العبيد، ومجالس الشراب، وما إلى ذلك من تفصيلات إدارة الدولة. كذلك، خصّص فصولاً لتوضيح مهمّات الجواسيس المسخّرين لخدمة الدولة، وفي ضرورة استشارة الملك للحكماء والعلماء والمسنّين، وتنظيم الجيش، واختيار قادته، وضرورة اتخاذ الجيش من كل الأجناس بدون تمييز.

وينتهي في الفصول الأخيرة بالحديث عن أحوال ذي المذاهب الخبيثة من أعداء الملك والإسلام، مثل مذهب مزدك، وسنباذ المجوسي (من أتباع أبي مسلم

الخُراساني)، والباطنيّة، والقرامطة، والحزمدينيّه (أو الحزميّه)، والبابكيّة، وغيرهم. وأخيراً، في الفصل خمسين، يبحث في تدوين أموال حساب الولايات ونسقه.

والكتاب زاخر بالفهارس، حيث يبدأ من فهرس الآيات الكريمة، يليه فهرس الأحاديث النبويّة الشريفة، ففهرس الأمثال والحكم والأقوال المشهورة، ففهرس الأشعار العربيّة والمترجمة، ففهرس ألفاظ الحضارة ومصطلحاتها، ففهرس الكتب، ففهرس الأعلام، ففهرس الأقوام والأُسرات والملل والنّحل، وأخيراً، فهرس البلدان والأماكن.

•••

٥٣- الكتاب: المسالك والممالك[١]

البكري (٤٠٤ – ٤٨٧ هـ / ١٠٣٠ – ١٠٩٤ م)

هو أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري. يعود في نسبه إلى قبيلة بكر بن وائل العربيّة، من قبائل ربيعة في الجزيرة العربيّة. ولد في ولبة قرب إشبيليّة، وتوفّي في قرطبة. يُعدّ أبو عبيد البكري أوّل الجغرافيّين المسلمين في الأندلس، كما يُعَدّ أديبًا ونباتيًّا عربيًّا أندلسيًا، نشأ في بيت إمارة وسيادة وحرب. تولّى جده أيّوب منصب رد المظالم في قرطبة. وعندما سقطت الدولة الأمويّة في الأندلس نشأت إمارة للبكريّين لمدّة تناهز أربعين عامًا انتهت بسيطرة المعتضد بن عبّاد. له في اللغة والأدب كتاب «الإحصاء في طبقات الشعراء»، و«اشتقاق الأسماء»، و«شفاء عليل العربيّة»، وغيرها. أمّا في الكتب الجغرافيّة فله: معجم «ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع»، و«المسالك والممالك». وله كتب في موضوعات مختلفة، مثل: «أعلام نبوة نبينا محمّد عليه السلام»، و«التدريب والتهذيب في دروب أحوال الحرب»، و«كتاب النبات»، و«فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» وغيرها.

يُعد كتاب «المسالك والممالك» مرجعًا في الجغرافيا العامّة، وطبع جزء منه تحت اسم «المغرب في ذكر إفريقية والمغرب». وضع البكري هذه الموسوعة في البلدان على نسق فريد، جمع بين وصف البلدان وعادات الشعوب بمنهج ظهرت فيه شخصيّته، إذ قرّر أنّه لم يرتحل إلى الأمكنة التي ذكرها، ولم يزعم أنّه شاهد أيًّا من تلك الشواهد، بل جمع ذلك من الكتب. وعرض عادات الشعوب والقصص التاريخيّة، التي اعتبرها

---

(١) عبد الله بن عبد العزيز البكري، المسالك والممالك؛ حقّقه ووضع فهارسه جمال طلبة، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، في جُزأين.

واقعيّة، واستثنى ما عدا ذلك، ورفض اقتباس أو سرد أيّ من الغرائب والعجائب ممّا يتعارض مع العقل. وهذا منهج جديد في البحث نعتقد أنّه بدأ يشق طريقه في القرن الخامس الهجري.

تتضمّن موضوعات الجزء الأوّل من الكتاب قولاً في مدّة عمارة الأرض، ومدّة الخلق التقليديّة، ثم يتدرّج إلى ذكر إبليس وخلق آدم وحوّاء وصولاً إلى نوح وأبنائه وأحفاده، حتّى يصل إلى ذكر الأنبياء إرميا ودانيال وعزيز. ثم يذكر زرادشت والأنبياء عيسى وزكريا ويحيى ويونس وموسى، وصولاً إلى أخبار العرب العاربة، ودياناتهم، ومعتقداتهم، وما إلى ذلك.

يذكرالبكري أيضاً معتقدات العرب وخرافاتهم، كالغول والنسناس والعنقاء والهواتف، وما إليها، وما عبد العرب من أشياء. ويذكر البيوت المعظمة في الجاهليّة، وعند اليونان والصقالبة والصابئة وبيوت النار. ثم يتحدّث عن البحار، كبحار الهند والروم والبحر المحيط، تليه تفاصيل عن الأنهار والعيون. ثم يشرع في الحديث عن الممالك، بدءاً من مملكة الهند فالصين فالسريان فالسند فالفرس فالإسكندر فالروم، ثم ممالك السودان والبربر والصقالبة والإفرنج والأكراد، وغيرها من الممالك التي سادت في تلك الفترة. ثم يشرع في وصف المسجد الحرام وشِعاب مكّة وجبالها ودخول القرامطة إليها، ثم يصف المدينة المنوّرة ومساجدها.

أمّا في الجزء الثاني من الكتاب، فيبدأ بذكر بلاد العراق، تليها الشام ومدنها، فبيت المقدس، ثم يُعرّج على بلاد الروم وروما وقبرص وصقلية ومالطا. كذلك، يذكر الروس وحُكم الخراج في تلك البلاد، وبلاد المغرب ومصر، ومدينة الإسكندريّة تحديداً، وتفصيلات الفتوحات. ثم ينتقل إلى ليبيا ومدنها، وتونس وصولاً إلى قرطاجنّة، والجزائر ومدنها، والمغرب ومدنها. ثم ينزل جنوباً إلى بلاد السودان ويتحدّث عن الغرائب فيها، وسير أهلها. وأخيراً، يتحدّث عن مدن الأندلس بالتفصيل، وينتهي بذكر بلاد الفرنجة.

وفي ذكر البحر المحيط وعجائبه، يقول البكري: «زعموا أنّ في البحر الأخضر عرش إبليس، تَشبّه بالباري سبحانه وتقدست قدرته، حوله نفر من الأبالسة والعفاريت العظام وسائر أصناف الجن». إذاً، فهو يقول زعموا بينما في كتابات تاريخيّة أخرى تُذكر هذه الأخبار على اعتبار أنّها حقائق نهائيّة. ولكنّه في مواضع أخرى يتّخذ أسلوب سابقيه نفسه، ففي وصفه البحر الأسود (بحر الظلمة) يتحدّث عن بلاد واق واق، ويقول في الشرح عنها: «وهُنّ جوار تحمل بها شجر مُعلقة بشعورها، ...، وأبدان حسان، ولا يزلن يصِحن واق واق، فإذا قُطعت عن الأشجار التي تحملها أقامت يوماً وبعض يوم أخر ثم تهلك ...».

•••

٥٤- الكتاب: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس[١]

الحميدي (٤٢٠ – ٤٨٨هـ / ١٠٢٩ – ١٠٩٥م)

هو الإمام أبو عبد الله، محمّد بن أبي نصر فُتُوح الميورقي الحميدي، عربيّ من الأزد. سكنت عائلته في محلّة الرُّصافة بقرطبة، ثم تحوّل والده إلى جزيرة مَيُورقة، فسكن فيها. تتلمذ على الإمام ابن حزم، والفقيه أبي عمر النمري شارح «الموطأ»، وغيرهما. وكانت له نغمة حسنة في قراءة الحديث. وبعد أن سمع بميورقة من ابن حزم بات يتعصّب له، لذلك أصابته فيه فتنة فرحل إلى المشرق. ثم سافر إلى الديار المصريّة، وفيها ألّف معظم كتبه؛ ومنها: «الجمع بين الصحيحين»، وهو أبرز مؤلّفاته، وكتاب «جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس»، كتابنا الملخّص هذا، وغيرهما. توفّي الحميدي سنة ٤٨٨ للهجرة في الأندلس، ودفن في جامع القصر. وصفه الذهبي بأنّه الإمام القدوة، والمُتقن الحافظ، وشيخ المحدّثين.

يرى مُحققا الكتاب أنّ المظفّر ابن رئيس الرؤساء، الذي أقام أبو عبد الله الحميدي في داره، هو من طلب منه أن يكتب هذا الكتاب في بغداد، كي يجمع ما يَحضره من أسماء رواة الحديث بالأندلس. ومن الواضح أنّ المصدر الرئيس لترجمات هذا الكتاب هو كتب ابن حزم. وسمّاه ابن خير الإشبيلي «جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس»، كما جاء في فهرست ابن خير صفحة ٢٢٦. أمّا ياقوت الحموي، فسمّاه «جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس»، كما جاء في معجم الأدباء، المجلّد السادس صفحة ٢٦٠٠.

---

(١) محمّد بن فُتُوح الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس؛ حقّقه وعلّق عليه بشّار عوّاد معروف ومحمّد بشّار عوّاد، تونس: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

يأتي الكتاب في نحو ستمئة صفحة، وينتهي بفهارس عامّة، واسعة، ووافية، تبدأ بفهرس أصحاب التراجم مُرتباً حسب حروف المُعجم، ففهرس الأنساب والشهرة والألقاب، يليها فهرس الأحاديث المرفوعة؛ ثم فهرس أسماء الكتب الواردة في المتن، ففهرس المواضع والبلدان، وفهرس الأشعار، حسب القافية والبحر وقائل الشعر، مع ذكر الصفحة، وأخيراً فهرس المصادر والمراجع. فإذا أخذنا مثالاً ابن الجزري المتوفّى عام ٨٣٣ للهجرة: تشير الفهارس إلى وجود ترجمته في الجزء الثالث من الكتاب صفحة ٤٦١.

ويُخصّص الحميدي باباً للنساء الشاعرات في نهاية ترجماته. وفيما بلغ مجموع عدد الترجمات ٩٨٨ ترجمة، بدأ في باب النساء بالترجمة رقم ٩٨٦ للشاعرة صَفيّة بنت عبد الله الرَّيّيّ، بوصفها أديبة وشاعرة وُصفت بحسن الخط وجماله. وعندما عابت امرأة أخرى خطّ صَفيّة، نظمت على البحر الطويل:

وعـائِبـةٍ خَـطّـي فقلـت لـهـا اقْـصِـري

فـسـوف أريــك الــدّرّ في نَـظْـم أسْـطُـري

توفّيت صَفيّة بنت عبد الله الرَّيّيّ سنة ٤١٧ للهجرة، وهي دون الثلاثين.

تلت صَفيّة بنت عبد الله في تراجم النساء الشاعرات مريم بنت أبي يعقوب الفصوليّ الشّلْبيّ الحاجّةُ، وكانت «أديبة وشاعرة، جَزْلة مشهورة بين الناس؛ كانت تُعلّم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها، وعمّرت عمراً طويلاً. سكنت إشبيليّة الأندلسيّة، وشُهِرَتْ بعدَ الأربعمئة للهجرة، وأنشدت على البحر الطويل تقول فيه:

ومــا تـرتـجي مــن بـنـت سبـعين حجة

وسـبـع كـنسـج الـعـنكـبوت الـمُـهلـهـل

تــدُّب دبـيـب الـطـفـل تسـعى إلـى العصا

وتـمـشـي بـهـا مـشـي الأسـيـر الـمكـبَّـل

أخيراً، في تراجم النساء، تأتي الترجمة رقم ٩٨٨، وهي للشاعرة الغسّانيّة الشهيرة المادحة للملوك، التي لم يُعرف اسمها، فذُكر أنّها كانت تعيش ببَجَّانةَ. ومن أشعارها على البحر الطويل:

أتـجـزع إنْ قـالـوا: سـتَـظـعَـنُ أظـعـانُ

وكـيـف تُـطـيـق الـصـبـر ويـحـك إن بـانُـوا

ومــا هــو إلا الــمــوت عـنـد رحـيـلـهــم

وإلا فــعـيـش تُــجـتـنى مِـنـــه أحـــــزانُ

•••

٥٥- الكتاب: مشكاة الأنوار[١]

الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ – ١١١١ م)

هو الإمام أبو حامد، حجّة الإسلام، محمّد بن محمّد الغزالي الطوسي النيسابوري، عُرف بالغزالي نسبة إلى صناعة أبيه في الغزل، ويُنسب أيضـًا إلى بلدة غزالة من قرى طوس. ولد لأسرة فقيرة الحال لوالد متأثّر بالصوفيّة، أخذ الفقه عن أحمد الرذكاني، وأبي نصر الإسماعيلي، وغيرهما، ثم ارتحل إلى نيسابور، ولازم أبا المعالي الجويني، وأخذ عنه فقه الشافعيّة. درّس في المدرسة النظاميّة ببغداد في أيّام الخليفة المقتدي بأمر الله العبّاسيّ. له العديد من المؤلّفات؛ منها: «مقاصد الفلاسفة» و«تهافت الفلاسفة» و«فضائح الباطنيّة» و«إحياء علوم الدين» الذي ألفه في فترة عزلته التي دامت أحد عشر عامـًا، فقد انطلق تأليفه من القدس وأنهاه في دمشق، وله أيضـًا: «المنخول في علم الأصول»، و«منهاج العابدين»، و«حقيقة القرآن، و«المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال»، و«تهذيب الأصول»، و«فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، و«الاقتصاد في الاعتقاد»، و«حجّة الحق»، و«البسيط في الفروع»، وغيرها. أخيراً، عاد إلى نيسابور ودرّس في نظاميّة نيسابور مكرهـًا إلى أن قُتل الوزير فخر الدين، فعاد إلى بلده طابران في طوس، وتوفّي فيها.

رفض الغزالي ادّعاء الفلاسفة بأنّهم قادرون على إدراك شيء يتجاوز حواس الإنسان، فقد فشلت الفلسفة في إيجاد أجوبة حول الخالق وطبيعته، واعتبر أنّ

(١) أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار؛ ترجمة وتقديم وتوثيق ديفيد بوخمان **David Buchman**، الولايات المتّحدة الأمريكيّة: جامعة بريغهام يونغ **Brigham Young University** ، طبعة أولى، ١٩٩٨.

موضوعات الفلسفة ينبغي أنْ تظل محصورة ضمن المسائل القابلة للقياس والملاحظة والتجربة، مثل الطب والفلك والرياضيّات. وامتاز الغزالي بفلسفته الصوفيّة، التي تسعى إلى إثبات أنّ الممارسات الصوفيّة من الفقه الإسلامي أيضـاً.

يختلف الغزالي عن الفقهاء من حيث أنّهم سعوا إلى إثبات وجود الله بطريقة عقلانيّة واكتفوا بتخيّله، ولكنّ الغزالي بأسلوبه الأدبي الرفيع، سعى إلى إثبات أهمّيّة التخيّل للاتصال بهذه الفكرة مباشرة، لأنّها فكرة واقعيّة. وهذه الفكرة هي التي جعلت بعضهم يقول إنّ الغزالي سبق الفيلسوف الفرنسي ديكارت، على أساس أنّ تنقية القلب والفكر عند الغزالي مشابهة لفكرة المنهجيّة الديكارتية للوصول إلى الحقيقة واليقين.

كما شك ديكارت في كل شيء للوصول إلى الأفكار الواضحة، التي لا تقبل الشك، كذلك شك الغزالي شكّـاً إيجابيّـاً بهدف وصوله إلى الحقيقة. استبعد الاثنان شهادة الحواس، فالواقع متغيّر ومعطيات الحس لا تُعبّر عن الحقيقة. ولكنّ الاستدلال العقلي يوقع في الخطأ أيضـاً، لذلك فإنّ الوصول إلى الحقيقة عند الغزالي يستدعي الاتصال المباشر بالنور الإلهي، والذي ينبغي التحضير له مسبقـاً بتطهير القلب، ومعاملة الناس بورع. وهدف الاتصال المباشر بالنور الإلهي هو السعادة التامّة، فمَن وصل إلى هذه الحال «يترقّى إلى درجات يضيق عنها النطق، ويخطئ من يحاول التعبير عنها، ثم ينتهي به الأمر إلى قرب يكاد يتخيّر منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول».

وما يميّز فكر الغزالي هو منهجه في الوصول إلى مراحل تنقية النفس، وتطهير القلب، ومعاملة الناس بلطف وورع، لتمكينه من الاتّصال بالله مباشرة. وهذه الفكرة التقطها فيلسوف التصوّف اليهودي مارتن بوبرMarten Buber ، في عشرينيّات القرن العشرين، حيث اعتبر أنّ الوصول إلى العلاقة المباشرة مع الله تستدعي أنْ يبدأ الإنسان من تحسين علاقته بالبشر أوّلاً، كما عبّر عنها مارتن بوبو بمصطلح « أنا والآخر I and Thou.

يتضمّن كتاب «مشكاة الأنوار» فصولاً ثلاثة، يعتبر الفصل الأوّل أطولها حيث يسعى إلى شرح أوّل جملة من سورة النور: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور، آية ٣٥)، بتفسير ميتافيزيقي للنور أو الضوء، اعتماداً على تعاليم القرآن والحديث القائمة على مذهب التوحيد. هذه الخطة الميتافيزيقيّة لها أوجه أنطولوجيّة وجوديّة، وإبستمولوجيّة معرفيّة، وكوزمولوجيّة، ونفسيّة، مستندة على فكرة أنّ النور الحقيقي هو الله. وانطلاقـاً من هذا الفهم فإنّ النور الحقيقي له وجود حقيقي وواقعي ومعرفي، وبالتالي، فإنّ الوجود كله، بجميع أجزائه وفروعه، يمكن النظر إليه بوصفه تجسيداً لهذا النور الإلهي.

ويُعبّر الغزالي عمّا سلف بعنوان الفصل الأوّل: «في بيان أنّ النور الحق هو الله تعالى وأنّ اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له»، إذ يقول: «وأمّا النور فليس بمدرك ولا به الإدراك، بل عنده الإدراك. فكان اسم النور بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصَر». والعقل عنده أولى من العين الظاهرة بأن يسمى نوراً لرفعة قدره، لأنّ العين، كما يقول، «لا تبصر نفسها بينما العقل يدرك ذاته ويدرك غيره أيضـاً، فهو يدرك نفسه عالمـاً وقادراً». وهذه خاصيّة لا يتمتّع بها سوى الإنسان، فالعين لا تدرك ما وراء الحجب، بينما العقل يفعل. فالموجودات كلّها مجال للعقل، فمعانيها الخفيّة واضحة جليّة، يقول الغزالي: «فمن أين للعين الظاهرة مساماته ومجاراته في استحقاق اسم النور؟».

وهكذا يصل الغزالي إلى فكرة الله، من حيث أنّ «ما يُبصر نفسه وغيره أولى باسم النور،...، بل بالحرِيّ أن يُسمّى سراجـاً منيراً لفيضان أنواره على غيره».

•••

٥٦- الكتاب: مقامات الحريري[١]

الحريري (٤٤٦ – ٥١٦ هـ / ١٠٥٤ – ١١٢٢ م)

هو أبو محمّد، القاسم بن علي الحريري البصري. أديب، وعالم لغوي، وشاعر عربي من أدباء البصرة، لُقب بالحريري نسبة إلى صناعة الحرير، وأيضاً لُقب بالحرامي لبيعه سكن في محلة بني حرام. تأدّب الحريري في البصرة على المجاشعي، والشيرازي، وغيرهما. عُيّن في وظيفة «صاحب الخبر» بالبصرة، وظل كذلك حتّى وفاته. اكتسبت المقامات شهرة واسعة، وبلغت شهرتها إسبانيا، حيث ترجمها الحاخام يهوذا الحريزي (ت ١٢٢٥ ميلادي) إلى العبريّة. نذكر من مؤلّفات الحريري، إلى جانب هذا العمل، التالي: «ديوان رسائل»، و«الرسائل السينيّة»، و«الرسائل الشينيّة»، وديوان شعر، و«درة الغواص في أوهام الخواص» و«ملحة الأعراب في صناعة الإعراب»، وهي أرجوزه في النحو، وغيرها.

المقامة هي حكاية تُروى في مقام مُعيّن، تمزج بين الآراء الأخلاقيّة والاجتماعيّة والفنون اللغويّة، التي تبهر الأبصار والمسامع. تجري المقامة بين شخصيّتين خياليّتين، وتتضمّن العديد من درر اللغة والحكم والأشعار النادرة والأمثال المُعبّرة وفرائد الأدب، التي تعكس علو المقام في عالم الأدب. وكان قد ابتكر هذا الفن بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٥ هجري). قال الحريري صاحب المقامات عن أصلها إنّ أبا زيد السروجي كان شيخاً بليغاً، وفصيحاً، وقف يوماً في مسجد بني حرّان في البصرة

---

(١) أحمد بن عبد المؤمن القيسيّ الشُّريشي، شرح مقامات الحريري؛ وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦، في ثلاثة أجزاء.

فروى حادثة أسر الروم ولده، وهي القصّة المذكورة في «المقامة الحراميّة» الثامنة والأربعون. وهكذا انطلقت فكرة المقامة.

وذكر ابن الجوزي في تاريخه أنّ أوّل ما ألفه الحريري كان «المقامة الحراميّة»، التي بنيت عليها سائر المقامات فيما بعد، وكان يحكيها في البصرة أينما حل في المساجد والأماكن العامّة. وقال ابن الجوزي كذلك إنّ الحريري عرض المقامة الحراميّة على وزير السلطان أنو شروان، فراقت له، وأمره أن يزيد عليها، وهكذا أتمّها في خمسين مقامة. وأمليت جميعها على لسان أبي زيد السروجي ، فيما أُسندت روايتها إلى الحارث بن همام البصري. وقد رسمت هذه الروايات الحياة في تلك الأزمان بتفصيلاتها وانفعالاتها.

أقدم الكثير من الأدباء النبهاء على شرح مقامات الحريري، مثل الشيخ أبو سعد الفنجديهيّ، وابن ظفر، وغيرهما. وفي شرح مقامات الحريري، لأبي العبّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشُّريشي (ت ٦١٩ هجري)، يقول إنّه أخذ روايات المقامة عن أبي بكر الحجري، والذي بدوره أخذها عن الفقيه ابن جاهور، الذي أخذها عن مُنشئها أبي محمّد الحريري. كذلك، يخبرنا أنّ أبا بكر الفهري حدّثه عن ابن جاهور، وعن الشيخ أبي الحجاج القضاعي، والشيخ بركات الخشوعي، نقلاً عن الحريري. وانطلق الشُّريشي لشرح ألفاظها، إذ يقول أبو العبّاس:

«ثم لم أدع كتاباً أُلّف في شرح ألفاظها، وإيضاح أغراضها، إلا وعيته نظراً، وتحقّقته معتبراً ومختبراً، وتردّدت في تفهّمه ورداً وصدراً، وعكفت على استيفائه بسيطاً كان أو مختصراً، .. ولم أترك في كتاب منها فائدة إلّا استخرجتها، ... فاجتمع من ذلك حفظاً وخطاً أعلاق جمّة، وفوائد لم تهتم بها قبلي همّة، ثمّ لم أقنع بتدوين الدواوين، ولا اقتصرت على توقيف التصانيف، حتّى لقيت بها صدور الأمصار وعلماء الأعصار». ويضيف: «ثم استوعبت شرح الأمثال ونسبتها، ... ثم استوفّيت أيضاً ذكر مَن وقع فيه من الرجال والنساء أتم استيفاء، وعرّفت المشتهرين من الأدباء والأبناء، وبنيت أنسابهم وأمكنتهم، وأخبارهم وحرفتهم، ...»

كذلك، يقول الشُّريشي إنّه زاد على كتابه في شرح المقامات فصلين، أحدهما هدفه بيان مأخذ الحريري في الكلام، وإخراج الإحالات المودعة فيه من حيث الإبهام، أمّا الفصل الثاني فجاء في «التنبيه على صناعة البديع، وتوفية أسمائه؛ كالتجنيس والتتميم والترصيع، والإتيان بهذا النوع من التبيين والتنبيه على الجميع، ...».

وفيما يلي نموذج من المقامات، المقامة الثانية عشرة: وهي «المقامة الدمشقيّة»:

«حكى الحارث بن هَمّام قال: شَخَصْتُ من العراق إلى الغوطة، وأنا ذو جُرد مربوطة، وجِدَة مغبوطة، يُلّهيني خلوُّ الذرع، ويزدهيني حُفول الضّرع. فلما بلغتها بعد شِقّ النفس، وإنضاء العَنس، ألفيتها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهي الأنفس وتَلذ الأعين، فشكرت يَد النّوى، وجريت طَلقا مع الهوى، وطفقت أفضُّ فيها ُختوم الشهوات، وأجتني قطوف اللذات، إلى أن شرع سَفر في الإعراق، وقد أشفقت من الإغراق، فعادني عِيد من تذكار الوطن، والحُنين إلى العَطنِ، فقوّضت خيام الغيبة، وأسرجت جَواد الأوبَة».

•••

٥٧- الكتاب: مجمع الأمثال[١]

الميداني (النّيسابوري) (~٤٥٠ - ٥١٨ هـ / ~١٠٥٨ - ١١٢٥ م)

هو أبو الفضل، أحمد بن محمّد الميداني النّيسابوري، نسبة إلى ميدان زياد، وهي محلّة في نيسابور. تتلمذ على الإمام علي الواحدي، وأبي الحسن المجاشعي، وغيرهما. عاش في عصر السلاجقة في أهمّ المدن التي كانت تقود الحركة العلميّة في بلاد فارس آنذاك حيث عاصر الزمخشري، العالم اللغوي والأديب والمفسر. وعاصر كذلك الزوزني مُفسّر المعلّقات، والتبريزي شارح المعلقات وديوان الحماسة، والطغرائي صاحب لاميّة العجم، والحريري صاحب المقامات، والجواليقي صاحب المعرّب، والشهرستاني صاحب المِلل والنحل، وغيرهم. توفّي في نيسابور. من مؤلّفاته: «الهادي للشادي» في اللغة والنحو، و«نزهة الطرف في علم الصرف»، و«المصادر»، و«شرح المفضليات»، و«قيد الأوابد من الفوائد» و«مأوى الغريب ومرعى الأديب»، و«السامي في الأسامي»، و«منية الراضي برسائل القاضي»، و«النحو الميداني»، وغيرها. وقد ذكر القِفطي أنّ له شعراً كثيراً.

أودع أبو الفضل النيسابوري الميداني في كتابه الشهير «مجمع الأمثال» معرفته الغزيرة في اللغة العربيّة، وعلمه الرفيع في الأدب العربي، فأظهر شخصيّته العلميّة المتميّزة التي يُجمع المؤرّخين عليها. وحول ذلك الأمر، تذكر بعض المصادر أنّ شيئاً من التنافس قد حدث بين أبي الفضل الميداني ومعاصريه، مثل جار الله الزمخشري، وذلك إثر تأليف كتاب «مجمع الأمثال»، فقد قيل إنّ الزمخشري عندما تصفّح كتاب الميداني «مجمع

(١) أحمد بن محمّد النّيسابوري (الميداني)، مَجْمَع الأمثال، مصر: دار مكتبة الحياة، طبعة جديدة منقّحة، ١٩٩٥، في مجلّدين.

الأمثال» وجده أحسن ترتيباً من كتابه الذي ألّفه في جمع أمثال العرب «المستقصى في أمثال العرب»، فشعر بالندم على تأليف «المستقصى» وعمد إلى التلاعب اللغوي باسم الميداني بغرض الانتقام، فزاد نوناً قبل الميم ليصبح اسم الميداني «النميداني» ومعناه بالفارسيّة: الذي لا يعرف شيئاً!!!

في مقدّمة كتاب «مجمع الأمثال» يستند النيسابوري في أهمّيّة الأمثال إلى القرآن الكريم كما في قوله: «ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة (يعني كلمة التوحيد) كشجرة طيّبة (يعني النخلة) أصلها ثابت وفرعها في السماء». إذ شبّه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بنباتها، وشبّه صعود عمله إلى السماء بارتفاع فروعها في الهواء. كذلك استعان بالأمثال التي ضربها الرسول الكريم، كما في قوله:

«إنّما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيّبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك وإمّا أن تجد منه ريحاً منتنة» (رواه البخاري).

وتجتمع في عبارة المَثل أربعة، ولا تجتمع في غيره من الكلام، كما قال إبراهيم النظّام: «إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكتابة، فهو نهاية البلاغة». ومن هذا الجانب تنبع أهمّيّة كتاب الأمثال الأدبيّة، إذ يحتوي «مجمع الأمثال» على مجلّدين يضمّان أكثر من ستة آلاف مثل من الأمثال مرتبة ترتيباً ألفبائيّاً، فيبدأ من الأمثال ما أوّله همزة، كالمثل: «إنّ من البيان لسحراً»، نقلاً عن الرسول الكريم، والذي أراد منه «أنّ بعض البيان يعمل السحر؛ ومعنى السحر إظهار الباطل في صورة الحق». فالبيان اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسان، وشُبّه بالسحر لحدّة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له.

وفي مثال «مواعيد عرقوب»، على سبيل التعريف بمنهج الكتاب، يذكر الميداني أصل المثل عن أبي عبيد قوله: «هو رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله، فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها. فلمّا أطلعت أتاه للعدّة، فقال: دعها حتّى

تصير بلحـًا؛ فلما أبلحت، قال: دعها حتّى تسير زهوراً، فلما زهت، قال: دعها حتّى تصير رُطبـًا، فلما أرطبت، قال: دعها حتّى تصير تمراً، فلما أثمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذّها، ولم يعط أخاه شيئـًا»، فذهب مثلاً في الخلف عن مواعيد عرقوب التي لا تتم أبداً.

المجلّد الأوّل من الكتاب فيه ثمانية عشر بابـًا، وعدد صفحاته ٦٨٩ صفحة، وينتهي بحرف العين، أمّا الجزء الثاني فيبدأ من الباب التاسع عشر، أوّله الأمثال التي جاءت في حرف الغين، وينتهي في الباب الثلاثين في بند من كلام الرسول الكريم وخلفائه الراشدين.

•••

٥٨- الكتاب: سِراج الملوك والخلفاء[١]

الطرطوشي (٤٥١-٥٢٠ هـ / ١٠٥٩- ١١٢٧م)

هو أبو بكر، محمّد بن الوليد بن خلف، المعروف بأبي بكر الطرطوشي، نسبة إلى مدينته طرطوشة الأندلسيّة. حفظ القرآن الكريم صغيراً، وتعلّم الكتابة، ودرس الفقه قبل أن ينتقل إلى مدينة سرقسطة؛ حيث تتلمذ فيها على أبي الوليد الباجي، وعلى ابن حزم بإشبيليّة. ثم سافر إلى الشرق، فنزل مكّة المكرّمة، وحضر المدارس النظاميّة، التي أسّسها الوزير نظام المُلك آنذاك. وفي بغداد، درس على كبير فقهاء الشافعيّة أبي بكر الشاشي، وأحمد الجرجاني، وغيرهما. ارتحل بعدها إلى البصرة ودرس على أبي بكر التستري؛ ثم انتقل إلى الشام، فالإسكندريّة، حيث تزوّج من نسائها وسكن فيها. وأجبر هناك على الإقامة الجبريّة في مسجد الرصد في الفسطاط، ومات في القاهرة.

يتألّف كتاب «سراج الملوك والخلفاء ومنهاج الولاة والأمراء وتدبير المُلك والدول» من أربعة وستين فصلاً، تتناول فن الحكم وكيفيّة تدبير أمور الرعيّة. ويتضمّن ما يجب أن تكون عليه خصال الحاكم وعَلاقته ببيت المال؛ فيُعدّد الخصال المحمودة في السلطان التي تُسبغ عليه الكمال، وتُمكّنه من استقرار ملكه ورسوخ حكمه واكتساب حُبّ الرعيّة واحترامهم له. كذلك، يطرح قضية الصفات التي يمتلكها الحاكم وتُوْجب التنبيه إليها، لأنّه إذا جنح إلى الجور فهذا ينبئ بخراب العمران.

كذلك، قدّم الطرطوشي النُصح للوزراء، وحدّد صفاتهم وآدابهم، وأهمّيّة المشورة والنصيحة في جميع القضايا السياسيّة وعلى صعيد المراتب الاجتماعيّة والمناصب

---

(١) أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك والخلفاء ومنهاج الولاة والأمراء وتدبير المُلك والدّول، بيروت: دار صادر، بلا طبعة، بلا تاريخ.

كافّة. ولم يغفل أي جانب من جوانب الحكم. فهو يتحدّث عن سياسة الدولة نحو أهل الذمّة وإدارة أمورهم؛ كما يتحدّث في شؤون الحرب وغيرها من الشؤون الإداريّة والاجتماعيّة والثقافيّة والدينيّة، لكنْ في ضوْء الشريعة، وذلك بحكم اطلاعه الواسع والعميق على تفصيلاتها وتنوّع أصولها الفقهيّة.

ويُعَدّ هذا الكتاب مُختصراً مُفيداً لما جاء في الشريعة، وأخبار الأنبياء، وتاريخ سياسات ملوك الدول المختلِفة من عرب وعجم وروم وفرس وهند وسند وغيرهم. لذلك، فهو في مجمله صياغة نظريّة سياسيّة حكيمة تتعلّق برسم ملامح الدولة السلطانيّة الجوهريّة، مع ملاحظة ما ينبغي أنْ تكون عليه. وفي خضمّ هذه النظريّة، يُوثّق الطرطوشي مرحلة تاريخيّة مهمّة من مراحل تطوّر الفكر السياسي في ذلك العصر، ويصوّر الصراع القائم بين موقف الفقيه المثالي من فلسفته السياسيّة؛ أي ما يجب أن تكون عليه الأحوال في مواجهة الواقع المَعيش من علم السياسة، الذي يتحدّث عمّا هو ممكن وواقعي وبراغماتي.

كذلك، يُعَدّ هذا الكتاب، من زاوية أخرى، شارحـًا ومفسّراً لقواعد فقهيّة شبه ملزمة، لتقييد السلطة وضبطها؛ بحيث تنتهج نهجـًا مسؤولاً يتطلّع إلى خدمة الرعيّة بعدالة وإنصاف، في ضوء منطق الشرع، وفكرة المقاصد، وميزان الترجيح بين المصالح والمفاسد لإدارة شؤون البلاد والعباد، على نحو يضمن ديمومتها واستقرارها. يقول الطرطوشي في الباب السادس من الكتاب: إنّ السلطان ينبغي أن يكون مغبونـًا مع رعيته غير غابن، وينبغي أن يكون خاسراً غير رابح، كما في الرواية الآتية:

«ولمّا حجّ هارون الرشيد، لقيه عبيد الله العمري في طَوافه؛ فقال له: يا هارون! قال: لبيك يا عم! قال: كم ترى ها هنا من الخَلق؟ قال: لا يُحصيهم إلّا الله. قال: إعلم أيّها الرجل أنّ كل واحد منهم يسأل عن خاصّة نفسه، وأنت وحدك تسأل عن جميعهم؛ فانظر كيف تكون. فبكى هارون وجلس؛ فجعلوا يعطونه منديلاً ...».

ويُعَدّ الطرطوشي، إلى جانب ابن حزم، من أهم من صنّف في السياسة والاجتماع في ذلك العصر.

•••

٥٩- الكتاب: قلائدُ العِقيان ومحاسن الأعيان[١]

ابن خاقان (٤٨٠ – ٥٢٨ هـ / ١٠٨٧ – ١١٣٤ م)

هو أبو نصر، الفتح بن محمّد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الاشبيليّ، الملقّب ابن خاقان. كاتب ومؤرّخ عربي ولد في إشبيليّة بالأندلس، ونشأ فيها. كان كثير الترحال والأسفار قال عنه ابن خلكان: «خليع العذار في دنياه، لكنّ كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال». مات قتلاً في فندق بمرّاكش بإيعاز من أمير المؤمنين علي بن يوسف. له الكثير من المؤلّفات، منها هذا الكتاب؛ إضافة إلى «قلائدُ العِقيان في أخبار شعراء المغرب»، و«مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس»، و«راية المحاسن وغاية المحاسن»، و«كنز الفوائد»، و«حديقة المآثر». ولابن خاقان الكثير من الرسائل؛ مثل: «رسالة في ترجمة ابن السيّد البطليوسيّ». وترك أيضًا مقطوعات شعريّة متفرّقة.

أراد ابن خاقان بالعقيان: الذهب المتكاثف في مناجمه والمَعْدِن النقيّ، الذي لايختلط به شيء من الرمال والحجارة. والمقصود هنا الأشخاص الذين اختارهم ابن خاقان للترجمة لهم. ونجح في تخليدهم حقّـًا، لأنّ الكتاب يُعَدّ من أمّهات المصادر في الأدب والتاريخ الأندلسيّ؛ حيث يشتمل على تراجمَ كثيرة لطوائفَ متباينة من أهل الأندلس. وقد وُضع الكتاب في جُزأيْن بأربعة أقسام، اشتمل في مجموعه على ثمان وسبعين ترجمة.

---

(١) ابن خاقان، قلائدُ العِقيان ومحاسن الأعيان؛ تحقيق وتعليق حسين يوسف خريوش، الأردن – جامعة اليرموك: مكتبة المنار، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، في مجلّديْن، أربعة أجزاء.

وجاءت أقسامه كالآتي: القسم الأوّل في محاسن الرؤساء وأبنائهم؛ بدءاً من المعتمد على الله، ثم ابنه الراضي بالله، فالمتوكل على الله، ثم المعتصم بالله، والحاجب ذي الرياستيْن، فالرئيس أبو عبد الرحمن محمّد بن طاهر. والقسم الثاني: ترجمات في غُرر عِلية الوزراء، يبدأ بأصحاب الوزارتين، فأصحاب الوزارة الواحدة. أمّا القسم الثالث، ففي لُمع أعيان القضاة، ولُمع أعلام العلماء: يبدأ من أصحاب الوزارتين، فأصحاب الوزارة الواحدة، ويُضيف إليهم الفقهاء. وأمّا القسم الرابع، ففي بدائع نبهاء الأدباء، وروائع فحول الشعراء: يبدأ من الفقيه الأديب أبو إسحاق بن خفاجة وينتهي بأبي جعفر بن النبي: هكذا جاء الترتيب وعلى نحو تراتُبيّ طبقيّ.

اشتُهر أسلوب ابن خاقان في الكتابة بالسلاسة والجمال: «كالسحر الحلال والماء الزلال»، كما قال ابن خلكان، وذلك لغلبة الموسيقى الشعريّة والبلاغة النثريّة على أعماله؛ في حين اختلف أسلوبه منهجيّاً مع ابن بسام الشنتريني في كتابه «الذخيرة»، كما يقول مُحقّق الكتاب. ففيما كان كتاب «الذخيرة» يحتكم إلى الحقيقة الجغرافيّة للإقليم الواحد من الأندلس، كان «قلائدُ العِقيان ومحاسن الأعيان « يَنزع نزوعاً فنّيّاً مرتبطاً بطباع المؤلّف». ومع ذلك، فقد قلّل بعض الباحثين من شأن موضوعيّته؛ مُدّعين أنّ «الحقيقة الفنيّة» طغت على الموْضوعيّة.

فمثلاً: في مستهلّ القسم الثالث، يُقدّم ابن خاقان ترجمة للفقيه القاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، بدءاً من مدحه ووصفه: «[هو] بدر العلوم الّلائح، وقَطُرها الغادي الرّائح، وثبيرُها الذي لا يُزحم، ومُنيرها الذي يَنجلي به لَيلُها الأسحم ...». لكنّه بعد ذلك، يُخبرنا أنّه كان إمام الأندلس الذي ما لبث أن ارتحل إلى الشرق، ثم استدعاه المقتدر بالله فلبّى النداء.

ويستشهد ابن خاقان ببعض أشعاره التي أنشدها في التحبّب إلى الخليفة؛ كما يذكر أشعاراً مؤثّرة يَرثي بها ابنيْه اللذيْن ماتا مغتربيْن. كذلك، يذكر شعراً في مدح الأمير معزّ

الدولة. وهذا النهج من التودّد والمجاملة كان معروفـًا في تلك الأزمنة؛ إذ كانت أغلب النتاجات الفكريّة تُنجز إرضاء لخليفة ما أو وزير هنا أو أمير هناك، أو لتخليد ذكراهم، أو لاكتساب عيش كريم، وردّ الأذى، واكتساب الشهرة.

•••

٦٠- الكتاب: مقامات الزمخشري[1]

الزمخشري (٤٦٧ – ٥٣٨ هـ / ١٠٧٤ – ١١٤٣ م)

هو أبو القاسم، محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، كان من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب. ولد في قرية زمخشر في تركمانستان، ثم ارتحل إلى بخارى لطلب العلم، وفي طريقه إليها وقع عن راحلته، فعطبت رجله، واضطر إلى قطعها. سكن مكّة، فلقّب بـ «جار الله»، وتوفّي في جورجانيّة خوارزم عند عودته من مكّة. كان ينتمي إلى مذهب المعتزلة، وسعى جاهداً إلى تفسير الآيات القرآنيّة وفق مذهبه. كان معاديًا للشعوبيّة، واعترف بفضل اللغة العربيّة على الفارسيّة. ترك كثيراً من المؤلّفات، من أهمّها: «الكشّاف في التفسير»، و«الفائق في غريب اللغة»، و«الرائض في الفرائض»، و«المنهاج في الأصول»، و«شقائق النُعمان في حقائق النِعمان». وفي النحو له كتب عِدّة مصنّفات؛ منها: «المفصّل»، و«الأنموذج»، و«مقدّمة الأدب»، و«نكت الأعراب في غريب الإعراب»، و«شرح أبيات كتاب سيبويه». وله كتب في الأدب؛ منها: «أساس البلاغة»، و«صميم العربيّة»، و«جواهر اللغة»، و«أعجب العجب في شرح لاميّة العرب»، و«المستقصى في أمثال العرب»، ومصنّفات أخرى كثيرة في الجغرافيا والشعر.

تُعدّ المقامة من أهم فنون النثر العبّاسي. ظهرت مع بديع الزمان الهمذاني، فالحريري في مقاماته الشهيرة، ثم الزمخشري الذي شفع مقاماته بشرح مختصر، وأظهر ما هو غامض من ألفاظها. لكنّ النسق البنيوي لمقامات الزمخشري يدل على أنّها مختلفة؛ من حيث خلوُّها من النمط القصصي (باستثناء مقامة «أيّام العرب»)، ومن مقوّمات

(١) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مقامات الزمخشري: رؤية وتأصيل؛ هارون الربابعة، نبيل حسنين، زياد أبو لبن، بيروت: دار الكتب العلميّة، طبعة أولى، ١٩٨٢.

الفن القصصي (الشخوص والأحداث والأزمنة والأمكنة). فقد اتخذت طابعاً جدّيّاً لطبيعة الموضوعات، لكنّها في الوقت نفسه تشترك مع المقامات البديعيّة بالتزام السجع، وانتقاء الألفاظ والعبارات القويّة، والإكثار من الجِناس والطباق والألفاظ الغريبة والكلمات النادرة؛ فضلاً عن الاستشهاد بالقرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشريفة، والأمثال العربيّة، والحِكم، والأشعار.

ومع أنّ الزمخشري كان من المعتزلة، فإنّ مقاماته لا تكشف عن ذلك. وهو لا ينكر انتماءه إلى فكر المعتزلة، كما يتّضح من كتابه «الكشّاف»، الذي ردّ عليه ابن المنير في كتابه «الانتصاف من الكشّاف». أراد الزمخشري من مقاماته النصح والإرشاد لخاصّة الناس وعامّتهم على حدّ سواء. وأشار إليهم بطبقتين اجتماعيّتين، الأولى: تخصّ أهل الفضل والديانة؛ والثانية: تخصّ أولئك الذين يحسبون أنهم يُحسنون وهم لا يُحسنون.

جاءت مقامات الزمخشري في قرابة خمسين مقامة. وعرّف أبو القاسم المقامة بقوله: «المقام والمقامة: كالمكان والمكانة، مَوضع القيام اتّسع فيهما حتّى استعملا استعمال المكان والمجلس ... . ثم قيل لِما يُقام به فيها من خطبة أو شبهها مقامة؛ كما يقال له مجلس. ويُقال مقامة الخطباء ومجالس القصّاص، كما يُسمّى الجالسون فيها مقامة».

وفي مقامة «المراشد»، يقول الزمخشري: «يا أبا القاسم إنّ خصال الخير كتفاح لبنان، كيفما قلّبتها دَعتك إلى نفسها. وإنّ خصال السوء كحسك السعدان (نوع من النبات) أنّى وجهتها نهتْكَ عن مسّها. فعليك بالخير، إنْ أردت الرُفول (الرُفول هو التبختر بالثوب الجميل) في مطارف العز الأقعس؛ وإيّاك والشر، فإنّ صاحبه ملتف في أطمار الأذل الأتعس». وهناك شرح مفصّل لمفردات هذا النص في الكتاب نفسه وعلى الصفحة ذاتها.

بناءً على ما تقدّم، فإنّ كتاب الزمخشري هو في المقامات وشرحها معاً. ففي بعض الصفحات يكون نص المقامة سطراً واحداً؛ فيما تحتل الهوامش التي تشرحها بقيّة

الصفحات. وتبلغ بعض الشروح على المصطلحات عشرة أسطر وأكثر، تتخلّلها استشهادات بأبيات من الشعر، كقوله: المخيس؛ وهو موضع التخيّس (السجن)، ويشرحه في أحد عشر سطراً، مستشهداً بأشعار من الإمام علي، وغيره. كذلك، يطيل في شرح مصطلح آخر على نحو مماثل، وهو: «ألقى شراشره على كذا»؛ أي ركب عليها.

•••

٦١- الكتاب: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة[١]

الشَنْتريني (ابن بسّام) (٤٥٠ – ٥٤٢ هـ / ١٠٥٨ – ١١٤٧ م)

هو أبو الحسن، علي بن بسّام الشَنْتريني، الملقّب ابن بسّام. ولد في شنترين (الواقعة في البرتغال اليوم) وتوفّي في إشبيليّة. انتقل إلى قرطبة بعد سقوط مدينته بيد الإسبان، وكان قد وصف خروجه من بلدته مقهوراً ومتألّمـاً وصفـاً دقيقـاً. يُعَدّ كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» من أهمّ المراجع الأدبيّة والتاريخيّة في بلاد الأندلس. له عدة مؤلّفات؛ منها: «سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر»، إضافة إلى هذا الكتاب: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة». وله مجموعة مختارة من شعر أبي بكر بن عمار، وكتاب في شعر المعتمد بن عبّاد، وكتاب في شعر ابن وهبون، ورسالة عنوانها سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر، وغيرها.

يقع كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» في ثمانية مجلّدات،يضم كل مجلّد جزأين، وهو في الأصل مقسّم أربعةَ أقسام: القسم الأوّل مخصّص لأهل قرطبة وما يصاحبها من بلاد متوسّطة في الأندلس. أمّا القسم الثاني فلأهل الجانب الغربي من الأندلس ومدينة إشبيليّة، وما حولها وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط. وأمّا القسم الثالث فلأهل الجانب الشرقي من الأندلس. وأخيراً، القسم الرابع المخصّص لمن طرأ على جزيرة الأندلس، من شعراء وكتاب وبعض المشهورين آنذاك والذين عاصروا تلك الفترة، وتشتمل على من قدِم من إفريقيا وبلاد الشام والعراق.

(١) علي بن بسّام الشَنْتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة؛ تحقيق إحسان عبّاس، بيروت: دار الثقافة، بلا طبعة، ١٩٩٧.

يُعدّ الشَنْتريني من أعلام النقّاد الأندلسيّين في القرنين الخامس والسادس الهجريّين، وهو مصدر مهمّ لأي باحث في تاريخ الأندلس وأدبها في فترة ملوك الطوائف، التي تبِعت نهاية الخلافة في قرطبة الأمويّة. وترجع أهمّيّة الكتاب التاريخيّة إلى حفظه لنصوص طويلة من كتاب الشيخ المؤرخ أبي مروان بن حيّان الأندلسي (ت ٤٦٩ هجري) المعنون «المتين»، وهو الكتاب الذي فُقد ولم يصلنا. ويُعَدّ كتاب «المتين» ذاخراً بتاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف بأسلوب بليغ ونهج صادق وصراحة واضحة. ولكن، يمكن القول إنّ الشَنْتريني أضاف إلى ما أرّخ له ابن حيّان، خاصّة في الثلث الأخير من القرن الحادي عشر، أي بعد وفاة ابن حيّان.

يتميّز كتابه أيضـاً بأسلوب بديع، لم يغرق في السجع كعادة معاصريه، وكان مشفعـاً بنماذج ومقتطفات من شعر أعلام الأدباء في تلك الفترة التي عاصرها. ويتّضح من الكتاب إلمام ابن بسّام بتاريخ العرب وحفظه لأشعارهم وأمثالهم، ممّا يدل على أنّ أدباء وعلماء تلك الحقبة من تاريخ الأندلس لم يخلعوا في يوم من الأيّام ثوب عروبتهم وثقافتهم.

انطلق ابن بسام الشَنْتريني في كتابه «الذخائر في محاسن أهل الجزيرة» من مقدّمة الكتاب بتمهيد تاريخي يعزو جزءاً كبيراً من الفضل فيه إلى مؤرّخ قرطبة أبي مروان بن حيّان، كما أشرنا سابقـاً، كذلك نبّه إلى اعتماده تاريخـاً للأندلس كان قد كتبه أبو طالب عبد الجبار المتيني (وهو من جزيرة شقر الواقعة بين بلنسيّة وشاطبة) الذي عاش في مطلع القرن السادس للهجرة في الأندلس.

وعند استكمال التمهيد يبدأ ابن بسّام بتراجم الأعلام، فيذكر اسم المُترجَم له ولقبه ونسبه وبلده، وبعض أشعاره ونثره. وقد أضاف نكهة الهزل في كتاباته إلى الترجمات لتحفيز القارئ على الإطالة في القراءة بلا ملل. وتميّز أيضـاً بمنهجيّته النقديّة والبلاغيّة؛ إذ كان يَذكر أراء النقاد والأدباء، ويُقدّم رأيه الخاص المدعوم بآراء وأحكام منطقيّة تشير إلى معرفته ببلاغات العرب السابقين، ومن خلال نثر أقرب ما يكون إلى نثر الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر».

كان هدف ابن بسّام من كتابه هذا هو التعريف بأهل الأدب الأندلسيّين، وخاصّة لأنّه لاحظ تعلّق أهل الأندلس بمشرقهم، فأراد أن يلفت الانتباه إلى إنتاج الأندلسيّين وبراعتهم أيضـًا. ولكنّه اقتصر في كتابه على أعلام القرن الخامس الهجري، والسبب في ذلك أنّ ابن فرج الجياني في كتابه «الحدائق» قد شمل أعلام الدولتين المروانيّة والعامريّة، إذ يقول ابن بسّام في مقدّمة كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»: «واعتمدت المئة الخامسة من الهجرة فشرحت بعض محنها وجلوت وجوه فتنها، وأحصيت علل استيلاء طوائف الروم على هذا الإقليم الأندلس، وألمحت بالأسباب التي دعت ملوكها إلى خلعهم، واجتثاث أصلهم وفرعهم. وعوّلت في معظم ذلك على تاريخ أبي مروان بن حيّان».

•••

٦٢- الكتاب: المِللُ والنِّحل[1]

الشهرستاني (٤٧٩ – ٥٤٨ هـ / ١٠٨٦ – ١١٥٣ م)

هو الإمام أبو الفتح، تاج الدين عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، المشهور بالشهرستاني، نسبة إلى شهرستان في خُراسان. ولد في شهرستان، ونشأ وتعلّم فيها على فقهاء مثل أحمد الخوافي، وأبي نصر القشيري، وأبي القاسم الأنصاري، وغيرهم. ارتحل إلى بغداد وعمل في المدرسة النظاميّة، ثم عاد إلى مسقط رأسه وتوفّي فيه. كان دمث الخلق، طيّب العشرة، حسن اللفظ والعبارة والخط، وكان مقرّباً لدى السلطان سنجر بن ملك شاه. له الكثير من المؤلّفات في التفسير والفقه وعلم الكلام والفلسفة والتاريخ وتاريخ الفرق؛ منها: «المِللُ والنِّحل» و«نهاية الإقدام في علم الكلام» و«مصارعة الفلاسفة» و«المناهج في علم الكلام» و«دقائق الأوهام»، وغيرها.

يتناول كتاب «المِللُ والنِّحل» في مجمله تاريخ الأديان والمعتقدات، بدءاً من تاريخ حكماء الهند، فأديان الرومان وفلسفتهم، ثم المعتقدات العربيّة الوثنيّة ما قبل الإسلام، والأديان السماويّة مع بعض طوائفها، وصولاً إلى الطوائف الإسلاميّة على تنوعها واختلافها. ويُعدّ الكتاب مرجعاً مهمّاً لديانة الصابئة والأكثر مصداقيّة في شرحها، إلّا أنّ البعض يرى أنّ هناك خلطاً بين الأديان والمذاهب القديمة في العراق، لم يحظَ بعضها بتمييزها عن الصابئة، كحال الكاكائيّة، والزرادشتيّة، والفيليّة، والإيزيديّة، والمانويّة، وغيرها.

---

(١) الشهرستاني، المِللُ والنِّحل؛ تخريج محمّد بن فتح الله بدران، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، الطبعة الثانية، لا تاريخ، في قسمين.

وهناك مأخذ على الشهرستاني بعدم نقده الفرق المنحرفة والرد عليها، كذلك انتقد نقل الشهرستاني عن الشيعة والمعتزلة من دون تمحيص أو توثيق، كما أشار إلى ذلك ابن تيميّة، واتهمه بأنّه قليل المعرفة بالحديث، وغيرها من القضايا الإشكاليّة.

ولكن، يخبرنا الشهرستاني نفسه في مقدّمته أنّه طالع «مقالات أهل العالم من أرباب الديانات والمِلل، وأهل الأهواء والنِحل، والوقوف على مصادرها ومواردها، ... أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوي: جميع ما تديّن به المتديّنون، وأنحله المنتحلون؛ عبرة لمن استبصر، واستبصاراً لمن اعتبر». أطلق العديد من العلماء عليه «الإمام الأفضل الشهرستاني» بالرغم من أنّه اتُّهم بالباطنيّة وبالتشيّع، وذلك لدقّة عرضه للمذاهب، فقد دافع عنه ياقوت الحموي بقوله: إنّه «المتكلم الفيلسوف صاحب التصانيف».

وربّما يعكس الكتاب الظروف الموضوعيّة التي سادت في عصر الشهرستاني، من حيث اتساع الرقعة الإسلاميّة، وانقسام الناس إلى فرق ومذاهب، إذ عاش في عصر كان العبّاسيّون يحاولون استرجاع نفوذهم، فما انفكّوا يطعنون في نسب الفاطميّين، فيما كان الباطنيّون ينشرون الدعوة الجديدة للفاطميّين، فكثر التكفير والتفسيق في تلك الفترة.

يبدأ الكتاب بمقدّمة يضع فيها قواعد منهجيّة قبل الشروع في تقسيم المِلل والنِّحل، حيث قسّم العالم وفق طريقة تنوّع الأمم، كالعرب، والعجم، والهنود، والروم، أو تنوّع الاتجاهات، شمال شرق جنوب غرب، وفسّر كيف انقسموا إلى أهل ديانات وملل وأهواء ونحل. فأرباب الديانات، مثل المجوس، واليهود، والنصارى، والمسلمين، وأهل الأهواء والآراء مثل الفلاسفة، والدهريّة، والصابئة، وعبدة الكواكب والأوثان، والبراهمة. كذلك، وضع في المقدّمة القواعد الفقهيّة التي انقسمت عليها الفرق الإسلاميّة، وجعلها في أربع قواعد سمّاها «الأصول الكبار».

وبناءً على ذلك، يشرح في الباب الأوّل مذاهب المعتزلة، كالواصليّة، والنظاميّة، والجاحظيّة، وغيرها. وفي الباب الثاني يفسر أصناف الجبريّة، ومذاهب الجهميّة،

والنجريّة، والضراريّة. أمّا في الباب الثالث فيتحدّث عن الخلاف بين الأشعريّة، والمشبّهة، والكراميّة. وفي الباب الرابع يميّز الخوارج عن المرجئة، والوعيديّة، وغيرهما. أمّـا في الباب الخامس فيتحدّث عن الإرجـاء، وأصناف المرجئة، من اليونيسيّة، والعبيديّة، والغسّانيّة، والصلاحيّة وغيرها. وفي الباب السادس يشرح معتقدات الشيعة، وما يجمعهم، ويصنّف كبار فرقهم وميولها.

أمّا الجزء الثاني من الكتاب فيخصّه لأهل الكتاب، فجاء الباب الأوّل في اليهود خاصّة، وفروعهم: العنانيّة، والعيسويّة، والسامرة، وغيرهم، وينهيه فيما أجمع عليه اليهود. أمّا الباب الثاني فجاء في النصارى وكبار فرقهم من ملكانيّة ونسطوريّة ويعقوبيّة، وحول الاختلاف مع أصحاب التثليث. وخصّ الجزء الثالث فيمن له «شبهة كتاب»، حيث تحدّث في الباب الأوّل عن المجوس، كالزرادشتيّة، وغيرها. أمّا في الباب الثاني فعن الثانويّة، كالمنويّة، والمستيكيّة، وغيرهما، كذلك عن بيوت النيران للمجوس.

وفي القسم الثاني من الكتاب، تحت عنوان «أهل الأهواء والنِحل»، جاء الجزء الأوّل بحثاً في الصابئة من أصحاب الروحانيّات، وفي مناظرات الصابئة والحنفاء. وجعل الباب الثاني في أصحاب الهياكل والأشخاص ومناظراتهم مع إبراهيم الخليل، فيما خصّص الباب الثالث للحرانيّة ومزاعمهم في التناسخ والحلول.

أمّا الجزء الثاني فخصّصه للفلاسفة. جاء الباب الأوّل في الحكماء السبعة: طاليس، أنكساغورس، أنكسيمانس، أنبادقليس، فيثاغورس، سقراط، أفلاطون. وتحدّث عن اختلاف الأوائل في المبدع والإرادة. أمّا الباب الثاني ففي حكماء الأصول، وقام بتقسيمهم، وناقش آراء ديمقريطس، وإبيقورس، وأبقراط، وبطلميوس، وغيرهم. وخصّص الباب الثالث لمتأخري حكماء اليونان، كأرسطو، والإسكندر الأفروديسي، وغيرهم، أمّا في الباب الرابع فخصّصه للمتأخرين من فلاسفة الإسلام، مثل ابن سينا.

أمّا الجزء الثالث فخصّصه لآراء العرب في الجاهليّة، وبيوت العبادة، وناقش أصناف معطّلة العرب من منكري الخالق، والبعث، والإعادة، والرسل، وعبادة الأصنام. أمّا

الجزء الرابع فجاء حول الهند، في البراهمة أصحاب الفكرة والوهم والتناسخ، وفي أصحاب الروحانيّات وعبدة الكواكب، والأوثـان، وحكماء الهند، وانتقال حكمة فيثاغورس إلى الهند، وأثر حكم الإسكندر المقدوني عليهم.

•••

٦٣- الكتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق[1]

الإدريسي (٤٩٢ - ~ ٥٥٥ هـ / ١٠٩٩ - ~ ١١٦٠ م)

هو أبو عبد الله، محمّد بن محمّد الإدريسي الهاشمي القرشي، عالم عربي مسلم، ولد في مدينة سبتة، ومات في جزيرة صقلية. يُعَدّ من أهم كبار الجغرافيّين الذين أسّسوا لعلم الجغرافيا؛ فضلاً عن إنجازاته في الأدب والشعر والنبات والفلسفة والطب وعلم الهيئة. له مؤلّفات كثيرة، منها هذا الكتاب، الذي يُسمّى أيضاً كتاب «روجر»، لأنّ ملك صقلية روجر هو الذي طلب منه تأليفه. وله كتاب آخر في الجغرافيا سمّاه «روض الأنس ونزهة النفس»، أو كتاب «الممالك والمسالك»، ولم يُعرف منه إلا مختصر له على هيئة مخطوط باسطنبول. وله أيضاً كتاب في المفردات: «الجامع لصفات أشتات النبات»، وآخر هو «أنس المُهَج وروض الفرج».

استدعى ملك صقلية الإدريسي، وكلّفه رسم خريطة العالم كاملة. ولتحقيق ذلك، شكّل الملك لجنة برئاسته، ضمّت الإدريسي ومعه اثنا عشر عضواً، من بينهم عشرة من علماء المسلمين؛ فيما اختار الملك الإدريسي نائباً له. واستغرق العمل خمسة عشر عاماً. وقبل أسابيع فقط من وفاة ملك صقلية روجر عام ١١٥٤ للميلاد، أنجز الإدريسي كتابه الشهير هذا، باللغتين العربيّة واللاتينيّة، مصحوباً بخرائطَ واضحة.

وبمرور الوقت، غدا الكتاب مرجعاً جغرافيّاً عالميّاً، أفاد منه الأوروبيّون في اكتشاف بلاد المشرق، خاصّة لأنّ الإدريسي استخدم في تأليفه نهجاً جديداً عن سابقيه من الجغرافيّين. فوصف العالم كلاًّ متكاملاً، ورسمه كذلك؛ ثم قسّمه سبعةَ أقاليم،

---

(١) محمّد الإدريسي الهاشمي القرشي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينيّة، بلا طبعة، ٢٠٠٢، في مجلّدين.

لكل إقليم أقسامٌ عشرة رئيسيّة. وطور رسم الخرائط بدقّة أكبر ممّا كان معروفاً من قبل. لذلك، بات ممكناً تصوّر العالم على نحو مترابط؛ الأمر الذي سهّل من اكتشافه.

استخدم الإدريسي في كتابه خطوط العرض الأفقيّة على الخريطة لأوّل مرّة في التاريخ؛ فيما كانت خطوط الطول فقط هي المستخدمة قبل الإسلام. وشرح أهمّيّة خطوط العرض من حيث اختلافُ الفصول بين الدول. واستُخدمت خرائطه في كشوف عصر النهضة الأوروبيّة؛ حيث حدّدت رسوماته الواضحة اتجاهات الأنهار والبحيرات والمرتفعات، ورصّعت مواقع المدن الرئيسيّة وما صاحبها من معلومات. كذلك، وضع الإدريسي الحدود السياسيّة لتلك الدول، كما كانت معروفة في تلك الأزمنة.

قدّم الإدريسي العالم على شكل كروي بمساحة محيطيّة تبلغ ٣٧ ألف كيلومتر مربع؛ أي بهامش خطأ أقل من ١٠٪. وكان العالَم قبْله قد قُسّم إلى سبعة مناطق مُناخية كبرى، قُسّم كل منها بدوْره إلى عشرة أجزاء، وَفقاً للتقليد اليوناني الكلاسيكي. أمّا الإدريسي، فتضمّن عمله خرائط لقارة آسيا بالكامل، وكيفيّة ارتباطها بالقارّة الأوروبيّة. ولم يكتفِ بذلك، بل أنتج أيضاً مقاطع طوليّة لتلك المناطق لتوضيح تفصيلاتها وارتباطاتها؛ بحيث أصبح العدد الكلي للخرائط ألف وسبعين خريطة.

واستكمل الإدريسي عمله التاريخي برسمه خريطة دائريّة أصغر حجماً (وضع الجنوب من الجهة العلوية)، ووضع شبه الجزيرة العربيّة في مركز الدائرة، باعتبار مكّة المكرّمة مركز العالم. وظل هذا الكتاب مرجعاً لعلماء النهضة الأوروبيّة مدّة تزيد على ثلاثمئة سنة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ أوّل من حقّق «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» كان المستشرق الإيطالي أومبرتو ريتستانو. كذلك، أطلقت وكالة ناسا الأمريكيّة اسم الإدريسي على سلسلة جبال في «كوكب» بلوتو؛ وهو «الكوكب التاسع» الذي اكتشف عام ١٩٣٠ للميلاد في منظومتنا الشمسيّة [مع أنّ الرأي الأغلب في الوقت الحاضر أنه ليس بكوكب!].

•••

٦٤- الكتاب: التذكرة الحمدونيّة[1]

ابن حمدون (٤٩٥ – ٥٦٢ هـ / ١١٠٢ – ١١٦٧ م)

هو أبو المعالي، محمّد بن الحسن بن محمّد بن علي بن حمدون بهاء الدين البغدادي، المُلقّب بأبي المعالي. اشتهرت أسرته بالرياسة، والفضل، والرواية، والكتابة. ولد في بغداد، وتتلمذ على إسماعيل بن فضل الجرجاني، وغيره. ترقّى في وظائف الدولة وأصبح صاحب ديوان «الزمام» في زمن المستنجد بالله، وبات لقبه «كافي الكفاة»، بعد أن حباه الخليفة المستنجد بمكانة خاصّة. كما كان «عارض العسكر» في زمن المقتفي لأمر الله. عُرف ابن حمدون بالفصاحة وموهبة الكتابة وفنون الأدب وعلم التاريخ، لكنّه عانى من السجن حيناً، نتيجة بعض التقصير، أو بسبب بعض الأخبار والقصص التي نشرها في كتابه «التذكرة الحمدونيّة». توفّي في المدائن أوائل سنة ٥٦٢ للهجرة، ودفن في مقابر قريش.

جاءت «التذكرة الحمدونيّة» في إثني عشر مجلّداً، كما ذكر الصفدي، ونسبها بعضهم إلى ابنه (مثل أبو شامة في «ذيل الروضتين» صفحة ٧٩، والذهبي في كتابه «العِبر»، الجزء الخامس صفحة ٢٧). ووصفه العِماد بأنّه كتاب كبير فيه الغث والسمين، فيما ذكر المنذري أنّه كتاب مشهور أجاد فيه مؤلّفه، بيما قال الدبيثي إنّه يحتوي على فنون أجاد فيه وأحسن في جمعه. وقال ابن خِلّكان: «من أحسن المجاميع، يشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشعار، لم يَجمع أحد من المتأخرين مثله، وهو مشهور بأيدي الناس كثير الوجود، وهو من الكتب الممتعة».

---

(١) محمّد بن الحسن بن حمدون، التذكرة الحمدونيّة؛ تحقيق إحسان عبّاس وبكر عبّاس، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، في عشرة مجلّدات.

ويقول ابن حمدون نفسه عن كتابه في مقدّمته: «ونظمت فيه فريد النثر ودرره، وضمّنته مختار النظم ومحيّره، وأودعته غرر البلاغة وعيونها، وأبكار القرائح وعونها، وبدائع الحكم وفنونها، وغرائب الأحاديث وشجونها».

يمتاز كتاب «التذكرة الحمدونيّة» بالأمثال والحِكم والحكايات والأخبار والنوادر، ولا يُقتصر على توفّير العلم والمعرفة، وإنّما يشمل أيضاً الترويح والمُتعة والعِبرة والتأدّب والتثقّف والموعِظة. وجعلها ابن حمدون في خمسين باباً، وكل باب له فصول عدّة. وكان الخَلط بين الهزل والجِد مميّزاً في كتابات ابن حمدون، إذ جاء الهزل في ذيل كل باب من الأبواب الخمسين، باستثناء الباب الثامن والأربعين المخصّص للنوادر والمُجون، وباستثناء الباب التاسع والأربعين المخصّص للتاريخ، بينما تميّزت كتب بعض التراث الأخرى بالخلط بين الجد والهزل أينما اتّفق.

وإذا ألقينا نظرة شموليّة على الكتاب نجد أنّ الأبواب من الرابع إلى السادس عشر تتحدّث عن الأخلاق، كالسخاء والشجاعة والبخل والجبن والغدر والوفاء والكذب والصدق والكِبر والتواضع والحرص والقناعة ... إلخ، أمّا الأبواب بين السابع عشر والتاسع والعشرين فتمتاز بنزعة أدبيّة شعريّة موضوعها المدح والرثاء والتهنئة والهجاء والعتاب والغزل والوصف ... إلخ. وأمّا الأبواب الواقعة بين ثلاثين إلى ثلاثة وثلاثين فتغلب عليها فنون النثر، كالخطابة والكتابة والأجوبة المُسكتة والأمثال وما إليها. وأمّا الأبواب الأخيرة فلا يربطها رابط بما سبقها، كالباب في الخمر، مثلاً، رقم ٤٤، الذي كان من الممكن أن يُدمج في الأبواب السابقة.

وبالرغم من حرص ابن حمدون على التصنيف وترتيب الموضوعات إلّا أنّ موسوعته فيها بعض التداخل، كما يقول محقّقا الكتاب، كالتداخل القائم بين الباب الثاني والباب الثاني عشر، إذ تدور موضوعات الباب الأوّل في السياسة والآداب والملوك، وهي موضوعات تتصل وتترابط بموضوعات الباب الثاني عشر في العدل والجور والمشورة والرأي.

أمّا الأكثر تميّزاً في «التذكرة الحمدونيّة» فهو قلّة الاستشهاد بآراء المؤلّف وتجاربه الذاتيّة، رغم وجود بعضها منثوراً هنا وهناك، ولكنّنا إذا قارنا الكتاب بالبصائر (كتاب أبو حيّان التوحيدي) فيظل محافظاً ومحايداً، لأنّ الأخير سُجّلت فيه تجاربه الشخصيّة وآراؤه الخاصّة، فغدا أكثر ثراءً.

•••

٦٥- الكتاب: الأنساب[١]

السّمعاني (٥٠٦ – ٥٦٢ هـ / ١١١٣ – ١١٦٧ م)

هو أبو سعد، عبد الكريم بن محمّد بن منصور السّمعاني المروزي الشافعي. ولقب المروزي نسبة إلى بلده «مرو» التي ولد فيها. نشأ في أسرة من العلماء والصالحين، عاش في نيسابور، وتعلّم الفقه والعربيّة والأدب والحديث على علماء كبار، منهم: عبد الغفار بن محمد الشيرويي مسند زمانه، وأبو بكر النيسابوري، وأبو القاسم الجرجاني، وأبو الفرج الأصبهاني، وغيرهم. تنقّل بين خُراسان وأصفهان وما وراء النهر والعراق والحجاز والشام وطبرستان وبلاد الشام، واشتغل بالجمع والتصنيف والتدريس بالمدرسة العميديّة. له الكثير من المؤلّفات، نذكر منها: «تاريخ مرو»، و«طراز الذهب في أدب الطلب»، و«الإسفار عن الأسفار»، و«التذكرة والتبصرة»، و«معجم البلدان»، و«معجم الشيوخ»، و«تحفة المسافر»، و«فضائل الشام»، وغيرها.

يبدأ عبد الكريم السّمعاني كتابه «الأنساب» بمقدّمة يُوضّح فيها لماذا يُعدّ علم المعارف والأنساب من أهمّ العلوم، وفق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، آية ١٣). ويعتقد أنّ معرفة الأنساب هي من أعظم النعم التي أكرم الله بها عباده، لأنّ تشعّب الأنساب على افتراق القبائل والطوائف هي أحد الأسباب الممهّدة لحصول الاختلاف الذي يُحفّز التطوّر. كذلك الأمر في اختلاف الألسنة والصور وتباين الألوان والفطر، وفقًا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ

(١) عبد الكريم بن محمّد السّمعاني، الأنساب؛ وضع حواشيه محمّد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، في عدّة أجزاء.

وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (سورة الروم، آية ٢٢).

ويخبرنا السّمعاني أنّه كان يتتبّع ذلك في رحلاته، فيسأل الحُفّاظ عن الأسباب وكيفيّتها، وإلى أي شيء نُسب كل أحد، ويقول: «... وأثبت ما كنت أسمعه، ولمّا اتفق الاجتماع مع شيخنا وإمامنا أبي شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي، ... فكان يحثّني على نظم مجموعة في الأنساب وكل نسبة إلى قبيلة أو بطن أو ولاء أو بلدة أو قرية أو جَدّ أو حِرفة أو لقب لبعض أجداده، فإنّ الأنساب لا تخلو عن واحد من هذه الأشياء، فشرعت بجمعه بسمرقند في سنة خمسين وخمسماية، ...».

وبعد التقديم للكتاب ينتقل السّمعاني إلى فصل يحثّ على تعلّم الأنساب ومعرفتها، يليه فصل عن نسب رسول الله، فنسب بني هاشم، ثم نسب مضر، فقحطان، فقبائل العرب الأخرى، وبعدها يبدأ بترتيب الأسماء ترتيباً ألفبائيّاً، حيث ينطلق من «الآبجيّ»، ويقول فيه:

«الآبجيّ: بفتح الألف الممدودة، وفتح الباء الموحدة، ثم جيم، هذه النسبة إلى «آبج، موضع ببلاد العجم، منه: أبو عبد الله محمّد بن محموي الآبجي، روى عن أبيه وعنه أبو النظر محمّد بن محمّد بن يوسف الفقيه، أخرج حديثه الحاكم في أماليه».

وفي مثال آخر حول طريقة تأليف الكتاب، اخترنا ما كتب عن نسب أبو الروح الفرج بن أبي بكر بن الفرج الأرموي، حيث يقول فيه ما يلي:

«من أهل أرمية، فقيه فاضل صالح سديد السيرة، تفقه بلوقان طوس على شيخنا محمّد بن أبي العبّاس ولقيته بها، وسمع معي التفسير للثعالبي عن أبي سعد ناصر بن سهل البغدادي ومحمّد بن أبي سعد بن حفص نوقاني بروايتهما عن أبي سعد الفرخزاذي عن المصنف، ثم قَدِم مرو، وأنا غائب عنها في رحلة العراق، وبقي عندنا إلى الساعة وأسكنته خانيقاه عند عبد الله بن الحلواني، كتب عني الكثير في الإملاء والسماع، وكتبت عنه أقطاعاً من الشعر».

يستند السّمعاني بشكل أساس على مقولة الرسول الكريم: «تعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم»، ويُذكّرنا بأهمّيّة الأنساب على لسان الثقات عبر صور متعددة وأشكال مختلفة، لأنّ صلة الرحم محبّة في الأهل. هذه وجهة نظر السّمعاني في القرن السادس الهجري، ولكنْ من الواضح أنّ التنوع الذي تشكّلت منه الحضارة العربيّة الإسلاميّة استدعى فيما بعد أنْ يبتدع الناس لأنفسهم أنساباً تناسب الظرف الذي يعيشونه، بل وصلت أيضاً إلى حد السعي إلى نفي أهمّيّة الأنساب في القرون اللاحقة، كما جاء في لاميّة الشاعر ابن الوردي (ت ٧٤٩ هجري):

لا تــقــل أصــلــي وفــصــلــي أبــدا

إنــمــا أصــل الــفــتــى مــا قــد حــصــل

وكانت كتابة الأنساب في فترة من الفترات تجارة، فمثلاً في كتاب «فوات الوفيّات»، الجزء الأوّل صفحة ١١٢، وكذلك في كتاب «الوافي بالوفيّات»، الجزء السابع صفحة ٣١١، هناك إشارات واضحة وصريحة إلى أنّ ابن خِلّكان عمل سيرة «للملك الظاهر بيبرس الصالحي النجمي، صاحب مصر وبلاد الشام، وأوصل فيها نسبه إلى جنكز خان، فارتاح بيبرس بهذا النسب، وطلب من أعوانه أن يستدعوا ابن خِلّكان الكائن آنذاك بالقاهرة؛ ليقدم إلى دمشق ويُعيّن وزيراً».

•••

٦٦- الكتاب: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب[1]

الغرناطي (٤٧٣ – ٥٦٥هـ / ١٠٨٠ – ١١٧٠ م)

هو أبو حامد (وأبو عبدالله)، محمّد بن عبد الرحيم الغرناطي، أصوله من القيروان، ولكنّه ولد في غرناطة. نزل بالإسكندريّة ومصر والسودان في عدّة رحلات، ثم ارتحل إلى إيران، ثم بغداد حيث حدّث فيها، وسافر عبر بحر قزوين حتّى وصل إلى الأراضي الروسيّة، عند مصب نهر الفولغا. زار خوارزم وبلغاريا وهنغاريا، وعاد إلى بغداد، واستقر في الموصل، وبعدها نزل بلاد الشام، وأقام في مدينة حلب قبل عودته إلى دمشق، ليموت فيها. من أهم مؤلّفاته التي وصلتنا: «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب»، و«المعرّب عن بعض عجائب المغرب»، و«المغربان بعد عجائب البلدان»، و«نخبة الأذهان في عجائب البلدان»، و«تحفة الكبار في عجائب البحار»، وكتاب «عجائب المخلوقات»، وغيرها.

كتب الغرناطي «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» بأسلوب أدبي رفيع، وبعقل متحفّز للنقد قام على التحقّق من الأخبار التي يسمعها. ويُعدّ أوّل من أسّس «مدرسة العجائب»، من حيث رواياته عن عجائب الدنيا وغرائبها، التي شهدها خلال أسفاره. استشهد الكثيرون من الكُتّاب بأعمال الغرناطي واقتبسوا منها ، مثل القزويني، وابن الوردي، والدميري، والقلقشندي، والمقريزي، والأبشهي، وابن إياس، وغيرهم.

ربّما يكون المستشرق الروسي من الأصل الألماني يوهان برنارد دورْن J. Bernard Dorn هو أوّل من أشار إلى أهمّيّة الكتاب التاريخيّة والجغرافيّة. وتبعه

---

(١) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب؛ تحقيق إسماعيل العربي، المغرب: دار الأفاق الجديدة، طبعة أولى، ١٩٩٣.

مارسيل ديفيك Marcel Devic، ثم جورج يعقوب George Jacob، الذي اهتم بالقسم الخاص بمصر والسودان والأراضي الآسيويّة الداخليّة، وأكّد على واقعيّة الروايات التي وُسمت فيما مضى من بعض المؤرخين أنّها مجرّد أساطير وخرافات. وجاء المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٣٣ – ١٩٥٩ للميلاد) في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» لكي يضع أبا حامد الغرناطي في مصاف الإدريسي من حيث الأهمّيّة والأثر.

وبالرغم من أنّه اعتُبر مؤسّس «مدرسة العجائب»، بفعل رواياته عن العجائب التي رآها أو سمع عنها في البلاد البعيدة، فربّما كان بعضها من نسج الخيال، ولكنّه لا ريب شهد على الكثير من أحداث وأخبار لم تصل المسلمين من قبل، منها بعض الوقائع التاريخيّة، كوصفه لأعمدة هرقل عند مضيق جبل طارق، وذلك قبل أن تنهار عام ١١٤٥ للميلاد، كما رأى منارة الإسكندريّة في صورتها الكاملة، قبل دمارها بالزلازل، وأيضا رأى المسلّة الفرعونيّة في عين شمس قرب القاهرة، قبل أن تسقط عام ١١٦٠ للميلاد.

وربّما كان السبب في التركيز على الغرائب والعجائب التي دَوّنها في كتابه أنّ الغرناطي كان يتجوّل في مناطق لم يصلها الرحّالة العرب من قبل، لذلك سعى إلى تدوين كل ما كان يشاهده من الغرائب والعجائب، كطائر الرّخ الضخم، على سبيل المثال، الذي وصفه من قبله ابن سعيد، وماركو بولو، بعدة قرون.

أمّا مساهمة أبي حامد الغرناطي في علم الجغرافيا، فغنيّة عبر توثيقها للكثير من الأمصار، باستثناء بلده الأندلس التي بالكاد ذكر عنها شيئاً في كتابه، رغم أنّه تركها وهو ابن ثلاثين، وهي مسألة تبقى غامضة التفسير. كذلك، كانت المعلومات التي قدّمها عن الهند والصين فقيرة جداً مقارنة بوصفه الدول المحيطة ببحر قزوين، وخاصّة في حوض الفولغا الأوسط والأدنى، وحول شعوب القوقاز، والتي أعطاها أهمّيّة قصوى وعناية بالغة. وربّما كان السبب في ذلك استقرار ابنه هناك، حيث توجّه ابنه إلى بلاد

المجر وامتلك فيها منزلاً، سنة ٥٤٥ للهجرة، وفيها تزوّج ولدُه الأكبر حامد بسيّدتين من أهل تلك البلاد.

ويقع الكتاب في باب أوّل يَصف فيه الدنيا وسكانها، أمّا الباب الثاني فيصف عجائب البلدان وغرائب البنيان، كمدينة النحاس، والجن المسجون في البحيرة. ويتحدّث عن روميّة العظمى ومنارة الإسكندريّة، وما إلى ذلك من الأماكن والآثار العظيمة آنذاك. وفي باب ثالث يصف البحار، وعجائب حيواناتها، وما تحتويه جرائرها من عنبر وقار ونفط ونار. ويحتوي الباب الرابع على صفات بعض الحفائر والقبور، ويتحدّث فيه عن عجائب القبور والموتى.

يمتاز الكتاب بالحوار الهادئ، كمثل الحوار الذي قام بين أبي حامد وملك البلغار، الذي كان قد أسلم حديثاً، فمثلاً، لمّا رأى الغرناطي بعض المسلمين يشربون الخمر سعى لدعوتهم إلى تركه، وأباح لهم أربعة من الحرائر مقابله، فضلاً عن الجواري بما ملكت أيمانهم. واستجابوا لدعوته، ولكن ما لبث أنْ شرع الملك نفسه يُنكر عليه دعوته تلك قائلاً: «ليس هذا من العقل لأنّ الخمر يقوّي الجسد وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر، ودين الإسلام لا يكون على وقف العقل». فماذا كان ردّه؟

ردّ أبو حامد بهدوء وموضوعيّة أنّ النصراني يشرب الخمر ومعدته مليئة بالطعام، فيصبح الخمر بمنزلة الماء فلا يسكر، أمّا المسلم فإذا أقدم على شربه فهو يطلب السكر، لذلك يذهب عقله، فيكون مهيّئاً لأن يزني أو يقتل، بل وأنْ يكفر أيضاً، فيبيع سلاحه وفرسه. وهكذا، فإذا أُمر بالغزو، فإنّه لا يجد سلاحاً أو دابة يركبها، وأمّا الجواري والنساء فكثيرة ولا خوف من نقصها».

بهذا الحوار الهادئ والحجّة القويّة استطاع أبو حامد أنْ يحدّ من شرب المسلمين الخمر في بلغاريا، وهو أسلوب حكيم في الدعوة إلى الإسلام تم نهجه في البلاد البعيدة عن المراكز الإسلاميّة بنجاح.

•••

٦٧- الكتاب: تاريخ مدينة دمشق[١]

ابن عساكر (٤٩٩ – ٥٧١ هـ / ١١٠٦ – ١١٧٦ م)

هو الإمام أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، الدمشقي الشافعي، المعروف بابن عساكر. ولد في دمشق في بيت جليل، سَمع لأبي القاسم النسيب، وأبي طاهر الحنائي، وعبد العزيز الكتّاني، وغيرهم. اتّجه نحو رواية الحديث، وارتحل عن دمشق طلباً للتعمّق فيه، وكانت بغداد محطّته الأولى، فتلقّى الأسانيد العالية فيها. ثم قصد الحج، وسمع بمكّة عبد الله المصري، وعبد الخلاق الهروي، وغيرهما. عاد إلى بغداد، فالكوفة، فبلاد العجم في أصفهان، ونيسابور، وتبريز، وهمذان، وغيرها، حيث التقى في نيسابور بالسّمعاني، وسمع أبا عبد الله الفراوي، ولازمه. ثم عاد إلى بغداد، وقفل منها عائداً إلى دمشق ليستقر فيها. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: «إتحاف الزائر»، و«أربعون المساواة»، و«أربعون المصافحات»، و«أمالي في الحديث»، و«فضل أصحاب الحديث»، و«طرق قبض العلم»، و«العزلة»، و«معجم النسوان»، و«معجم أسماء القرى والأنفار»، و«معجم الشيوخ النبلاء»، وعشرات غيرها.

قال الشيخ النووي (في طبقات السبكي ٧/ ٢١٩) في ابن عساكر: «هو حافظ الشام، بل هو حافظ الدنيا، الإمام مطلقاً، الثقة الثبت». أمّا كتابه «تاريخ مدينة دمشق» فيتضمّن تأريخاً للمدينة في عصر ابن عساكر مع التوسعة لتشمل بلاد الشام بأسرها، فجعل المجلّدة الأولى مخصّصة لفضائل الشام، ومخطّط مدينة دمشق، ومساجدها،

---

(١) علي بن الحسن الشافعي (ابن عساكر)، تاريخ مدينة دمشق؛ دراسة وتحقيق مُحبّ الدين العَمْروي، بيروت: دار الفكر، بلا طبعة، ١٩٩٥، في ثلاثة وعشرين جزءاً.

وكنائسها، وأبوابها، ودورها وأنهارها، وقنواتها، ثم شرع في الترجمة للأشخاص الذي دخلوها أو اجتازوها من الأنبياء، والخلفاء، والولاة، والشعراء، والرواة، وغيرهم.

يتوسّع ابن عساكر في «تاريخ دمشق» لتقديم أطراف من تاريخ الجاهليّة ليكون مقدّمة للسيرة النبويّة، والعصر الراشدي، والخلافة الأمويّة، والعبّاسيّة، والدويلات اللاحقة، حتّى وفاته في أواخر القرن السادس للهجرة. ولكنّ أبا القاسم كان محدّثاً قبل أن يكون مؤرّخاً، لذلك غلب عليه الحديث، فتعمّق في معرفته، ونهج منهجه في كتابه عن تاريخ دمشق، حيث بدأ بالسَنَد أوّلاً، وصولاً إلى الخبر لاحقاً.

أمّا التراجم فقد تم ترتيبها وفقاً لحروف الهجاء، فبدأ من «أحمد» قبل «إبراهيم»، وعلى لسان المحقّق نتابع تفصيله لمنهج الفهرسة، كما يلي: «واعتبر الحروف في أسماء أبائهم وأجدادهم، وأردف ذلك بمن عُرف بكِنيته ولم يقف على حقيقة تسميته، ثمّ بمن ذكر بنسبته وبمن لم يُسم في روايته، وأتبعهم بذكر النسوة، والإيماء والشواعر». وجاءت الترجمات في ٢٨٥٢ ترجمة، مسندة في كل تفاصيلها من جهة الاسم والكنية وتاريخ الوفاة.

فإذا أخذنا نموذجاً للترجمات، ما يخصّ صخر بن نصر بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد ابن عُوَيج بن عَدِي بن كعب بن لؤي بن غالب القُرشي العَدَوي، على سبيل المثال، فإنّنا نرى التفاصيل عندما يُوثّق الاسم والنسب، ثم يقول عن صخر إنّه: «أدرك النبي وشهد اليرموك، واستشهد به ولا أعلم له رواية. ويقال: مات في طاعون عَمواس، ويقال قتل يوم أجنادين». ثم ينقل لنا خبر ولادة صخر عن أبي غالب قوله: «أخبرنا أبو غالب، وأبو عبد الله ابنا أبي علي، قالا: أنا أبو جعفر بن المَسْلَمه، أنا أبو طاهر المَخَلّص، أنا أحمد بن سليمان، أنا الزبير بن بكار ... إلخ». ثم يذكر لنا سلسلة أخرى من الأسانيد المتواترة تُخبرنا أنّ صخراً بن نصر بن غانم قُتل يوم أجنادين.

قال الخطيب أبو الفضل الطوسي عن ابن عساكر: «ما نعرف من يستحق هذا اللقب سواه – يعني لفظة الحافظ»، أمّا ابن خِلّكان (في وفيات الأعيان: ٣/ ٣٠٩)، فيقول:

«كان محدّث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعيّة، غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه إلى أنْ جمع منه ما لم يتّفق لغيره».

وهكذا، فقد كتب لنا ابن عساكر التاريخ بالمنهج نفسه الذي استخدمه في كتابة الحديث الشريف، وقرأه عليه ابنه القاسم، فصحّحه قبل وفاته، بعد أن أمضى عمره كلّه في جمعه وتأليفه، الأمر الذي يجعل من أخباره الأكثر ثقة، مقارنة بغيرها من المؤلّفات عن تاريخ دمشق.

•••

٦٨- الكتاب: نزهة الألباء في طبقات الأدباء[١]

الأنباري (٥١٣ – ٥٧٧ هـ / ١١١٩– ١١٨١م)

هو أبو البركات، عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمّد بن عبيد الله بن محمّد الأنباري، نسبة إلى محافظة الأنبار في العراق، والملقب كمال الدين النحوي؛ هو من علماء اللغة والأدب والتراجم، سكن بغداد، وتوفّي فيها. اشتهر في علوم اللغة والأدب والنحو والتاريخ، ودرس على الشيخ الصالح، وتفقّه في المدرسة النظاميّة على ابن الرزّاز، وابن الشّجريّ. عُرف عنه الورع والتقلّل والنسك وتَرْك الدنيا ومتاعها. له الكثير من الكتب؛ منها: «الاختصار في الكلام»، و«أسرار العربيّة»، و«أصول الفصول في التصوّف»، و«بغية الوارد»، و«البيان في غريب إعراب القرآن»، و«تاريخ الأنبار»، و«تفسير غريب المقامات الحريريّة»، و«لباب الآداب»، وغيرها. ذكر بروكلمان أنّ له كتاباً اسمه «تفسير الأحلام»، فيما لم يذكره السيوطي أو الصفدي أو صاحب كشف الظنون، فربّما يكون كتاب «تفسير المقامات» قد تحوّل بالتصحّف إلى «تفسير المنامات»، ثم أصبح «تفسير الأحلام».

كتاب «نزهة الألباء في طبقات الأطبّاء» كان مرجعاً شائعاً بين المتأدّبين في ذلك العصر لأنّه احتوى على الكثير من الحقائق الأدبيّة، والمعارف التاريخيّة، والشعر، والتعريف بالكتب، فضلاً عن طرائف الأخبار والأعلام. فمثلاً، في رواية حمّاد الراوية ١٢، فإنّه يُعرّف به أنّه كان من أهل الكوفة واشتهر برواية الأشعار والأخبار، وأنّه جمع السبع الطوال. كما يذكر أنّه كان منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك، وعندما أفضت

(١) جمال الدين عبد الرحمن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء؛ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار الفكر العربي، بلا طبعة، ١٩٩٨.

الخلافة إلى هشام أخيه الذي كان يجفيه، مكث في بيته سنة كاملة لا يخرج منها خوفاً من الخليفة.

وأخيراً، طُلب منه أن يذهب إلى دمشق كي يمثل بين يدي الخليفة هشام، ففعل. وكان عند الخليفة جاريتان جميلتان قالت إحداهما بيتاً من الشعر، وما لبث أن سأله الخليفة: مَنْ صاحب هذا البيت؟ فرد عليه بأنّه عدي بن زيد، فطلب منه أن ينشد القصيدة، فأنشدها، فطرب له الخليفة وكافأه بأن طلب من الجارية أن تسقيه، وأهداه الجاريتين مع مجموعة من الخدم. ويحتار المرء من دقّة هذه الرواية، وغيرها من روايات مماثلة في الكتاب، ولكنّها تقدّم فكرة عن أحوال ذلك العصر خير تقديم.

وتحت رقم ١٥، هناك حديث عن الخليل بن أحمد البصري الفرهودي الأزدي، سيّد أهل الأدب قاطبة، كما يقول الأنباري، ويكتب عن حياته وكيف أخذ عن سيبويه، وأنّه أوّل من استخرج علم العروض، وضبط اللغة، وأملى كتاب «العين» على الليث بن المظفّر. كما كان أوّل من حصر أشعار العرب، وفي الوقت نفسه كان من الزهّاد في الدنيا، المعرضين عنها. ويستشهد ببعض أشعاره، وبما قاله الرواة عنه ببعض التفصيل. وهكذا حال تعامله مع ترجمات الأعلام الآخرين من الأدباء والشعراء.

وفي حديثه عن سيبويه، على سبيل المثال، ذكر أصوله، وحدّد أصحابه، ...إلخ. وواضح من الحوارات أنّ سيبويه، شأنه شأن المسلمين الجدد من غير العرب، كانوا يلحنون عند تكلّم العربيّة. لذلك، عندما كان يصحّح العرب لغتهم متى تكلّموا وألحنوا، لم يحتمل بعضهم هذا النقص، مثل سيبويه، فقال: «لأطلب علماً لا تحلن فيه أبداً، وطلب النحو». إذ يتّضح من ذلك سعيهم لبناء قواعد اللغة ونحوها حتّى يتكلّموا اللغة العربيّة من دون أن يخطئوا فيها.

يحتوي الكتاب على ترجمات ١٨١ علماً من أعلام الأدب، يبدؤها بأبي الأسود الدؤلي، وينتهي بابن الشّجريّ، العالم النحوي الذي أملى كتاب «الأمالي» الذي يشتمل على فنون كثيرة من علم الأدب. وتلي هذه الترجمة فهارس قرآنيّة، ففهرس في

الأحاديث النبويّة، وآخر في الكلمات اللغويّة، وفي الأمثال، وفي الشعر، وفي الرجز، وفي الأعلام، وفي القبائل والأمم، وفي الأماكن والبقاع. وينتهي الكتاب بفهرس للكتب من أمّهات المصادر والمراجع.

ومن الملاحظ أنّ بداية الكتاب انطلقت من ترجمة أبي الأسود الدؤلي، واضع أسس النحو، تلتها ترجمة «عنبست الفيل»، الذي أقام في البصرة، وكان من أبرع أصحاب الدؤلي، أمّا ثالث ترجمة فتخصّ «نصر الليثي» الذي قرأ القرآن على أبي الأسود، وكان فقيها عالماً بالعربيّة. وهؤلاء الثلاثة هم من أجمع أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هجري) على أنّهم في مقدّمة المئة شاعر الذين اختارهم بلاط الخليفة.

•••

٦٩- الكتاب: الصّلة[١]

ابن بَشكُوَال (٤٩٤ – ٥٧٨ هـ / ١١٠١ – ١١٨٣ م)

هو الإمام أبو القاسم، خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بَشْكُوال بن يوسف بن دَاحَة الأنصاري، الخزرجي الأندلسي القرطبي. ولد وعاش في قرطبة، وكان أبوه إمام مسجد، وفقيهـًا مالكيّـًا عُني بدراسة الفقه. أخذ ابن بَشكُوَال الفقه عن والده، وعن أبي محمّد بن عتاب، وأبي الوليد ابن رشد، وأبي بحر الأسدي، وغيرهم. تولّى القضاء ببعض جهات إشبيليّة. له أكثر من خمسين مؤلّفـًا، فيما ذكر الذهبي أنّ له اثنين وعشرين مؤلّفـًا؛ منها: «الصّلة»، و«معجم شيوخه»، و«الغوامض والمبهمات»، و«المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل»، و«تاريخ صغير في أحوال الأندلس»، و«قضاء قرطبة»، وغيرها. وله مجموعة كبيرة من السير المفردة لبعض الأعلام، كابن المبارك، والأعمش، والنسائي، وابن وهب، وغيرهم.

وصفه الذهبي بالإمام «العالِم الحافظ الناقد المُجوّد، محدّث الأندلس، وحافظها في عصره، ومؤرّخها، ومسندها». ألّف ابن بَشكُوَال هذا الكتاب كي يكون صلة لتاريخ الحافظ أبي الوليد عبد الله الأزدي، المعروف بابن الفرضي، والموسوم بـ «تاريخ علماء الأندلس»، وذلك كي يستوعب التراجم الجديدة، من الأئمّة والفقهاء والمحدّثين والأدباء الأندلسيّين، التي ظهرت بعد وفاة ابن الفرضي، كما يخبرنا محقّق الكتاب بشّار معروف بقوله: «ويستدرك بعض ما فاته منها، ورتبه على ترتيب كتاب ابن الفرضي، حيث ترتيب التراجم على حروف المعجم في الأسماء الأولى، ثم ترتيب كل اسم على الوفيّات، وهي طريقة قديمة معروفة».

---

(١) ابن بَشكُوَال، الصّلة؛ حقّقه وضبط نصه وعلّق عليه بشار عواد معروف، تونس: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

وتنبع أهمّيّة كتاب «الصّلة» لابن بَشكُوَال من كونه مصدراً للذين أرّخوا لتراجم الأندلسيّين في تلك الفترة من الزمان، ومنهم الذهبي في كتابه «تاريخ الإسلام»، وكتبه الأخرى. وقال فيه ابن الأبار القضاعي (ت ٦٥٨ هجري) : «وألّف خمسين تأليفاً في أنواع مختلفة أجلُّها كتاب الصّلة، سَلَّم له أكفؤه فيه، ولم ينازعه أهلُ صناعته الانفراد به، ...، بل تشوّفوا للوقوف عليه وأنصفوا من الاستفادة منه ... وهو كتاب في فَنّه خطيرُ القيمة ضروريّ الاستعمال، لا يستغني أهل الفقه عن التبلغ به والنظر فيه والاحتجاج منه. وأغلاطه الواقعة له فيه قليلة، وقد نبهتُ على أكثرها في كتابي هذا، واستدركت ما أغفل، وتَمّمتُ ما نقصَ وجوّدتُ ما اقتضب ممّا وقع إليّ وترجّح لديّ».

ويلاحظ أنّ هناك أسماء عديدة وترجمات لشخصيّات من الأندلس، كان قد زادهم ابن بَشكُوَال في أواخر عمره على مؤلّفه «الصلة»، ومنهم: أحمد بن بشر القرطبي، وأحمد بن صارم النحوي الباجي، وأحمد بن محمّد القرطبي، وأحمد بن طاهر الأنصاري، وغيرهم، وصولاً إلى يوسف بن موسى الكلبيّ الضرير، من أهل سرقسطة، ويوسف بن حمود الصدفي، من أهل سبتة، وفقاً لترتيب حروف المعجم.

كذلك ذيّل ابن بَشكُوَال على كتابه «الصّلة» بعد إنجازه، إذ قال ابن الآبار القضاعي في إحدى تراجم كتاب «المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي» إنّ ابن بَشكُوَال ذيّل على كتابه الصّلة ترجمة أحمد بن علي الأنصاري النحوي، المعروف بابن الباذش، فقال: «وتوفّي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، قاله ابن بَشكُوَال في ذيل صلته». ولمّا كان ابن بَشكُوَال قد كتب «الصّلة» في الأصل الأوّل سنة ٥٣٤ للهجرة، كما جاء عند الغرناطي صاحب «البحر المحيط»، فإنّه من الواضح أنّ ابن بَشكُوَال ذيّل على كتابه «الصّلة» بعد وفاة ابن الباذش، وذلك إذا صدقت وفاته في سنة ٥٤٢ للهجرة.

ومن اللافت تخصيص أمكنة للتفرقة والتمييز بين الأندلسيّين والغرباء، فتحت اسم «إبراهيم» يُخصّص ابن بَشكُوَال مكاناً للتراجم بعنوان: «ومن الغرباء»، فيذكر ترجمة قصيرة لإبراهيم بن أحمد الأزدي بوصفه الأزدي الأطرابُلُسيُّ البَرقيُّ الذي ولد

بأطرابلس وسكن برقة، وكان سائحًا، ثم قدِم إلى الأندلس. ويذكر غريبًا آخر هو إبراهيم بن أبي العيش القيسي السّبتي، أي أنّه من مدينة «سبتة» الواقعة قبالة مضيق جبل طارق، ولا تعد جزءاً من الأندلس. كذلك إبراهيم بن بكر الموصلي الذي قدِم إلى الأندلس ودخل إشبيليّة وحدّث بها، وإسماعيل بن عبد الرحمن القرشي العامري المصري، وهو أيضًا من الغرباء الذين قدِموا من مصر، وغيرهم. وهذا دليل على التمايز الذي كان قائمًا في تلك الفترة بين أهل البلاد والغرباء الآتين من شمالي إفريقيا تحديداً.

•••

٧٠- الكتاب: حيّ بن يقظان[١]

ابن طفيل (٤٩٨- ٥٨١ هـ/ ١١٠٥ - ١١٨٥ م)

هو أبو بكر، محمّد بن طفيل القيسي الأندلسي، ولد بالقرب من قرطبة بالأندلس. درس على ابن باجة، وغيره من علماء وأدباء عصره، وخدم في بلاط حاكم الأندلس. كان فيلسوفًا وقاضيًا وطبيبًا، تعلّم الطب وأوصى به ابن رشد خلفًا له في بلاط دولة الموحّدين. وقد تقلّب ابن طفيل في مناصب عدة، فاشتغل كاتبًا في ديوان والي غرناطة، ثم في ديوان حاكم طنجة، إلى أن أضحى طبيبًا ووزيراً للسلطان الموحّدي «أبي يعقوب يوسف». ترك آثاراً خالدة في الفلسفة والأدب والرياضيّات والطب والفلك، مثل كتاب شرح فيه الآثار العلويّة لأرسطو، ولكنّ أغلب كتبه تُعدّ مفقودة. ذكر لسان الدين ابن الخطيب عن تأليفه كتابًا في الطب من مجلدين. كما ذكر ابن أبي أصيبعة مراجعات ومباحث في «رسم الدواء» بين ابن طفيل وابن رشد، جمعها الأخير في كتابه «الكليّات»، كما ألّف ابن طفيل أرجوزة طويلة في الطب. توفّي بمرّاكش.

يُعدّ ابن طفيل الأب الروحي للنزعة الطبعيّة في التربية المعاصرة عبر قصّة حيّ بن يقظان بوصفها قصّة عالميّة انطلقت من الفكر الأندلسي وتركت أثراً خالداً في الفلسفة والأدب العالميّين. تُرجم الكتاب إلى اللاتينيّة عام ١٦٧١ للميلاد فيما ظهرت أوّل ترجمة انجليزيّة عام ١٧٠٨ للميلاد، ويُعتقد أنّها ألهمت دانيال ديفو في كتابه «روبنسون كروزو»، كذلك ألهمت الفيلسوف الانجليزي جون لوك بفكرة «العقل يولد صفحة بيضاء» التي نشرها في كتابه «مبحث بشأن الفهم الإنساني»عام ١٦٩٠ للميلاد.

---

(١) ابن طفيل ، حيّ بن يقظان ، مصر: طبعة دار ومكتبة الهلال، بلا طبعة، بلا تاريخ.

تبدأ القصّة بوصول طفل رضيع بصندوق خشبي إلى جزيرة مهجورة (وفي رواية أخرى تولّد من بطن الأرض تولّداً طبيعيّاً)، فوجدته ظبية فقدت رضيعها مؤخّراً، ولمّا وجدت الطفل يبكي عطفت عليه، وتحرّكت غريزة الأمومة لديها، فأرضعته واعتنت به حتّى كبر، فتعلّم لغتها، وأخذ من خبرتها في الحياة وفهم إيماءاتها ومشاعرها. وعندما نفقت الظبية حزن حزناً شديداً وراقبها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، فتفكّر في الحياة والنفس والطبيعة وما بعد الموت، وبدأ يستطلع الكون من حوله؛ ما هو موجود منه فيزيائيّاً وما وراءه، والذي قاده إليه خياله وتأمّلاته وممارساته الذهنيّة والفلسفيّة.

وعَبر تأملاته وتجاربه الشخصيّة توصّل حيّ بن يقظان إلى ضرورة وجود إله واحد قوي قهّار قادر على السيطرة على الطبيعة، وأنّه هو خالقه لا محالة، واستدل عقليّاً أنّه لا بد أيضاً أن يكون هذا الإله أسمى من الجسد الفاني وإلّا هلك، فسعى إلى البحث عن وسائل للتقرّب إلى خالقه، كالتأمّل في ذات الله وعظمته وفهم صفاته، وسعى للوصول إلى الاتحاد الوثيق بالله (تعبير عن المذهب الاشراقي) وحاول ممارسة التصوّف لفصل عقله عن العالم المادي على نحو يُذكّرنا بمثال ابن سينا «الرجل الطائر»، وفلسفة ديكارت «أنا أفكر إذا أنا موجود» فيما بعد، فضلاً عن فكرة الفيلسوف المتوحّد عند ابن سينا وابن باجّه.

وذات يوم عثر حيّ بن يقظان على إنسان مثله يتجوّل في الجزيرة، فتتبّعه وشاهده وهو يصلّي، وظل يراقب تصرّفاته إلى أن تشجّع للكشف عن نفسه، وما لبث أن تعرّف إليه وتعلّم منه اللغة واستأنس وجوده، وكان اسمه «آسال». وبفعل الحوارات التي شرعت تقوم بينهما أدرك حيّ بن يقظان أنّ معتقدات هذا الرجل التي تعلّمها من الكتب السماويّة كانت شبيهة جداً بما توصّل إليه هو نفسه عقليّاً، وعَبر تجاربه الشخصيّة، وتأملاته الخاصّة في الكون والطبيعة والحياة، دون الرجوع إلى مصادر أخرى.

وتنتقل القصّة إلى مرحلة جديدة تتمثّل في أنّه عندما وصلت سفينة إلى الجزيرة ذات يوم نقلتهما، هو وآسال، إلى أقرب مدينة متحضّرة وهناك اكتشف الحضارة، وشاهد

كيف ينشغل الناس عن دينهم للتمتّع بملذّات الحياة الدنيا، فحاول ردّهم إلى رشدهم ففشل، وأدرك أنّ الحقائق العليا التي تتجاوز العالم الماديّ لا يدركها عامّة الناس من المكبّلين بأغلال الحواس (فكرة كهف أفلاطون والسجناء المكبّلين)، فخاطبهم بلغتهم وبقوالب الأديان المنزلة، ولكن من غير جدوى. لذلك همّ عائداً إلى جزيرته، ومات فيها.

لخّص ابن طفيل فلسفته في قصّة حيّ بن يقظان على لسان شخوص من مخيّلته حيث استطاع أن يعبّر عن همومه وأفكاره بوضوح أكبر، ومن دون مواربة، ومن خلال بيان دقيق وأسلوب سردي فريد، استطاع إبراز أهمّيّة العقل في الوصول إلى الحقائق الكليّة، دون عون من أحد أو استعانة بأي كتاب، فقط من خلال الفطرة وعبر العقل الاستدلالي والتأمّل. فقد أراد أنْ يُوصل إلى الناس فكرة مفادها أنّ الفلسفة والدين لا يتنازعان، بل هما متّفقان على النحو الذي يتّفق فيه العقل مع النقل أو الشريعة. إذ نرى أنّ هذه القصّة تتضمّن أغلب عناصر الرواية، لذلك، فمن الخطأ القول إنّ الرواية العربيّة لم تَظهر إلا بعد العصور الكولونياليّة.

ويمكننا القول أيضـاً إنّه رغم أنّ قصّة حيّ بن يقظان أصولها قديمة فبعضهم يعزوها إلى الحضارة السومريّة، أو إلى الإغريق، أو غيرهم، ولكنّ مضمون الرسالة يظل فريداً من نوعه، من حيث أنّه اكتشاف للذات؛ وهي مرحلة أولى ضروريّة للمعرفة لا يجوز تجاوزها تتلوها مرحلة ثانية مفادها الاعتماد على العقل لتحصيل المعارف وتُذكّرنا هذه المرحلة بأعمال الفيلسوف الفرنسي ديكارت ومنهجيّته في تحصيل المعرفة اليقينيّة كذلك تذكّرنا بعقلانيّة ابن رشد وتقديمه للعقل على النقل وهي الفلسفة الرشديّة التي أضحت من القواعد المعرفيّة التي أرست عليها الحضارة الأوروبيّة دعائمها وأنهت الهيمنة الكنسيّة على الفكر الأوروبي تدرّجيّاً.

•••

٧١- الكتاب: الاعتبار[1]

أسامة بن منقذ (٤٨٨- ٥٨٤ هـ / ١٠٩٥ – ١١٨٨ م)

هو أبو المظفّر، أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن قضاعة. أمير وفارس عربي عاش في عهد تفكّك الدولة العربيّة الإسلاميّة خلال فترة الحروب مع الفرنجة. ولد في قلعة شيرز الواقعة شمالي مدينة حماة السوريّة، وكان عمّه سلطان أميراً على شيرز. انتقل بعد تحصيله العلوم والمعارف المتنوعّة لخدمة حاكم دمشق، فعمل في البلاط الفاطمي في مصر، ليعود بعدها إلى دمشق فيصبح في خدمة بلاط صلاح الدين الأيوبيّ. ترك الكثير من المؤلّفات؛ منها: «كتاب العصا»، و«المنازل والديار، و«النوم والأحلام»، و«أخبار النساء»، و«أخبار البلدان»، و«نزهة الناظر في إملاء الخاطر»، و«الشيب والشباب»، و«المحاسن نصيحة الرعاة»، و«لباب الآداب»، و«القلاع والحصون»، و«المنازل والأديار»، وغيرها.

يُعدّ كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ أوّل سيرة ذاتيّة أنجزت في المكتبة العربيّة. ويمتاز «كتاب الاعتبار» باستعراض الأحداث السياسيّة ووصف العمران الاجتماعي، والوقائع الحربيّة، على نحو يبدي الكاتب رأيه فيها بوصفه مقاتلاً وقائداً معاً حارب الفرنجة وصالحهم، وحلّل عاداتهم وتقاليدهم، وشرح تأثّرنا بهم وتأثيرهم علينا. كان كثير التنقّل في الولايات الإفرنجيّة للتعرّف إليها، ولم يتّهمه أحد بأي تهمة، وخاصّة تهمة «التطبيع».

كذلك صنّف الخيل، من حيث مهاراتها في الصيد أو الحرب، وشرح طبائع الحيوانات المفترسة التي كان يصطادها. والأهم من ذلك كله أنّه انطلق من أحداث

---

(١) كتاب الاعتبار، أسامة بن منقذ؛ تحرير فيليب حتّي، القاهرة: مكتبة الثقافة، بلا طبعة، بلا تاريخ.

ذلك العصر، ولم يؤرّخ للأمراء، كما كان متعارفاً عليه آنذاك، بمقدار ما أرّخ للمعارك والتغيّرات والتوازنات السياسيّة التي كانت تقوم آنذاك، سواء كانت تحالفات مع الإفرنج أم اغتيالات محليّة للأمراء، وفتن داخليّة، ونحو ذلك.

ولكتاب الاعتبار ملامح خاصّة من حيث نظم الشعر، لاستعراض الأحداث وترسيخها في القلب والعقل معاً، فضلاً عن استخلاص العبر والحكم بأسلوب بسيط مستخدماً أحياناً كلمات عامّيّة أو أعجميّة، وأسلوب فكاهي. وأحياناً يتّضح منها نمط حياته في الوحدة والعزلة وفقدان الغاية من الحياة، التي أضافت إلى معيشته قلقاً وكآبة وغربة، ربّما يشعر بها كل مفكر ومبدع عبر معاناته وغربته في داخل مجتمعه.

إنّ إحدى العبر المهمّة في كتاب الاعتبار تتمثّل في أنّ «أخطار الحروب لا ينقص مدة أجل المكتوب»، فكان أسامة مؤمناً بالقضاء والقدر، رغم أنّه كان كثير التذمّر من تبعات التقدّم في السن، وقد تجاوز الثمانين حولاً عند تدوينه كتاب الاعتبار. لذلك، نجد في تفصيلات قصصه الشيّقة مفاتيح فلسفته التي اتّجهت صوب التساؤل، فاتحة الباب نحو التأويل وضرورة الاستماع إلى وجهات نظر أخرى، حتّى لو كانت متباينة. وبالرغم من أنّ أسامة بن منقذ أُعجب بشجاعة الفرنجة وميّزاتهم الحربيّة، فقد ظل ناقداً لأخلاقهم وعاداتهم، مدركاً أنّ العرب في تلك الحقبة من الزمان كانوا أكثر تقدّماً على الصعيد العلمي من الغرب الأوروبيّ.

يمكن اعتبار «كتاب الاعتبار» عملاً أدبيّاً مميّزاً قام مؤلّفه بتقديم الآخر الفرنجي بنوع من الحياديّة قلّما تجدها في أدبيات ذلك العصر، وقد كادت القصص التي سردها أسامة بن منقذ أن تكون نصّاً لسيناريو فلم تاريخي عن تلك الأزمان بشخوصها وديناميكيّة أحداثها، وتفاصيل الوقائع والأزمنة، في ضوء شرح مفصّل لمختلف الثقافات والعادات والأخلاقيّات السائدة آنذاك. وقد وصف الأستاذ الفرنسي أندريه ميكيل Andre Miquel كتاب الاعتبار بأنّه أشبه بالروايات الروسيّة العظيمة. كذلك قام بنشر كتاب خاص بالفرنسية عن «حياة أسامة» في نهاية القرن التاسع عشر، بعد

أن حوّل السيرة الذاتيّة لأسامة بن منقذ إلى رواية متميّزة. وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أندريه ميكيل هو نفسه الذي ترجم كتاب كليلة ودِمنة عام ١٩٥٧ للميلاد.

أخيراً، يمكننا التذكير بأنّ الباحث الأستاذ هارتفغ ديرنبورغ Hartwig Derenbourg عثر على بعض أجزاء كتاب الاعتبار (من صفحة ٢٢ إلى ٨٨) في أوراق متفرّقة متداخلة مع كتيّب آخر، وذلك أثناء عمله لتكملة فهرس المخطوطات العربيّة لمكتبة الاسكوريال في إسبانيا. وكانت مكتوبة بالخط الشامي، فنشرها عام ١٨٨٤ للميلاد بعد أن كانت مفقودة لعدة قرون، الأمر الذي يجعلنا قاصرين عن الإحاطة بكتاب الاعتبار في كليّته في ضوء محدوديّة ما هو متوافر الآن من المخطوط الأصلي.

•••

٧٢- الكتاب: نهاية الرتبة في طلب الحسبة[١]

الشيرازي (؟؟ - ٥٨٩ هـ / ؟؟ - ١١٩٣ م)

هو أبو الفضائل، جلال الدين عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله التبريزي الشيرازي. بدأ كتاباته في الموازين والمثاقيل بالإشارة إلى شيرز، وتولّى وظيفة القضاء في بلاد الشام. عُيّن قاضياً على طبريا، وقيل إنّه كان طبيباً بحلب، ولكنْ من المؤكّد أنّه تولّى الحسبة أيضاً، فكان عارفاً بها في عصره وبما يدور في داخل الأسواق، وأهلها، والسلع وأنواعها، ممّا يرجّح أنّه جمع بين القضاء والحسبة في طبريا. عاصر الملك صلاح الدين الأيوبيّ، وأهداه كتابه: «النهج المسلوك في سياسة الملوك». له العديد من الكتب الأخرى؛ منها: «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»، الكتاب الذي بين أيدينا، و«الإيضاح في أسرار النكاح»، و«خلاصة الكلام في تأويل الأحلام»، و«روضة القلوب ونزهة المحب والمحبوب»، وغيرها.

ترجع أهمّيّة هذا الكتاب المؤلّف للحسبة أنّه كان من أسبق المؤلّفات في موضوع الحسبة في الشرق الإسلامي، ورغم أنّ الماوردي (ت ٤٥٠ هجري) في كتابه «الأحكام السلطانيّة» قد تناول هذا الموضوع، إلّا أنّ الصفة الفقهيّة البحتة قد غلبت على الكتاب، كما كانت الحال في «إحياء علوم الدين» للغزالي (ت ٥٠٥ هجري).

أصبح كتاب الشيرازي أيقونة في الحسبة استرشد بها الكثيرون ممّن كتبوا عن الحسبة، مثل ابن الأُخوّة (ت ٧٢٩ هجري) في كتابه «معالم القربة في أحكام الحسبة»، وابن بسّام في «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»، وغيرهما. كذلك امتاز الكتاب بموسوعيّته،

---

(١) الشيرازي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة؛ نشره السيّد الباز العريني، بإشراف محمّد مصطفى زيادة، القاهرة، بلا طبعة، ١٩٤٦.

حيث أسهب في شرح طريقة غش العقاقير، واهتم بمراقبة حركات الباطنيّة وأهل الذمّة، حيث كان القرن السادس الهجري آنذاك عصر إحياء السّنّة، وتزامن مع اندلاع الحروب مع الفرنجة (الحروب الصليبيّة)، فكان يخشى من ممالأة الذمّيّين للفرنجة في البلاد الإسلاميّة، وخاصّة لأنّ أصحاب الصنائع والحرف كان أكثرهم من أهل الذمّة.

قسّم الشيرازي الكتاب إلى أربعين باباً، بدأها بالتعريف بمعنى الحسبة وشروطها ولزومها، ومعرفة القناطير والأرقام والأرطال والمثاقيل والدراهم، ومعرفة الموازين والمكاييل وعيار الأرطال والمثاقيل. وشرع يتحدّث بالتّفصيل عن المهن المختلفة، كالجزّارين، وبائعي السمك، وصنّاع الزلابيا، والعطّارين، والخيّاطين، وبائعي الأقمشة، والصيارفة، والبياطرة، والأطبّاء، ومؤدّبي الصبيان، وغيرهم. فمثلاً، في باب الحسبة على الحبوبيّين والدقّاقين، يقول:

«يُحرّم عليهم احتكار الغلّة على ما بيّناه، ولا يخلطون رديء الحنطة بجيّدها، ولا عتيقها بجديدها فإنّه تدليس على الناس. وإذ دعت الحاجة إلى غسل الغلّة جُفّفت بعد غسلها تجفيفاً بليغاً، ثم بيعت منفردة».

وتتّضح أهداف الكتاب من تصريح الشيرازي في مقدّمته حول غاية الكتاب بقوله «إنه للنظر في مصالح الرعيّة، وكشف أحوال السوقة وأمور المتعيشين، أن أجمع له مختصراً كافياً، في سلوك منهج الحسبة على الوجه المشروع، ليكون عماداً لسياسته (لمن أُسند له منصب الحسبة)، وقواماً لرياسته، فأجبته إلى ملتمسه، ذاهباً إلى الوجازة، لا إلى الإطالة. وضمَّنته طرفاً من الأخبار، وطرَّزته بحكايات وآثار، ونبّهت فيه على غشّ المتعيّشين في المبيعات، وتدليس أرباب الصناعات، وكشف سرّهم المدفون، وهتك سترهم المصون، راجياً بذلك ثواب المنعم ليوم الحساب. واختصرت فيه على ذكر الحِرف المشهورة دون غيرها، ...».

خلاصة القول إنّ هذا الكتاب يُعدّ مرشداً لكل من أُسندت إليه وظيفة المحتسب في الدولة الإسلاميّة في ذلك الزمن، للاسترشاد به في تنظيم شؤون الإنتاج، والحِرف،

والصّناعة، والتجارة، التي كانت رائجة في تلك الفترة. ويمكن القول إنّ هذه الإرشادات تقوم في وظيفتها مقام هيئات رسميّة معاصرة، مثل وزارة الصناعة والتجارة، مؤسّسة المواصفات والمقاييس، وغيرهما. ومن شأنها تحقيق العدالة الاجتماعيّة، وتنظيم أمور الرعيّة، واجتناب الاختلافات بين الناس، بحيث تصبح عُرفًا بينهم يقتدون به ويمتثلون لأمره، اجتنابًا للخلافات والنزاعات، فاستقرار السوق من استقرار الدولة.

•••

٧٣- الكتاب: أخبار الحمقى والمغفّلين[١]

ابن الجوزي (٥٠٨ – ٥٩٧ هـ / ١١١٤ – ١٢٠١ م)

هو الشيخ أبو الفرج، عبد الرحمن بن أبي الحسن بن جعفر الجوزي، الملقّب بابن الجوزي. يعود نسبه إلى محمّد بن أبي بكر الصدّيق. ولد في بغداد في شرعة الجوز، ومات فيها. عُرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره ببلدة واسط، وقيل: نسبة إلى «فرضة الجوز»، وهي مرفأ نهر البصرة. كان والده تاجراً بالنّحاس، نشأ ابنه عبد الرحمن يتيمًا، وعاش زاهداً في الدنيا. درس على الدينوري، والبغدادي، وابن الحصين، وغيرهم، وتتلمذ في المدرسة النظاميّة في بغداد. كان له مجلس خاص للوعظ، تزاحم عليه الناس. جمع مئات المصنّفات، وكتب بيده مئتي مجلّدة منها، إضافة إلى «أخبار الحمقى والمغفّلين»؛ «تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار»، و«الأذكياء وأخبارهم»، و«في المواعظ وغرائب الأخبار»، و«مناقب بغداد»، و«التفسير الكبير»(عشرون مجلّداً)، وغيرها. حظي بمكانة كبيرة في الخطابة والوعظ وتصنيف العلوم والفنون.

يذكر ابن الجوزي أسباب جمعه كتاب «أخبار الحمقى والمغفّلين»، ومنها أنّ ذكر المغفّلين يحثّ المتيقّظ على اتّقاء أسباب الغَفلة، وأخبارهم تروّح عن قلب الإنسان لأنّ النفس البشريّة تملّ من العمل الدؤوب في الجد، فضلاً عن شكر الله لأنّه لم يجعلنا مثلهم. وجعل ابن الجوزي الكتاب في أربعة وعشرين بابًا، وبدأه بتعريف الحماقة واعتبرها غريزة في الإنسان.

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي،أخبار الحمقى والمغفّلين؛ تحقيق عزيزة فوّال، بيروت: دار الكتاب العربي، بلا طبعة، ٢٠٠٣.

وتحدّث عن درجات الحُمق، وذكر أسماء مرادفة لمعنى الأحمق، فوضع أربعة وثلاثين اسمـًا، بدأت بالأحمق، وانتهت إلى الأحمق المائق شديد الحماقة. ومن أسماء الحمقى أيضـًا؛ الحمقاء، والأهوج، والأخرق، والهتور، وغيرها، وفي أسماء النساء ذوات الحُمق يُقال؛ الورهاء، والخرقاء، والهوجاء، وغيرها.

في الباب السادس، حذّر ابن الجوزي من مغبّة صحبة الأحمق، وحثّ على عدم مجالسته، على اعتبار أنّ كل صديق لا عقل له هو عدو. وضرب مثلاً على الحمق، كقول العرب: «أحمق من هبنّقه»؛ وهبنّقه هذا رجل من الجاهليّة، كان يجعل في عنقه قلادة من ودع وخزف وعظم، وعندما سُئل عنها لماذا يضعها، قال: لأعرف بها نفسي. وعندما سرقها أحدهم وتقلّدها رآها هبنّقه، فقال: إنْ كنت أنتَ أنا، فمَنْ أنا؟

واستعرض الحمقى في التاريخ، فاعتبر أنّ أوّل العقلاء من الحمقى هو إبليس، لأنّه عصى الله، لأنّ الله فضّل آدم عليه، رغم أنّه خُلق من نار فيما خُلق أدم من طين. كما اعتبر ابنَ الراوندي فيلسوفـًا أحمق، وذكر أسباب اعتراضه عليه. ثم استخدم مصطلح «التغفيل» للتأكيد على قضايا إشكاليّة، فمثلاً اعتبر تخطِئة أبي بكر وعمر عمل تغفيل، من حيث أنّ الرافضة (فرقة من الشيعة) كانوا يعلمون تمامـًا موافقة علي على بيعة أبي بكر وعمر، ورغم ذلك ففيهم من يكفّرهما. ويضرب أمثلة أخرى على ذلك.

كما ميّز ابن الجوزي الإضحاكَ المُحرّم شرعـًا من الإضحاك المُباح، ويروي الحديث الذي يُفسّر الفرق بينهما، ونصُّه: «ويل للذي يُحدّث الناس فيكذب ليَضحك الناس». كما اعتبر اتّخاذ الأصنام تغفيلاً، وأنّ تصرّف أخوة يوسف من باب التغفيل. ويُـخمّن أنّ هناك تغفيلاً غير مقصود. وفي الباب العاشر ذكر المغفّلين من القرّاء والمصحّفين، والتصحيف هنا هو لفظ الكلمة بتغيير أحد حروفها، كعدم التمييز بين الباء والياء، أو النون والتاء، وهكذا. كما ذكر تصحيفات العديد من الكتاب ورواة الحديث، وكيف أدّى التصحيف إلى جرائم، وكيف يحدث التصحيف عند الخلط في الأسماء، وكيف يجعل من الحلال حرامـًا. وضرب أيضـًا أمثلة من الإصرار على الغلط في القراءات.

كما ذكر أسماء المغفّلين من الأمراء والولاة والقضاة والكُتّاب والحجّاج والمؤذّنين والأئمّة والأعراب، وضرب أمثلة جميلة على ذلك، تفي بالغرض الذي من أجله وُضع الكتاب. ولم يغفل الكاتب عن ذكر المغفّلين من المتحذلقين، وعن ذكر من قال شعراً من المغفّلين، كالقُصّاص والمتزهّدين والمُعلّمين.

والكتاب لا يخلو من رسائل مبطّنة تتضمّنها مسألة الحمق، إذ عدّ بين المغفّلين من اعتقدوا أنّهم إذا انتقلوا إلى كهف في الشِعاب فإنّهم يهربون من رمضان. فربّما يكون في ذلك إشارة إلى هروب بعض الناس من أجواء رمضان في المدن. كذلك ضرب مثل من صام نصف يوم عاشوراء، لاعتقاده أنّ «صوم يوم عاشوراء يعادل صوم سنة، فصام إلى الظهر وأكل، وقال: يكفيني ستة أشهر».

ومن الحماقات الأخرى أحاديث مُسلّية ومُضحكة، كقوله: «قيل لمغفل سُرق حمارك، فقال: الحمد لله الذي ما كنت عليه». وفي مقام آخر يَسخر من دعاء مغفل قوله: «اللهم أغفر لي من ذنوب ما تعلم وما لا تعلم؟».

وهناك بعض الطرائف التي تشير إلى كناية أو مجاز، كقصّة رجلين سَلبا قافلة، فقام الكاتب بتمويه هذا الجبن بوصفه نوعـاً من البله أو الغباء، إذ قال: «وقع رجلان على قافلة فيها ستون رجلاً، فأخذوا مالهم وثيابهم، فقيل لبعضهم: كيف غلبكم رجلان وأنتم ستون رجلاً؟ فقال: أحاط بنا واحد وسلبنا الآخر، فماذا نعمل؟».

•••

٧٤- الكتاب: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم[١]

ابن الجَوزي (٥٠٨ – ٥٩٧ هـ / ١١١٤ – ١٢٠١ م)

هو أبو الفرج، عبد الرحمن بن أبي الحسن بن جعفر الجوزي، الملقّب بابن الجَوزي. ولد في بغداد في شرعة الجوز ومات فيها، لذلك لُقّب بالجوزي، وقيل: نسبة إلى «فرضة الجوز»، وهي مرفأ نهر البصرة. كان والده تاجراً بالنحاس، وقد نشأ ابنه عبد الرحمن يتيمًا وعاش زاهداً في الدنيا. درس على الدينوري، والبغدادي، وابن الحصين، وغيرهم، وتتلمذ في المدرسة النظاميّة في بغداد. أصبح فيما بعد له مجلسًا خاصًا للوعظ تزاحم عليه الناس. جمع مئات المصنفات، وكتب بيده مئتي مجلّدة؛ منها: «تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصر السير والأخبار»، و«الأذكياء وأخبارهم»، و«في المواعظ وغرائب الأخبار»، و«مناقب بغداد»، و«التفسير الكبير» (عشرون مجلّداً)، و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» في ثمانية عشر جزءاً، وغيرها.

يشتمل كتاب «المنتظم» على ثمانية عشر جزءاً، يتكوّن الجزء الأوّل من مقدّمة الكتاب، وشرح عن بداية الخلق حتّى وفاة يحيى بن زكريا عليه السلام، حيث ينتهي عند الإسكندر المقدوني. ويليه الفصل الثاني حول الأحداث منذ وفاة يحيى بن زكريا حتّى السنة الثامنة للنبوّة، وفي الجزء الثالث يصل بالأحداث إلى السنة العاشرة للهجرة، وينتهي عند قدوم الوفود إلى رسول الله. أمّا الأجزاء اللاحقة ففيها تفصيلات تلك السنين، كحجّة الوداع، وذكر من توفّى من الأكابر، وحوادث متنوّعة في تلك السنين،

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمّد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم؛ دراسة وتحقيق محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصحّحه نعيم زرزور، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، في ثمانية عشر جزءاً.

منها، مثلاً، زلزال المدينة في عهد عمر بن الخطّاب، وإجلاء اليهود عن خيبر، وحج عمر بالناس، وغيرها من أخبار. وتتدرّج الأجزاء بعدها لتشمل الأحداث للسنوات اللاحقة، حتّى الجزء الثامن عشر، الذي يشتمل على الحوادث من سنة ٥٥٤ للهجرة حتّى سنة ٥٧٤ للهجرة.

أراد ابن الجوزي من كتابه أنْ يكون عِبرة لرجالات الحكم والسياسة، كقوله في المقدّمة: «إنّ الشرع هو السياسة، لا عمل السلطان برأيه». ويلاحظ في الكتاب أنّه أطال في الشرح عن تاريخ الفرس وملوكهم، على سبيل المثال لا الحصر، بينما لم يعطِ دولة الروم واليونان أهمّيّة كبيرة. كذلك أغفل تاريخ الصين ومصر، ولكنّه خصّص جانباً مهمّاً للسيرة النبويّة وللهجرة، وتناول حركات الردّة، والانتفاضات في العراق ومصر وبلاد الشام، ومعارك: الجمل وصفين والنهروان، فضلاً عن أنّه أشار إلى الحوادث الاجتماعيّة والاقتصاديّة والإداريّة في تلك الفترة.

كما شغلته الحوادث السياسيّة تحديداً، حيث تناول ثورة الحسين واستشهاده، وحركات زيد بن علي، والخوارج، والزبيريّة، وغيرها. كذلك حدثنا عن كوارث طبيعيّة، كحرائق، وقحط، وفيضانات، وزلازل، ورياح عاتية، وحرارة شديدة، وأمطار غزيرة، وثلوج كثيفة، وأمراض وأوبئة، وغيرها.

امتاز الكتاب باحتوائه ٣٣٧٠ ترجمة لأعلام شخصيّات، كخلفاء وملوك ووزراء وفقهاء ومؤرّخين وفلاسفة وشعراء ومصنّفين وغيرهم، وسعى إلى تغيير أسلوب كتابة التاريخ من السرد غير المنسق إلى تنسيق منهجي، راعى فيه عدم الإسهاب، وحقّق توازناً بين الأحداث والتراجم، كما أنّه حفظ لنا نصوصاً مفقودة، رغم أنّه يُؤخذ عليه إهماله المصادر التي نقل عنها بعض النصوص التاريخيّة. ورغم ذلك فقد أصبح كتابه مصدراً أساسيّاً لتدوين التاريخ استند عليه المؤرّخون، كابن الكثير في كتابه «البداية والنهاية»، والذهبي في «تاريخ الإسلام».

قسّم ابن الجوزي الأقاليم في العالم، وفقاً لتقسيمات العالم القديم، في سبعة أقاليم: الهند، الحجاز، مصر، بابل، الروم، الترك، يأجوج ومأجوج، الصين؛ ويحيط بها البحر العظيم. ويذكر الجبال والرمال والقلاع والأبنية الحصينة، كمدينة فرعون، ومدائن كسرى، والإسكندريّة، وروميّة، وقسطنطينيّة، وعموريّة.

وفي باب «عجائب ما في الأرض» يذكر منارة الإسكندريّة، مع مبالغة في وصف مرآتها ورواية أساطير خياليّة عنها لا يقف عندها أو يتحقّق منها. أمّا باقي الحوادث والروايات حول الخلق وسكان الأرض والأنبياء، فهي تقليديّة.

وفي سنة ٥٣٢ للهجرة، على سبيل المثال، يروي ابن الجوزي أنّه جيء بإحدى عشر عيّاراً فصُلبوا في الأسواق مع رجل صوفي كان قد لَكَمَ صبيّاً فمات. وجاء في تلك السنة خبر فتح الروم «بزاغة»، وقتل جميع الذكور فيها، وسبي النساء والصبيان، وغيرها من أخبار يستمر في روايتها على هذه الشاكلة حتّى الجزء الثامن عشر والأخير، من دون أي تعليق أو تعجّب.

وعندما يبلغ سنة ٥٧٤ للهجرة، يخبرنا أنّ ابن الجوزي قد تكلّم فيها بحضور أمير المؤمنين بمناسبة وضع لوح نُصب على قبر الإمام أحمد بن حنبل، مكتوب عليه: «هذا قبر تاج السُّنّة وحيد الأمة العالي الهمّة العالم العابد الفقيه الزاهد الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني رحمه الله». وينهي أحداث تلك السنة بذكر من توفّي من الأكابر، وهم: أحمد بن عيسى الأبروزي الضرير، وسعد بن محمّد الشاعر والناقد، وشهدة بنت أحمد بن عمر الأبري، المدعوة: فخر النساء الكاتبة، وعمّار بن سلامة الحرّاني، التاجر المعروف، صاحب الصدقات.

•••

٧٥- الكتاب: رحلة ابن جبير[١]

ابن جبير (٥٤٠ – ٦١٤ هـ / ١١٤٥ – ١٢١٧ م)

هو أبو الحسن، محمّد بن أحمد بن جبير من بني ضمرة الكناني، المعروف بابن جبير. ولد في مدينة بلنسية لأسرة عريقة سكنت الأندلس، تعلّم على أبيه، ودرس على علماء عصره علوم الدين والحساب والعلوم اللغويّة والأدبيّة، التي أهّلته للكتابة. استخدمه أمير غرناطة في وظيفة كاتم السر، فاستوطن غرناطة. ويُقال إنّه قام بتلك الرحلة إلى الحج تكفيراً عن شربه الخمر مرغمـاً في بلاط الخليفة. سُمّيت رحلته الشهيرة «رحلة ابن جبير»، وأيضـاً يطلق عليها اسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار». وله أيضـاً كتاب «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك». توفّي ابن جبير في الإسكندريّة بمصر خلال العهد الأيوبيّ، وهو في طريق عودته من الحج.

تَدّعي بعض الطبعات من هذا الكتاب أنّها تحتوي على النص الأصلي للمخطوط كلّه، بينما بعضها الآخر يجتزئ ما يراه مناسبـاً للقارئ، فيكون وصيّـاً عليه يُحدد له ما يقرأ، فيما تقوم طبعات أخرى بتقديم أو تأخير أجزاء من النص للغرض ذاته، وبهدف التشويق. وبعضها يُقدّم العمل الأدبي تحت عناوين متنوّعة يراها مناسبة لمزاج الجيل الناشئ، ويقوم كذلك باختصاره على هواه. لذلك، ينبغي أن يتوخّى القارئ الحذر عندما يبحث عن النسخة التي يريد أن يقتنيها أو يقرأها.

قام ابن جبير برحلات ثلاث، ولم يسجّل التاريخ سوى رحلته الأولى التي استغرقت نحو سنتين. تخبرنا تفاصيل رحلته أنّه انطلق من غرناطة إلى الحج سنة ٥٧٨ للهجرة،

(١) ابن جبير في مصر والحجاز، تحقيق كامل كيلاني، وزارة الثقافة الأردنيّة، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠١٨.

مروراً بجزيرة «سبته»، حيث استقل مركباً لسكّان جنوه من الطليان. و«سبته» جزيرة مختلف عليها اليوم بين المغرب وإسبانيا؛ واستمروا بعدها في الإبحار إلى جزيرة «ميورقة»، ثم جزيرة «منورقة». وهما جزيرتان، واحدة كبيرة وأخرى أصغر منها. وتابع رحلته إلى «سردانية»، و«صقلية» في جنوبي إيطاليا، حتّى وصل إلى الإسكندريّة.

وبعدها ارتحل إلى القاهرة في حقبة حكم صلاح الدين الأيوبيّ، الذي يؤرّخ له ابن جبير بالعدل والإنصاف، وحسن إدارة البلاد، وإكرام الغرباء وتوفير العلاج والضيافة لهم، حتّى إلى حد تأمين أرغفة الخبز مرّتين في اليوم للحجاج، وخاصّة المغاربة منهم القادمين إليها من بعيد، والمارّين عبر مصر لأداء الحج أو العمرة في بيت الله الحرام.

والرحلة تكشف عن المشاق الجمّة التي كان يعانيها الحاج في تلك الأزمان، حيث أنّ جنوح المركب الذي يستقلّه إلى منطقة خطرة، كوجود الفرنجة فيها أو الروم، مثلاً، كان يعرضهم للأسر أو الهلاك. كذلك، فإذا جنحوا إلى الصحراء، متى كانوا في البحر الأحمر متّجهين من مصر إلى الحجاز، فإنّ ذلك سوف يُعرّضهم للسلب، أو الموت عطشاً، أو الابتزاز من قبل السكان المحليّين أو المكّاسين منهم (جامعو ضرائب الجمارك).

ويتضّح أيضاً اعتماد التنقّل في المراكب على الرياح السائدة، فهناك رياح موسميّة تحدّد اتجاه السفر في البحر المتوسط، من الشرق إلى الغرب أو العكس، ومثلها في البحر الأحمر، لذلك، كان السفر يأخذ ردحاً زمنيّاً طويلاً، انتظاراً للرياح الموسميّة السائدة كي تضرب بشدّة كافية؛ وكانت المخاطر تحيط بالمسافرين من كل حدب وصوب، في عصر كان المسلمون والفرنجة والروم يتقاسمون المنطقة، فيما كانت مناطق النزاع والثغور الحدوديّة تعمّها الفوضى وعدم الاستقرار.

ولا شك أنّ تأريخ ابن جبير لرحلته امتاز بوصف أحوال المناطق التي زارها بالتفصيل، على صعيد العلاقات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، فهو لم يترك شاردة أو واردة إلا ذكرها ببعض التفصيل، حتّى الاشتباكات التي كانت تدور

خلال الحج، مثل اشتباك الأتراك العراقيّين وسُودان أهل مكّة، كما يصفهم ابن جبير. كذلك وثّق علاقات القوّة التي كانت سائدة آنذاك، فمثلاً كتب عن السلطة أو السطوة التي كانت لأخ صلاح الدين الأيوبيّ الملقب «بسيف الإسلام طغتكين بن أيوب» خلال حملته على اليمن، كما وصف أحوال الأمير «مُكثر» أمير مكّة آنذاك، موضّحاً توازن القوى السائد، والتوتّرات التي كانت قائمة بين سلطان وآخر، وأنماط الحكم، ومستوى العدل، وما إلى ذلك.

يُعدّ الكتاب، وعلى الصعيد التاريخي، مصدراً مهمّاً لمؤرّخي العصور اللاحقة من أمثال ابن بطوطة والمقريزي وغيرهم. ويُعتقد أنّه كتب على عجل في مكّة سنة ٨٧٥ للهجرة (١٤٧٠ ميلادي)، ولكنّه طبع بالعربيّة للمرّة الأولى في لندن عام ١٨٥٢ للميلاد، تحت إشراف وليم رايت. ويمكن القول إنّ الرحلة الثانية لابن جبير كانت في الفترة (٥٨٥ – ٥٨٦ هجري) إثر سماعه أنباء استرداد صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٣ للهجرة. أمّا الرحلة الثالثة فانطلق بها بعد وفاة زوجته، حزناً على فراقها، فاتّجه صوب مكّة، وعاد بعدها إلى القدس، فالقاهرة، فالإسكندريّة، حيث توفّي فيها.

وبالرغم من أهمّيّة هذا السرد التاريخي لأحداث تلك الفترة، فإنّ العناصر الذاتيّة تظل حاضرة بقوّة في هذا الكتاب، لأنّ النص تمّت كتابته ونسخه من قبل أشخاص عاشوا في عصر كان له طابعه السياسي الحسّاس، كما تم نشر العمل بعد نحو ٧٠٠ عام من تدوينه، وبالتالي فإنّه ينبغي ألا يُفهم حرفيّاً، وألا تُطلق عليه أحكام نهائيّة، وفقاً لقاعدة اعتبار أنّ كل ما جاء فيه ليس حقائق نهائيّة.

•••

٧٦- الكتاب: معجم الأدباء[١]

ياقوت الحموي (٥٧٤ – ~ ٦٢٦ هـ / ١١٧٨ – ~ ١٢٢٩ م)

هو أبو عبد الله، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، ولد في الأناضول، ويعتقد أنّه توفّي إمّا في بغداد أو حلب. موسوعي وأديب وخطّاط من أصل رومي، اشتغل بالعلم والأدب، وهو أيضـًا رحّالة جغرافي ولغوي، لُقب بالحموي نسبة لِسيّدَه الذي اشتراه في بغداد بعد أن وقع في الأسر وهو صغير. كان كثير التنقّل بين العراق وبلاد فارس وبلاد الشام ومصر والخليج العربي وغيرها من الأصقاع، وكان يُدوّن ملاحظات خلال رحلاته آلت لتأليف أهم كتبه، وهو «معجم البلدان» الذي ترجم وطبع عدّة مرات. استقر أخيراً في بغداد ينسخ الكتب، وتفرّغ للقراءة. له العديد من الأشعار والكتب؛ منها: «معجم البلدان»، و«معجم الأدباء»، و«المشترك وضعـًا من أسماء البلدان والمختلف صقعـًا من الأقاليم»، و«المقتضب في النسب»، و«أنساب العرب»، و«أخبار المتنبي»، وغيرها.

يُعدّ «معجم الأدباء» من أبرز وأهم كتب التراجم، حيث وضع فيه ياقوت الحموي ترجمات لأكثر من ألف شخصيّة صنّفها في ٣٣ طبقة، اشتملت على طبقات لغويّين، ونحويّين، ونسّابين، وقرّاء، وإخباريّين، ومؤرّخين، وكتّاب، وورّاقين، وأصحاب رسائل مدوّنة، وأرباب خطوط منسوبة معيّنة، وكل من صنّف في الأدب أو جمع فيه مؤلّفـًا.

---

(١) ياقوت الحموي الرّومي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب؛ تحقيق إحسان عبّاس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، في عشرين جزءاً.

يَعتقد بعض المؤرّخين والمحقّقين أنّ ياقوت الحموي لم يُدخل أسماء الشعراء في المعجم، وبالرغم من ذلك فإنّنا نجد ترجمة للبحتري، على سبيل المثال، ولا نجد ترجمة لأبي تمام، لذلك يسود الاعتقاد أنّ أياد قد دَسّت معلومات في الكتاب فيما بعد. لذلك، يَغلب الظن أنّ الكتاب الذي بين أيدينا ليس الكتاب الأصلي، إنّما مختصرات لمعجم الأدباء من قِبل آخرين، كما أكد إحسان عبّاس عندما عثر على كتاب «بُغية الألباء من معجم الأدباء» الذي اختصره التكريتي. ويبدو أنّ ياقوت الحموي احتفظ بمسودّة الكتاب ولم ينشره، فلم يحقّق المخطوط إلاّ في عام ١٩٠٧ للميلاد.

كذلك يرى مصطفى جواد أنّ هناك تراجم كثيرة ضاعت من المعجم، بدليل أنّ المؤلّف وعد بإيرادها، ولكنّها ليست موجودة. كذلك يُعتقد أنّ هناك تراجم مستمدّة من معجم الشعراء، كما اقترح إحسان عبّاس، بقوله: «فمن المستبعد أن يترجم في معجم الأدباء لحميد بن ثور الهلالي ومسكين الدارمي وأبي زبيد الطائي وحمزة بن بيض ونصيب بن رياح والفرزدق .. وغيرهم كثيرين». كذلك أشار إلى ملخّص المعجم لأحمد بن علي بن عبد السلام التكريتي، الذي يقع في ٢٣٨ ورقة ويحمل عنوان «بغية الألباء من معجم الأدباء»، واكتشف أنّ بعضها ليس من أصل الكتاب. كذلك سقطت من طبعة مرغوليوث ترجمات كثيرة بلغ عددها ١٦٠ ترجمة.

ويوضّح ياقوت الحموي في مقدّمته عن سبب تأليف «معجم الأدباء»، بأنّه شُحّ الترجمات التي كانت متوافرة للأدباء والعلماء آنذاك، رغم اطّلاعه على العديد من الكتب والنقل منها، مثل كتاب أبي بكر التاريخي، وأبي عبيد الله المرزباني، وأبي بكر الزبيدي، وأبي المحاسن المعزي، وغيرهم.

وقد جاء الكتاب في مقدّمة وفصلين، ثم تلتها تراجم الأدباء. عنوان الفصل الأوّل: «في فضل الأدب وأهله وذم الجهل وحمله»، أمّا الفصل الثاني: «في فضيلة علم الأخبار»، ثم يلي ذلك تراجم الأدباء مرتبة ترتيباً ألفبائيّاً وصل عددها إلى ١٠٧١ ترجمة توزّعت على الأجزاء العشرين من المعجم.

لام البعض ياقوت الحموي على انصرافه لتأليف معجم الأدباء بدل التفرّغ إلى أمور الدين، بوصفها أنفع في الدنيا وأعمّ في الآخرة. فرد عليهم بقوله إنّه لو اشتغل الناس كلّهم بنوع واحد من العلم لضاع باقيه، وأنّ المرء ميسّر لِما خُلق له. وما يمتاز به هذا الكتاب تأليفه بمحض إرادة مؤلّفه الحرّة، إذ لم يدفع له سلطان أو وزير لكتابته أيّ مكافأة، فكل ما أراده أن يترحّم عليه كل من يقرأ الكتاب وينتفع منه. ودليل موقفه هذا هو أنّهم عندما حاولوا استنساخ كتابه منعهم.

ومن الطبيعي أن تتنوّع الترجمات، من حيث حجمها، من أديب إلى آخر، فقد ابتدأ من آدم بن أحمد بن أسد الهروي، وانتهى في آخر التراجم عند يونس بن إبراهيم الوفراوندي. وفيما كتب عن الترجمات الأخيرة ليونس بن إبراهيم أقل من سطرين، كان حظ ترجمة الصاحب بن عباد ١٥٠ صفحة، على سبيل المثال، وكتب في ترجمة أبي إسحاق الصابي ٧٤ صفحة، وفي أبي حيّان التوحيدي ٥٢ صفحة. ويمكننا تفسير هذه الظاهرة بمحدوديّة المعلومات التي كانت متوافرة آنذاك عن الكثيرين، وصعوبة الحصول على المعلومة، فضلاً عن الجانب الشخصي، واتّجاه المؤلّف السياسي، والكلامي، والفقهي، وما إلى ذلك.

•••

٧٧- الكتاب: رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر (الإفادة والاعتبار)[١]

البغدادي (عبد اللطيف) (٥٥٧ - ٦٢٩ هـ / ١١٦٢ – ١٢٣١ م)

هو أبو محمّد، عبد اللطيف بن يوسف بن محمّد بن علي بن أبي سعد، الملقّب بموفّق الدين. ولد في بغداد بدرب الفالوج لعائلة من أصول موصليّة، ولقّب بابن اللبّاد. تعلّم على أبيه، الذي اشتغل بعلم الحديث والقراءات، وعمّه الفقيه، والشيوخ: ابن التلميذ، وابن نائلي، والإمام الناصر لدين الله. ارتحل إلى الموصل، فالقاهرة، حيث قصد ياسين السيميائي، وموسى بن ميمون، وأبي قاسم الشارعي. كان صاحب حسّ مرهف متذوقًا للفنون والآثار، حيث وصف آثار مصر وصفًا لامتناهيًا في الدّقة، وسعى لمعرفة كيف بُنيت الأهرامات، ولماذا لم تُشرْ إليها بعض المصادر التاريخيّة. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، وهو الكتاب الذي بين أيدينا، و«غريب الحديث»، و«المجرد»، و«الألف واللام»، و«قوانين البلاغة»، وشرح كتاب «الفصول» لأبقراط، و«شرح جالينوس لكتب الأمراض الحادة» لأبقراط، واختصار كتاب «الحيوان» لأرسطو طاليس، واختصار كتاب «الصوت»، وغيرها.

أنهى البغدادي كتابه سنة ٦٠٠ للهجرة، وبدأه بالحديث عن المصريّين، من حيث أعراقهم وتعدادهم، وشرع في تفسير عقيدة الحج إلى أهرام مصر، فضلاً عن تساؤل

---

(١) عبد اللطيف البغدادي، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، أو كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر؛ إشراف عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٨.

المؤلّف عن سبب إغفال ذكر الأهرامات في التوراة (العهد القديم). كذلك، لفته أخبار المصريّين، وأكل لحوم البشر في سنوات المجاعة، وحديثه عن عالمي النبات والحيوان في مصر، وأسرار اختفاء التمساح في نهر النيل، وغيرها من أخبار في المعارف العامّة.

وينتقل البغدادي إلى الوصف الجغرافي لمصر، وتفسير بعض التعبيرات الشعبيّة المعاصرة تفسيراً ثقافيّاً ماديّاً تاريخيّاً. ويحدّثنا عن غرائب الأبنية والسفن في مصر، وغرائب أطعمتها، وأحوال نهر النيل، وقوانين ارتفاع منسوب المياه ونقصانه، وكيف أسهم فيضانه في بعض السنوات في تدمير المحاصيل الزراعيّة وانتشار الأمراض والأوبئة، وانداح المجاعة في أرجاء مصر كافّة.

وينهي كتابه بذكر أحداث سنتي ٥٩٥ للهجرة و٥٩٨ للهجرة. وفي فصل أكل اللحوم الآدميّة يصف شدّة المجاعة التي حلّت بمصر في السنوات الأخيرة من القرن السادس للهجرة، ويخبرنا بروايات عن أكل لحوم البشر في تلك الفترة من الصعب تصديقها، أو حتّى إعادة ذكرها لشدّة هولها، فضلاً عن المصائب التي نجمت عن انتشار الأوبئة نتيجة المجاعة، وانتشار ظاهرة بيع الأحرار من البشر، وعرض الناس أبنائهم وبناتهم للبيع، وأحياناً كانوا يعطوهم مجّاناً للأثرياء لمجرّد إيوائهم وإطعامهم.

كذلك يفسّر البغدادي انقراض التماسيح في القرن السابع الهجري بفترة المجاعة التي تعرّضت لها مصر في تلك الحقبة، وكيف تراجعت المجاعة سنة ٥٩٨ للهجرة بفعل عودة انتظام أحوال نهر النيل مرة أخرى. ومن المعروف أنّ نهر النيل تجمّد في سنتي ٨٢٩ و ١٠١٠ للميلاد، أي في سنتي ٢١٣ و ٤٠٠ للهجرة، نتيجة عوامل معقّدة، منها انخفاض شدة الانفجارات الشمسيّة ودخول الأرض في مدار ما حول الشمس. والعكس كان صحيحاً، حيث تعرّضت الأرض لفترات دفء مناخي استثنائيّة، إذ بلغت أوجها نحو سنة ١٢٠٠ للميلاد، أي سنة ٥٩٥ للهجرة التي يصفها البغدادي بدقة، ففي تلك الفترة ذابت الثلوج عن آيسلندا وجرينلاد وأجزاء كبيرة من شمالي كندا، فوصل الفايكنغ للجزء الشمالي الشرقي من كندا في القرن الثالث عشر للميلاد.

فمن المرجّح أن تكون ظاهرة الدفء المناخي الاستثنائي قد حدثت في نهاية القرن السادس الهجري، عندما وصفها البغدادي في رحلته إلى مصر!

ويخصّص البغدادي جزءاً مهمّاً من الكتاب في وصف النبات في مصر، وفوائد كل نوع منه. ويصف البامية، واللوبيا، والملوخيّة، وغيرها من الخضروات، كما يصف شجر البخ، والجميز، والتين، والبيلسان، والموز، والحمضيّات، والتفاح، والنخيل، والأقاقيا (الأقاسيا)، وغيرها من الأشجار، فضلاً عن نبات الأفيون وما إلى ذلك. أمّا فيما يختصّ بالحيوان، فيكتب عن الحمير، والبقر، والخيل، والتماسيح، والدولفين، التي شاهدها بالقرب من دمياط الى جانب فرس البحر(النهر)، فضلا عن وصف الأسماك المتنوّعة، والأصداف، وما إليهما.

كما يصف الأهرامات وأبا الهول بالقاهرة وصفاً دقيقاً، والآثار في الإسكندريّة، وغيرها من المدن المصريّة. وفي كتاب «الإفادة والاعتبار» تنكشف معارف البغدادي الكبيرة، وولعه بدراسة الآثار، ودعواته للحفاظ عليها ورعايتها، بوصفها خير شاهد على حضارات السلف، وما بلغت من رقي وتمدّن.

تكلم البغدادي في كتابه عن آثار الجيزة، ومنف، وبوصير، ووصف الآثار وصفاً لامتناهياً في الدّقة والأمانة، كما سعى للحصول على معارفه تجريبيّاً، إذ كلّف رجلاً ليقيس ارتفاع الهرم، على سبيل المثال. كما أبدى البغدادي اهتماماً بالغاً بمعرفة طريقة تحجير ونقل حجارة الأهرام وتركيبها، وسعى لاستقراء أنواع المواد التي استخدمت في بنائها، كما تساءل عن اللغة الغريبة المكتوبة على الأهرام (الهيلوغريفيّة)، وغير ذلك من تساؤلات لم نشهدها سابقاً في كتب التاريخ.

•••

٧٨- الكتاب: الكامل في التاريخ[١]

ابن الأثير (٥٥٥ – ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ – ١٢٣٣ م)

هو أبو الحسن، عزّ الدين علي بن محمّد الجزري الشيباني، ابن الشيخ الأثير أبي الكرم. ولد في جزيرة ابن عمر ونشأ فيها مع أخويه: العلامة مجد الدين، والوزير ضياء الدين، ثم انتقلوا إلى الموصل. وهناك تعلّم على أبي الفضل الطوسي، ويحيى الثقفي، ومسلم السّيحي. وعندما ارتحل إلى بغداد، تعلّم فيها على عبد المنعم بن كليب، وعبد الوهاب بن سكينة، وغيرهما، ثم استقر لفترة في دمشق، فتعلم على أبي القاسم بن صصرى، وغيره. له من التصانيف، إضافة إلى «الكامل في التاريخ»: «تاريخ الموصل» (الذي لم ينجزه)، واختصار كتاب «الأنساب» للسمعاني وتهذيبه، و«أسد الغابة في معرفة الصحابة»، و«التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة»، وغيرها.

يخبرنا ابن الأثير، في مقدّمة كتابه، «الكامل في التاريخ» بأنّه ابتدأ بكتاب «التاريخ الكبير»، الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري، ثم انتهج منهجـًا جديداً، هو حصر الحوادث التاريخيّة، وجمعها في شهر أو في خلال سنة، بدلاً من ذكرها في مواضع مختلفة. وجعل لكل حادثة كبيرة أو شهيرة ترجمة تخصّها في السنة التي وقعت فيها. أمّا الحوادث الصغار، فأفرد لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة. ومن المعلوم أنّ الكتاب حقّقه وراجعه كثيرون، منهم أبو الفداء عبد الله القاضي، الذي حقّق المجلّد الأوّل، ومحمّد يوسف الدقّاق، الذي حَقق الجزء العاشر، وغيرهما.

---

(١) علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري (ابن الأثير)، الكامل في التاريخ؛ حقّق المجلّد الأوّل أبو الفداء عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلميّة، طبعة أولى، ١٩٨٧، في أحد عشر جزءاً.

إنّ الغاية التي توخّاها ابن الأثير من هذا الكتاب هي نُصْح الملوك؛ فإنّ الملوك إذا وقفوا على سِير أهل الظلم والعدوان، ورأوها مدوّنة في الكتب، يتناقلها الناس، وإذا نظروا إلى عواقب هذه الأعمال القبيحة، وكيف تؤول إلى خراب البلاد وهلاك العباد، فربّما يَعرِضون عن أمثالها ويطرحونها جانباً. وإذا قرأ الملوك سيرة العادلين، وما يتبعها من الذكر الجميل وعمار البلاد والممالك، يستحسنون ذلك ويرغبون فيه ويثابرون عليه.

ففي المجلّد الأوّل يبدأ ابن الأثير من تاريخ العمل بالتقويم الهجري، ثم يتحدّث عن الزمان، وابتداء الخلق، وقصة إبليس، وخلق آدم، والجنّة، وذُرِيّة آدم، وذكر الأحداث والملوك، من زمن نوح إلى عمارة البيت الحرام بمكّة المكرّمة، ثم قصّة قوم لوط، فقصّة سيّدنا إبراهيم وأولاده، وصولاً إلى قصص الأنبياء:موسى ويوشع وقارون، وبقية ملوك بني إسرائيل، حتّى ولادة المسيح عليه السلام. ثم يبدأ بالحضارات القديمة، وذكر طبقات ملوك الفرس والساسان وملوك الحبشة، وصولاً إلى ذكر مولد الرسول الكريم وحروب البسوس وغيرها من المواقع الشهيرة، وذكرى الهجرة إلى أرض الحبشة، وصولاً إلى بيعة العقبة الثانية.

ويحتوي المجلّد الحادي عشر على الفهارس، ومن ضمنها فهرس السنوات، الذي يجعل استخدام الموسوعة، على عِظمها وكبرها، في غاية السهولة. فعلى سبيل المثال، في صفحة ٨ من مجلّد ١١ نجد إشارة إلى السنة ٢١٨ للهجرة بأنّها في الصفحة الثالثة من المجلّد السادس. فإذا عدنا إلى هذه الصفحة من المجلّد السادس نجد السنة تحت عنوان كبير: «ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومئتين»، وعنوان فرعي هو ذكر «المحنة بالقرآن المجيد»، إذ يتحدّث فيها عن محنة القرآن، والحوارات التي كانت تدور آنذاك حول إذا ما كان القرآن مخلوقاً أم قديماً. ثم يلي ذلك ذكر مرض الخليفة المأمون ووصيّته، ثم وفاة المأمون، وعمره، وصفاته، وبعض من سيرته وأخباره، وبعض الأشعار والقصائد التي قيلت فيه. وينتقل بعدها إلى ذكر خلافة المعتصم، فيذكر عدّة حوادث صغيرة ينهي بها الفصل.

يبرز في الكتاب إزجاء النصح واستخلاص العبر، كقوله: «في ذكرى حادثة ينبغي أن يحتاط العقل من مثلها»، أو كما جاء في الصفحة ٣٤٧ من الجزء التاسع عن أحداث سنة ٥٤٢ للهجرة، التي استخلص منها أنّ عاقبة الخيانة هي التعذيب والقتل. كأنّ ابن كثير كان يسعى إلى ترسيخ أركان أيديولوجيّة وطنيّة لنصرة الحاكم، إذ جاء على ذكر حادثة اعتقال رسول يوسف في البحر وقتله، ربّما بهدف الحد من خيانة الأوطان، وعدم تمكين الغرباء من بلاد الإسلام.

وفضلاً عن فهرس السنوات، وفهرس الأيّام والحوادث التاريخيّة، هناك فهارس للسنوات والآيات القرآنيّة، والأحاديث النبويّة، والأعلام، والقبائل، والجماعات، والأماكن والبقاع، والقوافي، والأرجاز، وأنصاف الأبيات وأجزائها. ومن الفهارس المفيدة فهرس الأيّام والحوادث التاريخيّة، كالزلازل والفياضانات، ..الخ، ممّا يساعد الباحثين في العلوم المتنوّعة.

•••

٧٩- الكتاب: إنْباهُ الرُّواة على أنْبَاهِ النُحاة[١]

القِفطي (٥٦٨ – ٦٤٦ هـ / ١١٧٢ – ١٢٤٨ م)

هو أبو الحسن، جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القِفطي، مؤرّخ وطبيب عربي، ولد في مدينة قِفط في صعيد مصر لأسرة كوفيّة الأصل. أتى القاهرة، وارتحل إلى بيت المقدس، ثم عمل في ديوان الإنشاء. خرج إلى حلب ودخل في خدمة الملك الظاهر، فتولّى أمور الخزانة هناك، وبعدها تولّى الوزارة عند موت الظاهر في أيّام الملك العزيز. كان يجمع الكتب، فاقتنى مكتبة ضخمة كانت تساوي في ذلك الوقت نحو خمسين ألف دينار. ويقال إنّه لم تكن لديه إلا تلك المكتبة في الدنيا، فلم تكن لديه دار ولا زوجة، وتوفّي في حلب. له الكثير من المصنّفات والكتب؛ منها: «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»، و«إنْباهُ الرُّواة على أنْبَاهِ النُحاة»، و«أخبار مصر»، و«تاريخ اليمن»، و«بقيّة تاريخ السلجوقيّة»، و«أخبار المصنفين وما صنفوه»، و«نزهة الخاطر في الأدب». له أيضـًا كُتب عن الحسن بن الهيثم وغيره من الأعلام.

يُعدّ كتاب القِفطي من أهم المصنّفات التي وُضعت في تراجم علماء العربيّة، فالكتاب معجم شامل لتراجم أعلام اللغة والنحو، منذ مطلع القرن الأوّل للهجرة حتّى زمان القِفطي، نحو منتصف القرن السابع للهجرة، أي في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد. يمتاز الكتاب بأنّه ضخم، وفيه مادة غزيرة تتبع منهجيّة دقيقة، ترجم فيه القِفطي للنحويّين واللغويّين، المتوزّعين في مشارق العالم العربي الإسلامي ومغاربه، وبلاد فارس، والأندلس، وصقلية.

---

(١) جمال الدين القِفطي، إنْباهُ الرُّواة على أنْبَاهِ النُحاة؛ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة – بيروت: دار الفكر العربي – مؤسسة الكتب الثقافيّة، طبعة أولى، ١٩٨٦، في أربعة مجلّدات.

استهل القِفطي كتابه بترجمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثم أردف ذلك بأخبار أبي الأسود الدؤلي قبل أن يلتزم بالترتيب الألفبائي للمعجم. يشابه هذا الكتاب في أسلوب تأليفه «نزهة الألباء» لأبي البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هجري) فلم يقتصر على تراجم النحويّين واللغويّين، بل تعدّاهم إلى الكُتّاب والشعراء، وذكر المحدّثين والعارضين والمؤرّخين ومَنْ في حكمهم، ولكنّه لم يلتزم الدّقة تماماً في ثواني الأسماء، فربّما يكون السبب في ذلك نقله من مصنّفات سابقة مثل كتاب «المؤتلف والمختلف».

وحول طريقة كتابته ترجمة الأعلام، نذكر مثالاً، وهو ترجمته لزيد بن القاسم بن أسعد العامري النيسابوري:

«لا يُشقّ في اللغة غُباره، ولا تُلحَق في الآداب أثارُه، وهو وأبوه وأبو العبّاس عمّه، كلّهم أدباء نجباء فضلاء، متصدّرون في الأدب، وإفادة علم العرب».

ويخبرنا القِفطي أيضاً أنّ لزيد بن القاسم النيسابوري أشعاراً، بعضها في الهجاء، وهو ما أنشده في القاضي أبي جعفر:

الله أغـــــناني بـــعــز جـلالـه

عــن جـعـفـر والـمـبـتـغـى مــن مـالـه

ومن اللافت أنّ القِفطي يتوسّع في بعض التراجم مقارنة بتراجم أخرى، كترجمة سعيد بن أوس بن ثابت، أبو زيد الأنصاري، صاحب «النحو واللغة»، وهو أحد العشرة الذين بعثهم عمر بن الخطّاب مع أبي موسى الأشعري إلى البصرة، وهو أيضاً أحد الستّة الذين جمعوا القرآن الكريم على عهد الرسول الكريم. ويروي القِفطي نسب أبي زيد النحوي الأنصاري، على لسان ابن القداح، بأنّه سعيد بن أوس بن ثابت بن زيد بن قيس بن زيد بن النعمان بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج، ولكنّه يعَدّ هذا النسب فيه إخلال، وهو بذلك يكشف عن منهجه النقدي والرقابي.

ويتجلّى موقفه النقدي أكثر عندما يتّخذ موقفاً شخصيّاً من ذلك بقوله: «والصواب ما ذكره محمّد ابن سعد، قال: أبو زيد النحوي، واسمه سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن أبي زيد»، ويشرح في هامش الصفحة عن ابن سعد مؤلّف «الطبقات الكبير»، ويضع ترجمة له بقوله: «هو محمّد بن سعد بن منبع الهاشمي مولاهم أبو عبد الله البصري كاتب الواقدي وصاحب «الطبقات»، قال الخطيب: «كان من أهل العلم والفضل والفهم والعدالة. صنّف كتاباً كبيراً في طبقات الصحابة والتابعين لوقته، فأجاد فيه وأحسن، توفّي في بغداد سنة ٢٣٠ للهجرة». ويوثق مصدر الخبر بالإشارة إلى تهذيب التهذيب، الجزء ٩، ص ١٨٢.

•••

٨٠- الكتاب: عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء[١]

ابن أبي أُصيبعة (٦٠٠ – ٦٦٨ هـ / ١٢٠٤ – ١٢٧٠ م)

هو أبو العبّاس، موفّق الدين أبو العبّاس السّعدي الخزرجي، المعروف بابن أبي أُصيبعة. ولد في دمشق لبيت علم وأدب، ولأسرة اشتهرت بالطب، وكان والده من أمهر أطباء العيون في دمشق. زامل ابن النفيس في البيمارستان النوري بدمشق، والذي يعدّ أوّل مشفى في التاريخ الإسلامي. أتقن العلوم اللسانيّة، وتلقّى العلوم عن والده، وشمس الدين الكلي، وابن البيطار، و مهذب الدخوار، وعمران بن صدقة، وغيرهم. ارتحل إلى القاهرة والتحق بالمشفى الناصري الذي أنشأه الملك الناصر صلاح الدين هناك. ثم انتقل إلى صلخد، وهي إحدى مدن جبال حوران، ومات فيها. ترك ذكراً خالداً بكتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء»، الذي ألّفه لأمين الدولة وزير الملك الصالح.

يحتوي الكتاب على فهرس للموضوعات وفهرس للأعلام؛ ويتضمّن ترجمة لما لا يقل عن أربعمئة من أعلام الأطبّاء. يبدأ في الباب الأوّل بالحديث عن كيفيّة وجود صناعة الطب ونشأتها، ثم يذكر طبقات الأطبّاء الذين بدأوا هذه الصناعة؛ مثل اسقليبوس ومن تلاه من طبقات الأطبّاء اليونانيين: غورس، ومينوس، وبرمانيوس، وأفلاطون الطبيب، واسقليبوس الثاني؛ ثم الأطبّاء الذين شاركوا أبقراط في صناعة الطب. ويذكر قَسَم أبقراط وناموس الطب لأبقراط ووصيّته، ثم بندقليس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس؛ وصولاً إلى الاسكندر الأفروديسي الدمشقي.

---

(١) ابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء؛ شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة، بلا طبعة، بلا تاريخ.

وفي الباب الخامس، يتحدّث عن طبقات الأطبّاء الذين عاشوا في زمن جالينوس؛ مُركّزاً على هذا الطبيب الشهير وأخلاقه وأعماله.

وفي الباب السادس، يذكر طبقات الأطبّاء الإسكندرانيّين، ومن كان في زمانهم من الأطبّاء النصارى؛ مشيراً إلى كتب يحيى النحوي. أمّا في الباب السابع، فيبدأ بطبقات الأطبّاء في صدر الإسلام؛ ذاكراً منهم النضر بن الحرث الثقفي، وابن أبي رمثة التميمي، وعبد الملك الكناني، وابن آثال، وأبا الحكم، وحكم الدمشقي، وعيسى بن حكم الدمشقي، وزينب طبيبة بني أود.

وفي الباب الثامن، يستعرض طبقات الأطبّاء السريان مع ظهور دولة بني العبّاس، وهم كثر: يبدأ بجورجيوس بن جبرائيل، وينتهي بابن ماهان. وفي الباب التاسع، يستعرض طبقات الأطبّاء النقلة الذين نقلوا عن اللسان اليوناني كتب الطب بلسان عربي، وهم كثر أيضـاً: يبدأ بجورجيوس وحُنين بن إسحاق، وينتهي بمحمّد بن عبد الله الزيّات.

ويُخصص الباب العاشر لطبقات الأطبّاء العراقيّين وأطباء الجزيرة وديار بكر، وهم كثر أيضـاً: يبدأ بيعقوب بن إسحاق الكندي، وينتهي بكمال الدين بن يونس. أمّا في الباب الحادي عشر، فيستعرض بعض طبقات الأطبّاء الذين ظهروا في بلاد العجم؛ بدأه بتيادورس وأنهاه بالشريف شرف الدين إسماعيل. وفي الباب الثاني عشر، يتحدّث عن طبقات الأطبّاء الذين كانوا في الهند، وهم قلّة: كنكه الهندي، وصنجهل، وشاناق، وجودر، ومُنكه الهندي، وصالح بن بهلة الهندي. وفي الباب الثالث عشر، يذكر مجموعة كبيرة من طبقات الأطبّاء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا بها، ابتداءً من إسحاق بن عمران وانتهاءً بابن الأصم. أمّا الباب الرابع عشر، فيذكر فيه ثلّة كبيرة من طبقات الأطبّاء المشهورين في ديار مصر؛ بادئـاً ببليطيان، ومُنتهيـاً بضياء الدين بن البيطار. وأمّا الباب الخامس عشر والأخير، فيذكر فيه مجموعة كبيرة من طبقات الأطبّاء المشهورين في بلاد الشام؛ بدءاً بأبي نصر الفارابي، وانتهاءً بأبي الفرج بن القف.

ولإلقاء الضوء على موسوعيّة الكتاب وأهمّيّته، نلاحظ مثلاً في فصل مصنّفات جالينوس الكثير من التفصيلات التي يذكرها ابن أبي أُصيبعة ويُحدد الأغراض التي من أجلها وضع جالينوس كل كتاب، بدءاً بكتاب «الفهرست»، حيث وصف الكتب التي وضعها، وغرض كل كتاب، وأسباب وضعه، ولمن وضعه، وفي أي سنة!

بعد ذلك يتناول كتاب «في مراتب قراءة كتبه»؛ ثم كتاب «الفِرق» الذي قال فيه إنّه أوّل كتاب يجب أن يقرأه مَن أراد تعلّم صناعة الطب. يلي ذلك كتاب جالينوس عن أفكار أرسطوطاليس في مداواة الأمراض، الذي جاء في ثماني مقالات، واختبر فيه جالينوس الطريقة التي اتّبعها أرسطوطاليس في العلاج، وبيّن صوابها من خطئها. وهذه منهجيّة تجريبيّة تظهر في مواقعَ كثيرة من الكتاب.

ولم يغفل أبو العبّاس الإشارة إلى الكثير من الأطبّاء العرب الذين كانوا شعراء، أو تمّت الإشارة إليهم في أشعار العرب، كقصيدة أبي نواس التي يحاور فيها جبرائيل بن بختيشوع الطبيب السرياني:-

سألت أخي أبا عيسى

وجبريل له عقل

فقلت الراح تعجبني

فقال: كثيرها قتل

و«الراح» هي الخمر.

وعندما مرض الشاعر البصري الحكم بن محمّد المازني، وأتوه بالطبيب النصراني من أهل البصرة، ويُدعى خصيب، فقال له:

ولقد قلت لأهلي

إذ أتوني بخصيب

لـــــيـــس والله خـــصـيـــب

لـــلـــذي بــــــــــي بـطـبـيـب

إنّـــــمـــا يــــعـــرف [دائــــــــي]

مـــن بـــه مـــثـــل الـــــــذي بـي

ومن الأطبّاء من نظم الشعر، كالطبيب إسحاق بن حُنين، قوله:

أنـا ابـن الـذيــــن اسـتـودع الـطـب فيهم

وسُــــمُّـــوا بــه طـفـل وكـهـل ويـافـع

ومـا زال جـالـيـنـوس يـشـفـي صـدورنـا

لـمّـا اخـتـلـفـت فـيـه عـلـيـنـا الـطـبـائـع

•••

٨١- الكتاب: وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان[١]

ابن خِلّكان (٦٠٨ – ٦٨١ هـ / ١٢١١ – ١٢٨٢ م)

هو الإمام أبو العبّاس، أحمد بن محمّد بن خِلّكان. ولد في مدينة أربل (أربيل في كردستان) وخرج منها قبيل سقوطها في أيدي التتر سنة ٦٣٤ للهجرة، وتوجّه إلى الموصل، فإلى حلب، حيث أقام عند الشيخ أبي المحاسن يوسف بن شداد، وتعلّم على الشيخ نجم الدين، المعروف بابن الخبّاز، وعلى قرّاء الأدب والنحو، مثل موفّق الدين بن يعيش، المعروف بابن الصائغ. كما قرأ النحو على تاج الدين، المعروف بابن الجبراني، ثم قدِم إلى دمشق، وعاد بعدها إلى حلب، وتوجه منها إلى مصر، فاشتغل ناظراً في الخزانة في عهد السلطان أيّوب بن الملك الكامل الأيوبيّ، وعاد إلى القاهرة وتزوج فيها، وبعدها أصبح قاضياً للقضاة في ديار الشام في عهد السلطان الظاهر بيبرس. وعندما دخل محمّد بن قلاوون دمشق عزله عن القضاء. توفّي في دمشق، ودفن عند سفح جبل قاسيون.

يُعدّ كتاب «وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» من المصادر المهمّة في التراجم والتاريخ، وأحسنها ضبطاً وإحكاماً. وقد صرّح ابن خِلّكان بنفسه، عبر حديثه عن القرامطة في ترجمة الحلّاج، أنّه أراده أن يكون كتاباً في التاريخ أيضاً، فهو كذلك من حيث أنّه أدرج في بعض التراجم تاريخ السلاجقة، والعبيديّين، والأيوبيّين، وغيرهم، واستخدم مراجع ناهزت أربعمائة كتاب. ورغم أنّ ابن خِلّكان صرّح أنّه لم يذكر أحداً

(١) أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خِلّكان، وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ حقّق أصوله وكتب هوامشه يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، في ستة أجزاء.

من الصحابة أو من التابعين أو الخلفاء، ولكن في الحقيقة فقد ترجم للخليفة العبّاسي ابن المعتز، مثلاً، كما ذكر اثنان من الصحابة، هما عبد الله بن عمر بن الخطّاب العدوي، وعبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب.

وفيما يتعلّق بالتوازن الكمّي بين التراجم فهناك إشكاليّة واضحة، لأنّه غطّى ترجمة البعض ببضع كلمات فيما كانت ترجمة المنصور يعقوب بن يوسف الموحّدي سبع عشرة صفحة، ذكر فيها أسماء الخلفاء الموحّدين الذي جاؤوا من بعده. كذلك، بلغت ترجمة يحيى بن أكثم نحو تسع عشرة صفحة. ومهما يكن من أمر، فإنّ كتابه استغرق نحو ثمانية عشر عاماً منذ بدأه في القاهرة سنة ٦٥٤ للهجرة حتّى أنجزه سنة ٦٧٢ للهجرة، علماً بأنّه ظل ينقّح فيه ويُلحق به لسنوات بعدها.

جاء كتاب «وفيّات الأعيان» في ستة أجزاء، وفي ٤٣٩ صفحة، حيث يحتوي الجزء السادس على فهارس غنيّة ومتنوّعة، مثل الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة والكنى والألقاب، وتراجم الأعلام، وفهرس الجماعات والقبائل والأمم والطوائف، وفهرس الألفاظ الاصطلاحيّة والحضاريّة، وفهرس الأيّام والحوادث التاريخيّة، وفهرس الأماكن والبقاع، وفهرس الأمثال، وفهرس الكتب والمؤلّفات، وفهرس القوافي، وفهرس الأرجاز، وفهرس الدوبيت، وفهرس المواليا، وفهرس أنصاف وأجزاء الأبيات، وفهرس المحتويات.

وشعر المواليا هو شعر فيه لغة عامّيّة، وكان يتغنّى به العبيد أثناء سيرهم ومرحهم، وكانوا ينهون الأبيات بقولهم: يا مواليا يا مواليا، أي نسبة إلى مولاهم؛ فإنّهم لا يتقيّدون بالإعراب بل يأتون به كما اتّفق. ويذكر ابن خِلّكان مثلاً على ذلك قولهم:

تبسّمَت فأضاء اللؤلؤ المكنون، صار

الدّجى كالضّحى فاستيقظ الواشون

ظفرتُ ليلة بليلى ظَفرة المجنون

وقلت وافى لحَظّي طالع ميمونْ

وقد جاء ذلك في الجزء الأوّل عند حديثه عن ترجمة أبي إسحاق الغزّي، تحت رقم ١٨ في الترجمات، والواقعة في باب «حرف الهمزة». وما أنْ ينتهي من الإشارة أنّ الغزّي ولد في غزّة التي فيها قبر هاشم جد النبي، فما يلبث أن يتحدّث بإسهاب عن غزّة: كيف تُلفظ، ويوضّح أنّها من أعمال فلسطين على البحر الشامي. كما يذكر الرواية عن ابن إسحاق أنّ هاشم بن عبد مناف قد هلك في غزّة في أرض الشام، ولتأكيد ذلك ذكر قصيدة مطرود بن كعب الخزاعي، ومن جملتها:

وهاشم في ضريح وسط بلقعة

تَسْفي الرُياح عليه بين غَزّاتِ

ويشرح قول أهل العلم باللغة تفسيرهم لغَزّاتِ كجمع لغزة، ويستطرد بذكر غزّة بأشعار أخرى. وهذا يدلّنا على اتّساع كتاب «وفيّات الأعيان» واشتماله على التاريخ والجغرافيا والأدب واللغة، فضلاً عن ترجمات للأعيان الذين عرفهم ابن خِلّكان.

•••

٨٢- الكتاب: البيان المُغْرِب: في اختصار ملوك الأندلس والمَغرِب[1]

ابن عِذَاري المرّاكشي (؟؟ – ~ ٧١٢ هـ / ؟؟ – ~ ١٣١٢ م)

هو أبو العبّاس، أحمد بن محمّد بن عِذَاري، مؤرّخ مرّاكشي عاصر نهاية الدولة الموحّديّة، وجزءاً مهمّاً من العهد الماريني، أي منذ عهد يعقوب المريني وابنه يوسف، وانتهاءً بابي سعيد عثمان. درس على مالك بن المرحل السبتي، وأبي عبد الله بن داود الصنهاجي، ويُعرف بابن آجُرُّوم النحوي، وابن بناء الرياضي، وغيرهم. اشتهر بكتابه هذا: «البيان المُغرب في اختصار ملوك الأندلس والمَغرب»، على وجه التحديد. ويخبرنا ابن عذاري أنّ لَه كتابًا جعله صلة للبيان المُغرب، استكمل فيه الوقائع التي كان قد اختصرها في البيان المغرب. وله كتاب آخر في تاريخ المشرق، اسمه «البيان المُشرق في أخبار المَشرق»، ولكنْ لم يصل إلينا، ويشير له ابن عذاري في عدّة مواقع من كتابه الملخّص هنا.

يشتمل هذا الكتاب على أخبار الأندلس والمغرب، منذ الفتح العربي الإسلامي حتّى نهايات القرن الخامس الهجري بالنسبة للأندلس، وحتّى بُعيد منتصف القرن السابع الهجري بالنسبة لأخبار المغرب. قسّم ابن عِذاري كتابه إلى ثلاثة أقسام، الأوّل موضوعه أنظمة المغرب الكبير منذ الفتوح حتّى سنة ٢٧ للهجرة. أمّا القسم الثاني فيشتمل على تاريخ الأندلس إلى عصر الطوائف (سنة ٤٧٨ هجري). أمّا القسم الثالث فموضوعه دولة المرابطين والموحّدين على شكل الخصوص، ويُعتبر هذا القسم مصدراً مهمّاً وشاملاً للعصر الموحّدي لغاية سنة ٦٦٧ للهجرة.

---

(١) أحمد بن محمّد بن عِذَاري، البيان المُغْرب: في اختصار ملوك الأندلس والمَغرب؛ حقّقه وضبط نصه وعلّق عليه بشّار عوّاد معروف ومحمّد بشّار عوّاد، تونس: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، في أربعة أجزاء.

تُرجم هذا الكتاب كاملاً إلى الفرنسيّة سنة ١٣٣٢ للهجرة (١٩١٤ ميلادي) وقد رجع إليه لسان الدين بن الخطيب في كتابه «الإحاطة»، فيما قال عنه الزركلي: «وهو من أعظم المراجع وأوثقها في موضوعه». نحو منتصف القرن التاسع عشر، نشر الهولندي «دوزي» الجزء الأوّل، وقسم من الجزء الثاني الخاص بأحوال الأندلس حتّى سنة ٣٨٧ للهجرة ، فيما كان قد نشر بروفنسال الجزء الثالث في باريس عام ١٩٣٠ للميلاد. ونشر إحسان عبّاس الجزء الرابع من الكتاب في طبعة دار الثقافة في بيروت المختصّة بفترة المرابطين، وأضاف إليه ملاحق خمسة. وقام كولان وبروفنسال بإعادة نشر الجزأين في ليدن في منتصف القرن الماضي.

يبدأ ابن العِذَاري الحديث عن أخبار المغرب بذكر الحد الفاصل ما بين المغرب وإفريقيا، مع شرح فضل المغرب وما ورد عنه من الأخبار والآثار، ويبتدئ التأريخ من سنة إحدى وعشرين للهجرة مع بداية فتح إفريقيا، إذ يصف بالتفصيل الشيّق مقتل الجرجير، ملك إفريقيا والمغرب كلّه، على يد عبد الله بن الزبير، ثم فتح قرطاجنة بعد حصار شديد على يد عبد الله بن أبي سَرْح في عهد ولاية مروان بن الحكم. ويتسلسل بالأحداث سنة إثر أخرى، بتفصيل أدبي جميل، مستنداً إلى مراجع كثيرة، مثل «تاريخ الطبري»، وغيره.

فعلى سبيل المثال، يتسلسل بأخبار الغزوات والفتوح وأخبار الولاة، ومنها غزوة حسّانّ بن النعمان للقيروان وقرطاجنّة وهزيمته على يد الملكة الكاهنة من «جبل أوراس»، التي أسرت من الأعيان العرب ثمانين رجلاً، ثم ردّتهم إلى حسّان، باستثناء خالد بن يزيد، الذي بقي عند البربر وزوّدهم بأخبارهم، إلى أن تمكنوا من قتل الكاهنة أخيراً، فاستأمن أولادها إلى حسّان، وأصبحوا من قادة الحملات الإسلاميّة.

وهكذا «انصرف حسان إلى مدينة القيروان بعدما حَسُن إسلام البربر وطاعتُهم، وذلك في شهر رمضان من سنة اثنين وثمانين»، ورغم ذلك فيذكّرنا ابن العِذَاري بالصراع الشرس بين العرب والبربر، حيث «... قاتلهم عَمْر بن حَفْص إلى انقضاء

أمرهم، ثلاث مائة وخمس وسبعون وقيعة». وهذا يدل على شدّة الحروب في تلك الفترة وشراستها إلى حد أنّ الكاهنة أمرت بقطع الأشجار وإتلاف البيوت والقلاع وكلّ شيء في وجه العرب حتّى لا يطمعوا في شمالي إفريقيا.

وفي الجزء الثاني المخصّص للأندلس، يذكر صفات تلك البلاد، ودخول المسلمين إليها، وفتح مدنها: قرطبة، مالَقة، غَرناطة، مُورْسِيَة، طُليطلة، قرمونه، إشبيليّة، مارِدة، لَبْلة، إضافة إلى ذكر أخبار ولاية الحكام، وتداورهم على حكم الأندلس وأعمالهم في المدن، والثورات التي قامت فيها، وتفاصيل الغزوات، وذِكر بناء المدن والمساجد، بما في ذلك ذكر التفاصيل الدقيقة، كخبر المدّ بنهر قرطبة. إذ يخبرنا كيف أغرق النهر الأسواق والبساتين وحوانيت الصبّاغين وهدم بعضها، وكان ذلك في نهاية شهر ربيع الآخر من سنة تسع وتسعين وثلاث مئة.

وفي الجزء الثالث يبدأ من تأسيس دولة المرابطين والحديث عن نسب أمرائهم، وفتوحاتهم، وحروبهم مع لُذْريق، وخسارة المدن، مثل بلنسية، وعودتها للمسلمين، ثم يتحدّث عن فتح مدينة فاس ومنازلة أمير مدينة مرّاكش وفتحها، وفتح مدينة سَلا، ودخول الموحّدين لمدن الأندلس. كذلك يذكر ولاتهم وغزواتهم بالتفصيل، بما في ذلك الثورات التي قامت ضدهم وإعادة فتح المدن مرة أخرى، كذكر فتح مَيُورقة ثانية وأخذها من يد ابن غانِية، وغير ذلك من تفاصيل الأخبار، بما في ذلك المجاعة التي تعرّضت لها مرّاكش، فباتوا يكررون طحن «فيتور الزيتون» ويصنعون الخبز من نباتات نهريّة أشبه بالقصب، وما إلى ذلك من ممارسات لمواجهة المجاعة.

•••

٨٣- الكتاب: نهاية الأرب في فنون الأدب[١]

النويري (٦٧٧ – ٧٣٣ هـ / ١٢٧٩ – ١٣٣٣ م)

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري النويري، ولد في قرية النويره التابعة لمحافظة بني سويف بمصر. كان ذكيًّا، ودوداً، وحسن المظهر. درس علم الحديث والسير والتاريخ في الأزهر الشريف بالقاهرة، واشتغل بنسخ الكتب الجليلة لجمال خطّه، حيث كان ينسخ صحيح البخاري ويبيعه بألف دينار للنسخة الواحدة. اتصل النويري بالسلطان محمّد بن قلاوون، ونال حظوه عنده، وتولّى نظر الديوان بالدقهليّة والمرتاحيّة. قدّم النويري للثقافة الإنسانيّة موسوعة كبرى، ودائرة معارف عظيمة، تمثّلت في هذا الكتاب: «نهاية الأرب في فنون الأدب». له العديد من المؤلّفات، إلى جانب هذه الموسوعة، وأيضًا له نظم يسير ونثر جيد. توفّي في القاهرة.

تأتي هذه الموسوعة الأدبيّة الكبرى في خلاصة التراث العربي حتّى عصر المؤلّف، من حيث إنتاج الأدب والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والاجتماع وغيرها من العلوم، في ثلاثة وثلاثين مجلّداً، تضم أربعة آلاف وأربعمائة صفحة، استغرق تأليفها نحو عشرين عامًا. وكانت تعدّ من الكتب الضائعة، إلى أن عثر المؤرخ أحمد زكي على نسخة منه في تركيا. ينقسم الكتاب إلى خمسة أقسام، هي: السماء، والآثار العلويّة، والأرض، والآثار السفليّة، وهو قسم جغرافي فلكي عام، أمّا القسم الثاني ففي الإنسان، والثالث في الحيوان، والرابع في النبات، والخامس في التاريخ.

---

(١) شهاب الدين أحمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب؛ تحقيق مفيد قمحيّة وحسن نور الدين، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، في ستة وثلاثين جزءاً.

وتتمثل أهمّيّة الكتاب في أنّه يُعدّ نموذجاً في ترتيب التراث الأدبي، وخاصّة في أجزائه الاثنتي عشر الأولى، حيث لخّص نحو ثلاثين كتاباً تراثيّاً، مثل «الأغاني» في الجزأين الرابع والخامس، و«فقه اللغة»، و«مجمع الأمثال»، و«ذم الهوى»، و«مباهج الفكر» في الجزء الثاني عشر، و«بهجة الزمن في تاريخ اليمن» لعبد الباقي اليمني في الجزء الحادي والثلاثين، وما إلى ذلك. كذلك نقل النويري في هذه الموسوعة، إلى جانب تلك الملخّصات، نصوصاً من أكثر من ستة وسبعين كتاباً لكبار الأدباء والمؤرّخين.

وتدور الأجزاء الأخيرة حول مبحث كتابة التاريخ، إذ اعتمدت على ابن تغري بردي بشكل أساسي، أمّا في الأجزاء الأخيرة في التاريخ، فكان كلاماً عن سلطنة الملك الناصر محمّد بن قلاوون. ويخصّص النويري الأجزاء ١٦، ١٧، ١٨ من موسوعته في السيرة النبويّة، تحت عنوان: في أخبار الملّة الإسلاميّة، من ذكر أمّهات وآباء الرسول الكريم، وخبر انتزاع قصي البيت من خزاعة، حتّى حج أبي بكر الصِدّيق. وفي الجزأين ١٧ – ١٨ يذكر غزوات الرسول الكريم، وصولاً إلى حجّة الوداع وخطبته. كما ذكر في الجزء ١٨ وفادات العرب على الرسول، وزوجاته، ونسله، وأقربائه، ومواليه، وحرّاسه، وخصاله، ولباسه، ونحو ذلك. وفي الأجزاء ١٩ – ٢٠، وما تلاهما، ذكر الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم.

فعلى سبيل المثال، في الباب الأوّل من الجزء الثاني، يشرع النويري في اشتقاق كلمة «إنسان» ويكتب عنها في نحو سبع صفحات (من صفحة ٩ إلى صفحة ١٦)، ويقلّبها من الأوجه النحويّة والاشتقاق اللغوي باحثاً عن جذورها، ومصدرها، واشتقاقاتها، ومعنى كلّ منها، فضلاً عن الألقاب التي نُسبت للإنسان، كقولهم: «الإنسان هو العالم الصغير»، وربط هذه المقولة فلسفيّاً بالفلك والنماذج الكونيّة التي كانت معروفة آنذاك، وبحث في مراحل تطوّر الإنسان من النضفة، إلى الهِرم، فالموت، في سبعة وثلاثين كنية.

وفي العشق والغزل، يأتي على ذكر بعض الأمثال، ومنها قصّة من أحب ابنة عمّه، ولم يستطع الزواج بها لضيق حاله، رغم أنّه كان يحبّها حبّاً جمّاً، فأخذ يرعى الغنم،

وكانت تهرب إليه كل ليلة ويجتمع بها في كهف. وفي أحد الأيّام مكث عنده ضيف، وفي تلك الليلة لم تحضر ابنة عمّه، فذهب يبحث عنها، وبعد وقت عاد ورأس أسد بين يديه، وبقايا جثّة ابنة عمّه معه، فطلب من ضيفه أن يردّ الغنم إلى أصحابها، وعمد إلى خنق نفسه، فسقط ميتاً. ويقول الراوي أنّه كفّنهما ودفنهما في قبر واحد. ومن الواضح المبالغة في هذه الرواية وعدم التحقّق منها، والتي ربّما سمعها وأضاف إليها (الرواية رقم ٢٠٩ من الجزء الثاني). لذلك، ينبغي أن يَقرأ المرء هذا الكتاب ببعض التمحيص وكثيراً من التدقيق.

يقول المؤرخ فازلييف إنّ أهمّيّة الموسوعة تكمن، في أحد جوانبها، في أهمّيّة هؤلاء المؤرخين الذين نقل عنهم النويري، مثل ابن رشيق، وابن الرقيق، وابن شدّاد، وغيرهم. وهناك أخبار نقلها النويري عن جزيرة صقلية مستمدّة من مؤرّخين قدماء، وأودعها بين صفحات موسوعته «نهاية الأرب في فنون الأدب»، ولولا ذلك لضاعت هذه المعلومات العتيقة، لأنّ كتب المؤرخين المشار إليهم ضاعت ولم تصل إلينا.

•••

٨٤- الكتاب: تاريخ الإسلام(١)

الذهبي (٦٧٣ – ٧٤٨ هـ / ١٢٧٤ – ١٣٤٨ م)

هو إمام المحدّثين ومؤرّخ الإسلام أبو عبد الله، شمس الدين بن عبد الله الذهبي الدمشقي، ولد في دمشق من أسرة تركمانيّة الأصل. عمل أبوه بصنعة الذهب المدقوق، فعُرف بها. تنقّل الذهبي في البلاد الشاميّة ومصر، وسمع من العلّامة شرف الدين الدمياطي، وقرأ على صدر الدين سحنون، وغيرهما. تعلّم النحو على الشيخ البعلبكي، ودرس الأدب على ابن النحّاس، وغيرهما. ترك الكثير من الآثار، تزيد على خمسين كتاباً، واختصر الكثير من الكتب مثل «تاريخ مصر» لابن يونس، و«أسد الغابة للصحابة» لابن الأثير، و«المستدرك على الصحيحين» للحاكم النيسابوري، و«السنن الكبرى» للبيهقي، و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر. ومن مؤلّفاته، إلى جانب «تاريخ الإسلام»: «سير أعلام النبلاء»، و«العِبر في خبر مَنْ غبر»، و«اختصار المستدرك للحاكم»، و«ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، وغيرها.

كتاب «تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام» هو أشهر ما ألّفه الإمام الذهبي من الكتب وأضخمها، ويختلف عن كتابه المعروف «سير أعلام النبلاء» برصد تاريخ الإسلام عبر ٧٠٠ سنة هجريّة، مبنيّاً على أساس ٧٠ طبقة، كل طبقة تشتمل على عشرة أعوام، فضلاً عن تغطية تراجم مشهورين، بلغ عددهم أربعين ألف شخصيّة اشتملت على تخصّصات في كل مناحي الحياة، إضافة إلى مادّة واسعة في التاريخ السياسي والإداري للحضارة العربيّة الإسلاميّة في تلك الفترة.

---

(١) شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام؛ تحقيق عمر عبد السلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٩٩٠، في ٥٣ جُزءاً.

يُلاحَظ من الكتاب أنّ الذهبي لم يترجم للخلفاء الراشدين الأربعة في كتابه «سير أعلام النبلاء» بينما أفرد لهم جزءاً خاصّاَ في «تاريخ الإسلام». ويمتاز كتابه الأخير عن كتب الخطيب البغدادي وابن عساكر الدمشقي، مثلاَ، ممّن اعتنوا بالسير والتراجم، إشاراته إلى روايات الصحابة والتابعين، وتابعي التابعين، في كتب الصّحاح والرموز التي اعتمدها في أوّل كل ترجمة.

بدأ الجزء الأوّل بالمغازي، ثم السيرة النبويّة في الجزء الثاني، ثم سيرة الخلفاء الراشدين في الجزء الثالث، وهكذا. وقد قَدّم المغازي على السيرة النبويّة منهجيًّا، بهدف تقديم الوقائع التي أسهم فيها صاحب الترجمة قبل أن يُترجم له ويؤرّخ لوفاته.

ففي الجزء المعنون «حوادث ووفيات» بين عامي ٦٤١ إلى ٦٥٠ للهجرة، يسرد الأحداث، كدخول ابن الجوزي الإسكندريّة ومحاصرة عجلون، على سبيل المثال، ويذكر في الأخيرة كيف حاصر صاحب حمص عجلون، وقُتل من أصحابه نحو ثلاثمئة، وأنفق على الحصار أربعمئة ألف دينار، ولم يقدر عليها فرحل. ويضع أمامنا مرجعـًا لأخباره، هو: دول الإسلام، الجزء الثاني، صفحة ١٤٧.

وفي العام ٦٤١ للهجرة تحديداً، يخبرنا أنّ التتار استولوا على بلاد الروم صلحـًا مع صاحبها، غيّاث الدين السلجوقي، على أن يُحمل إليهم كل يوم ألف دينار وفرسـًا ومملوكـًا وجارية وكلب صيد، وذلك على أثر واقعة كبيرة بين التتار والمسلمين. وفي العام ٦٤١ للهجرة يخبرنا أيضـًا عن حج العراقيّين مع والدة المعتصم، فيما سلّم السلطان إسماعيل بعض الأماكن للفرنج، فدخلوا القدس وخرّبوا الصخرة وكسروا منها قطعتين ... وكان قد أعطاهم قبلها صفد والشقيف.

وفي سنة ٦٤٢ للهجرة يتحدّث الذهبي عن انكسار الفرنج أمام الخورازميّة، وتحرّك التتار وفرضهم الجزية على دمشق وغيرها من المدن، وكيف خرج الأعيان للقاء أم الخليفة، التي ذهبت للحج، وكانت سنة ولاية العلقمي الوزارة، ثم دخول التتار شهرزور وحصار المصريّين والخوارزميّة لدمشق. ويلاحظ توثيق واضح ودقيق

لهذه الأحداث من أمّهات الكتب مثل «الحوادث الجامعة»، و«المختار من تاريخ ابن الجزري»، و«دول الإسلام»، و«المسجد المسبوك»، و«البداية والنهاية»، و«السلوك»، و«المختصر في أخبار البشر»، و«أخبار الأيوبيّين»، و«مفرّج الكروب»، و«تاريخ ابن الوردي»، و«شفاء القلوب»، وغيرها.

أمّا المجلّد الرابع لشمس الدين الذهبي ففيه طبقة الحوادث الخامسة من سنة ٤١ إلى ٥٠ للهجرة، إذ يَذكر من حوادث سنة ٥٠ للهجرة، على سبيل المثال، أنّه توفّي فيها الحسن بن علي، وكعب بن مالك الأنصاري الشاعر، وصفيّة أم المؤمنين. وفي ذلك العام أنفذ معاوية عُقبة بن نافع إلى إفريقيا، وفيها حدثت غزوة القسطنطينيّة، وغيرها من أحداث. ثم يذكر شمس الدين الذهبي الطبقة السادسة لحوادث من ٥١ إلى ٦٠ للهجرة.

أمّا المجلّد الخامس ففيه الحوادث من سنة ٦١ إلى ٧٠ للهجرة. وهكذا يستمر في ترتيب الحوادث وفق الطبقات، مع ترتيب تراجم الأعيان على حروف المعجم، حتّى نصل إلى المجلّد السابع والثلاثين، وفيه الطبقة الخامسة والخمسون من أحداث سنة ٥٤١ للهجرة، ولغاية سنة ٥٥٠ للهجرة. ويستمر مشروع الذهبي لغاية سنة ٧٠٠ للهجرة على هذا الترتيب عينه وعلى ذاك المنوال ذاته.

•••

٨٥- الكتاب: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار[١]

العُمري (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩ م)

هو أبو العبّاس، شهاب الدين أحمد بن يحيى العمري، يقال إنّه من نسل عمر بن الخطّاب. ولد في دمشق وتعلّم فيها، وبرع في فن الكتابة والعلوم في عصر السلطان الناصر محمّد بن قلاوون. ارتحل إلى القاهرة وتقلّد فيها رئاسة ديوان الإنشاء، فيما اهتم بدراسة الجغرافيا السياسيّة، فضلاً عن سعيه وراء تعلّم تاريخ الأمم واكتشاف عجائبها. كذلك، درس الفلك وتجوّل في الكثير من بلاد الأرض حتّى توفّي في القاهرة. لدى شهاب الدين العمري الكثير من المؤلّفات، فإلى جانب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، له التالي: «فواضل السمر في فضائل آل عمر»، و«نفحة الروض»، و«يقظة الساهر»، و«الشتويّات»، و«النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية»، وغيرها.

يذكر شهاب الدين العمري في مقدّمة كتابه أنّ مؤلّفه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ينقسم إلى قسمين: القسم الأوّل عن الأرض، أمّا القسم الثاني فهو حول سكان الأرض، وهكذا يتّضح مشروعه في الجغرافيا السياسيّة وضوحا جليّاً. ففي القسم الأوّل يصف الأرض وما اشتملت عليه من يابسة وبحار وجبال وأنهار وغيرها من تضاريس طبيعيّة. وفي الباب الأوّل عدّة فصول، حيث يحدّثنا بالتفصيل عن مقدار الأرض، وأحوالها، وأسمائها، وصفاتها، ويصف التراب والغبار والرمال والجبال والأنهار والبحيرات، فضلاً عن البيئة المبنيّة من قِبَل الإنسان، كالمساجد الثلاثة الكبرى في العالم، مع ذكر جملة من الآثار القديمة، كأن يتحدّث عن أطلال المدن

(١) شهاب الدين أحمد العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار؛ تحقيق عبد الله بن يحيى السريحي، الإمارات العربيّة المتّحدة: أبو ظبي، المجمع الثقافي، بلا طبعة، ٢٠٠٣.

الإغريقيّة في بلاد الشام، كمدينة جرش في الأردن حاليّاً، ويعدّها من بلاد حوران كما كانت عليه الأحوال في الأزمنة الغابرة. كذلك يصف تدمر وبعلبك، وغيرها من الآثار القديمة، التي أثارت إعجاب ودهشة أهل ذاك الزمان.

أمّا الباب الثاني، فيشتمل على ذكر الأقاليم السبعة، وفيه فصول حول تقسيم الأقاليم في العالم، ما وقع منها في المدن أو الجزائر العامرة أو غير ذلك. وفي الباب الثاني أيضاً ذكر الأنهار والممرّات المائيّة، وأطوال الأنهار في كل إقليم، والحديث عن البحار والرياح، والعجائب التي شاهدها عبر تجواله، كالأبنية العتيقة الهائلة والمنارات الشاهقة وغيرها. أمّا الباب الرابع ففيه حديث عن القِبلة والأدّلة عليها، ويشتمل الباب نفسه على فصول يحتوي كلّ منها على نصوص وأقوال الفقهاء، وأسانيد في الاستدلال عليها بالنجوم والرياح والجبال والأنهار وغيرها من الأدلة الطبيعيّة الملموسة.

أمّا الباب الخامس، ففيه ذكر لمسارات البشر والطرق والممرّات التي صنعها الإنسان عبر تجواله في العالم، وفيه تفصيلات حول أحوال تلك الطرق، كذكر تعاريج الطريق، أو سوء بنية الطريق، وتلك التي تصلح للسفر براحة أكبر، وفي ذكر الممالك فقط، من دون الخوض في تفاصيل أوفى، والتي يتركها للجزء الثاني الذي خصّصه لذكر الممالك.

والقسم الثاني في خمسة عشر باباً، تحدّث فيها عن مملكة الهند، ومملكة السند، وبيت جنكيز خان، ومملكة الصين، كما تحدّث في فصول وافية عن التورانيّين والفرس والأكراد والأتراك وغيرهم. كذلك تحدّث عن أصحاب الممالك والحضارات الأخرى في الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا، مثل مصر والشام والحجاز واليمن والحبشة والسودان، ولم يغفل الحديث عن الأندلس، وغيرها من الممالك الأخرى، التي كانت عامرة بالناس في تلك الأزمنة.

زار العمري مدينة القاهرة مباشرة بعد زيارتها من قِبَل أعظم زعماء مالي، المدعو مانسا موسى، الذي توفّي عام ١٣٣٧ للميلاد، وكان قد حجّ مارّاً عبر القاهرة عام

١٣٢٤ للميلاد في رحلة شهيرة وزّع فيها الكثير من الذهب على الطريق وهو في طريقه للحج. ويمكن تفسير دقّة وصف العمري لأحوال الطرق في هذا السياق.

وكتابات شهاب الدين العمري كانت أحد المصادر الرئيسة للمعلومات حول تلك الرحلة الأسطوريّة الأبعاد، والتي ما فتئت الإشارات إليها في وصف ثراء إمبراطوريّة مالي آنذاك. ويروي العمري أنّ أخ مانسا موسى الأكبر أبو بكر الثاني تخلّى عن العرش ليذهب في رحلة إلى ما وراء المحيط، الأمر الذي استدعى المؤرّخ المالي المعاصر جاوسو ضياء ورع Gaoussou Diawara إلى الاعتقاد أنّ أبا بكر الثاني ربّما اكتشف الطريق إلى أمريكا قبل كولومبس.

أمّا القسم الثاني من الكتاب فهو في سكان الأرض وطوائف الأمم، وفيه حديث عن الديانات التي كانت سائدة، إذ اعتبرها في ست نحل وأربع ملل. وفي القسم الثاني أيضا كلام عن طوائف المتديّنين، وفي ذكر الدول التي جاءت قبل الإسلام، وصولاً الى دولة الإسلام. فالكتاب موسوعة في أخبار الجغرافيا السياسيّة لغاية منتصف القرن الثامن الهجري، ويعد وثيقة تاريخيّة لتلك الفترة، ليس فقط للباحثين، بل للتمتّع بقراءته من قبل المثقّف العادي. وهذا هو الغرض ذاته الذي نرمي إليه من هذه الموسوعة لملخّصات أمّهات كتب التراث، في أي حال من الأحوال.

•••

٨٦- الكتاب: روضة المحبّين ونزهة المشتاقين[١]

ابن َقيّم الجوزيّة (٦٩١ – ٧٥١ هـ / ١٢٩٢ – ١٣٥٠ م)

هو أبو عبد الله، شمس الدين محمّد بن أبي بكر بن أيّوب بن سعد الحرزي الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قيّم الجوزيّة، نسبة إلى والده قيّم الجوزيّة، الذي كان قيّماً على المدرسة الجوزيّة بدمشق. كان عالماً وفقيهاً وأديباً، عُرف بعبادته وتهجّده وطول صلاته، حُبس في القلعة، ولم يخرج إلى الحرية إلّا بعد موت الشيخ تقي الدين. له الكثير من الفتاوى في قضايا إشكاليّة، واتصل بشيخ الإسلام ابن تيميّة سنة ٧١٢ للهجرة عندما عاد من مصر إلى دمشق، واستقر فيها. له الكثير من المؤلّفات، تناهز المائة، نذكر منها: «مدارج السالكين»، «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»، و«هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى»، و«المنار المنيف في الصحيح والضعيف»، و«طريق الهجرتين وباب السعادتين»، وغيرها.

يذكر الكاتب في مقدّمة مؤلّفه الفكرة المحوريّة من الكتاب، وهي الإعلاء من شأن العقل للوصول إلى الإيمان، وهي فكرة سادت أيضاً في الفكر الكنسي الأوروبي في العصور الوسطى، واتّخذت شعار التوفيق بين العقل والنقل أو الإيمان. اعتبر ابن القيم الجوزية أنّ العقل هو أعظم كرامة أكرم الله بها عبده، وفي مقابل ذلك فهناك الأعداء الثلاثة الّذين يتربّصون به، وهم: الهوى، والشيطان، والنّفس الأمّارة بالسوء. وعَبر حياة الإنسان على الأرض وظروفه الاجتماعيّة والنفسيّة، فإنّ هذه الأعداء الثلاثة تُشعل حرباً ضروساً مع العقل الذي يسعى دوماً إلى التغلّب عليها.

---

(١) شمس الدين محمّد بن ابن قيّم الجوزيّة، روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣.

جعل ابن قيّم الجوزيّة كتابه «روضة المحبّين ونزهة المشتاقين» في تسعة وعشرين بابـاً، جاءت كما يلي: في الأبـواب الأولـى يذكر فيها أسماء المحبّة، واشتقاقها، ومعانيها، ونسبتها، ونسبة بعضها إلى بعض، وينتقل للحديث عن العالمين السفلي والعلوي، بوصفهما وُجِدا بمحبّة ولأجلها، ويتحدّث عن دواعي المحبّة، وما تجني على صاحبها.

وفي الباب السابع يقيم مناظرة بين القلب والعين، وهكذا يستمر حتّى الباب العاشر، وما بعده، عندما يتحدّث عن العشق وأوصافه وضرورته، وذِكر الصواب فيه، وفي سكرة العشاق ولذّتها المرتبطة بالمحبّة في الكمال والنقصان، فضلاً عمّن مدح العِشق وتمنّاه وغبط صاحبه، وفيمن ذمّ العشق، وصولاً إلى حبّ الله ورسوله. ويؤكّد الكاتب على عفاف المحبّين مع أحبابهم، وكيف تُفضي سبل الحرام إلى المفاسد والآلام. وينتهي بالحديث في البابين الأخيرين عمّن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذّة الوصال الحرام، وينتهي في ذمّ الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى.

جاء الكتاب في ٤٨٩ صفحة، وجعله مقسّماً في تسعة وعشرين باباً، حيث بدأ بوضع ستين من الأسماء المترادفة للمحبّة، كالهوى، والعشق، والجوى، والخلّة، والصّبوة، إلى آخره. ففي باب سكرة العشاق (الباب الثاني عشر) يضع حد السكران: «متى لم يعلم ماذا يقول، وأفشى سره المكتوم، واختلط كلامه المنظوم ... إلى آخره». فالسكر عنده يوجب اللذّة ويمنع العِلم، وتلك اللذّة تجلب الهموم والغموم. لذلك، فإنّ في «لذة ذكر الله والإقبال عليه والصلاة بالقلب والبدن من المنفعة الشريفة العظيمة ...». فالمحبّة تكون متى انصرفت إلى جهة لم يبقَ فيها متّسع لغيرها، فلا يوجد في القلب حُبَّان، لذا دعا ابن قيّم الجوزيّة للانفراد بحب الله ورسوله.

إنّ كتاب «روضة المحبّين ونزهة المشتاقين» غنيّ بالأحاديث والنصوص القرآنيّة والاستشهادات من كتب التراث التي تدعّم مقولاته ومواقفه. ويضع المؤلّف في نهاية

الكتاب أموراً عديدة، كنصائح موضوعيّة لمن وقع فريسة لإدمان الخمر والجماع؛ منها: العزيمة، والصبر، والإيثار، والتفكّر في العواقب، والترفّع عن غرائز البهائم، والأنفة عن الهوى وتجنبها بإعمال العقل والتوحيد، فإنّ إتباع الهوى لا يجلب على صاحبه إلا الذل والبلاء والهوان، أمّا مخالفة الهوى فشرف وعزّة.

•••

٨٧- الكتاب: أعيان العصر وأعوان النّصر[١]

الصّفدي (ابن أيْبك) (٦٩٦-٧٦٤ هـ / ١٢٩٦-١٣٦٣م)

هو أبو الصّفاء، صلاح الدين خليل بن أيْبك الصفدي الدمشقي، ولد لأحد أمراء المماليك في مدينة صفد بفلسطين، ونشأ في أسرة ثريّة ومثقفة. برع في النحو واللغة والأدب والإنشاء وقرض الشعر. تعلّم على ابن نُباتة، وأبي حيّان الغرناطي، والحافظ الذهبي، والشيخ ابن تيميّة، وغيرهم من العلماء والفقهاء. تولّى مناصب عدّة، أغلبها كتابيّة، فضلاً عن ترؤسه وكالة بيت المال في دمشق. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: «الوافي بالوفيّات» و«أعيان العصر وأعوان النّصر»، الكتاب الذي بين أيدينا، و«لوعة الشّاكي ودمعة الباكي» و«توشيع التّوشيح»، و«الرّوض الناسم والثغر الباسم». توفّي في دمشق بمرض الطاعون، الذي كان قد انتشر في البلاد المصريّة، وامتد إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسّط عبر بلاد الشام.

ترجم الصفدي لشخصيّات عصره، الذين اقتصرهم على من أدركوا عام ولادته (٦٩٦ هجري). وشرع في كتابته بعد الفراغ من تأليف «الوافي بالوفيّات»، إذ نقل منه ترجمات الأعلام، التي انطبق عليها شرحه، وكان مجموع من وضع تراجم لهم أكثر من ألفي شخصيّة. وتأثّر اللاحقون من المؤلّفين بمنهج الصفدي ومادّته، ما دفع إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥ هجري) إلى تأليف كتاب «إظهار العصر لأسرار أهل العصر»، على غرار كتاب صلاح الدين الصفدي «أعيان العصر وأعوان النّصر».

---

(١) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النّصر؛ علّق عليه ووضع حواشيه عمر محمّد عبد الحميد، بيروت: دار الكتب العلميّة، بلا طبعة، بلا تاريخ، في أربعة أجزاء.

في مقدّمة الكتاب تحدّث الصفدي عن تأثّره بالأدباء، من أصحاب البلاغة والفطنة، كالوزير أبي الوليد أحمد بن زيدون المغربي، الذي عندما توفّيت ابنته في قرطبة وقف للناس لأخذ التعازي، وقيل عنه «إنّه ما أعاد في ذلك الموقف عبارة قالها لأحد»، فاعتبرها الصفدي تفنّناً في أساليب الكلام.

وذكر أيضاً عن الشيخ المعتزلي واصل بن عطاء أنّه لم يُسمع منه كلمة فيها «حرف راء» قط، ذلك لأنّه كان يلثغ بحرف الراء لثغة قبيحة، لذلك كان يرادف تلك الكلمات في معناها، فبدل فرس كان يقول: جواد أو سابح أو صافن.

وعلى نحو مماثل استعمل الحريري في مقاماته أسلوباً مماثلاً في كل مرّة اجتمع فيها الحارث بن همام بأبي زيد، إذ احتاج للقول: «فلمّا أصبح الصبح...»، وفي موقع آخر يُغيّر من هذه العبارة، كما في قوله: «فلمّا لاح ابن ذكا، وألحف الجو الضياء...»، وهكذا. سعى الصفدي إلى أن يكون كتابه مميّزاً ومخطوطاً بأسلوب مشوّق فريد.

من أمثلة منهج صلاح الدين الصفدي في الترجمة لأعيان عصره ترجمته للقاضي أمين الدين بن القاضي، إذ يعود إلى مرجع هو «الدرر الكامنة» (المجلّد الأوّل صفحة ١٣)، يقتبس منه تفاصيل عن ترجمته ويشير إلى عراقة أصوله، وأين توفّي القاضي أمين الدين، ومتى ولد، وماذا عمل؟ وما إلى ذلك، كما يقدّم رؤية شخصيّة لعلاقته به، ويطلعنا على الأشعار التي تبادلها معه، كما ذكر أنّهما كانا على موعد للحج معًا، ولكنّ القاضي تأخّر عن الركب، لسبب ما، فلمّا عاد من الحج كتب إليه قصيدة على البحر الكامل معاتباً، مطلعها:

أفـــدي الـــذيـــن غـــدت مـحـافـظـتـي

عـلـى مـيـثـاقـهـم دون الـــورى تـغـريـنـي

فرد عليه القاضي أمين الدين بقصيدة طويلة من البحر الطويل، مطلعها:

أيــا مــن غــدا يسـتـوعـب الـوقـت مـدحـه

لــنـقـص فــعـــال وهـــو قـــول مـلـفّـق

وفي مناسبة أخرى، عندما أُصيب صلاح الدين الصفدي بمرض اليرقان، كتب له القاضي أمين الدين قصيدة على البحر الكامل، مطلعها:

حَـــاشـــاك مـــن ألـــمٍ ألـــمَّ بـمـهـجـة

قـــد مَـــسّـــهـــا ألـــمٌ مـــن الـيـرقـــان

•••

٨٨- الكتاب: فوات الوفيّات[١]

الكَتبي (~ ٦٨٦ – ٧٦٤ هـ / ~ ١٢٨٧ – ١٣٦٣ م)

هو محمّد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الكَتبي، المُلقّب بصلاح الدين. سكن في دمشق، وتعلّم على ابن الشحنة، والمزّي، وغيرهما، وحصل على ثقافته عبر طريق الوِراقة والمتاجرة بالكتب، التي امتهنها، وظلّت ثقافته محدودة تميل إلى «التقميش والتنسيق» مقارنة بأصحاب الثقافة العميقة والكتابة الرصينة في عصره، مثل التوحيدي والحموي. ولكنّ خطه كان واضحاً وجميلاً؛ فضلاً عن أنّه أتقن الوِراقة، فأقبلت الناس على ما ينسخه بالشراء؛ فتحسّنت أحواله الماديّة وأصابه بعض الثَراء. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: «عيون التواريخ» الذي جاء في ٢٢ جُزءاً، و«روضة الأزهار في حديقة الأشعار»، و«فوات الوفيّات والذيل عليها»، وهو موضوع هذا المُلخّص، وغيرها.

لعلّ كتاب الكَتبي «عيون التواريخ» أوسع تأثيراً وأكثر أهمّيّة من كتابه هذا، «فوات الوفيّات»، لكنّ «عيون التواريخ» كتاب ضخم من الصعب تلخيصه في بضع مئات من الكلمات. لذلك، رأينا أن نعرض هنا كتاب «فوات الوفيّات» عوضاً عنه.

ويبدو أنّ الكَتبي قام بجمع هذه التراجم وترتيبها بعد أن اطّلع على كتاب ابن خِلّكان «وفيّات الأعيان». فلاحظ أنّ ذاك المؤلّف المشهور أهمل ذكر الخلفاء؛ إضافة إلى أنّه أخلّ بتراجم بعض شخصيّات زمانه. لذلك، يذكر الكَتبي في مقدّمته القصيرة من الكتاب أنّه أراد أن يستدرك ما فات ابن خِلّكان ويُذيّل على كتابه. كما أفاد الكَتبي من

---

(١) محمّد بن شاكر الكَتبي، فوات الوفيّات والذيل عليها؛ تحقيق إحسان عبّاس، بيروت: دار صادر، بلا طبعة، بلا تاريخ، في أربعة أجزاء.

كتاب الصفدي «الوافي بالوفيّات»، واختار بعضاً من تراجمه، وجعل «فوات الوفيّات» في أربعة مجلّدات.

يبدأ الكَتبي كتابه هذا بحرف الهمزة، ويضع فيه الترجمة الأولى، كما يأتي: «إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، أبو إسحاق العجلي، وقيل النخعي البلخي الواعظ أحد الأعلام...».. ويذكر غزواته وطريقة موته، ويصف ليلة موته؛ كما يذكر ما قيل عنه، كقولة: «وقال النسائي: إبراهيم أحد الزهاد، وهو مأمون ثقة ... وقال البخاري: مات سنة إحدى وستين ومائة، وسيرته في «تاريخ دمشق» ثلاث وثلاثون ورقة وهي طويلة في «حلبة الأوّلياء»، رحمه الله تعالى.

وفي ترجمة الكَتبي عن المعتضد بالله العبّاسي، وهي من ضمن تراجم الخلفاء التي أهملها غيره من قبل، كابن خِلّكان في «وفيات الأعيان»: يخبرنا عن اسم المعتضد، وأصله وفصله، وأين ولد ومتى توفّي، ومَن استخلف من بعده؛ ثم يصفه بالآتي:

«وكان شجاعاً مهيباً، أسمر نحيفاً وافر العقل، ظاهر الجبروت، شديد الوطأة، من أفراد خلفاء بني العبّاس. كان يَقدم على الأسد لوحده لشجاعته». ورغبته واضحة في تأكيد شجاعة المعتضد والمبالغة فيها من روايته التي تصف كيف قتل المعتضد أسداً وحده.

ثم يخبِرنا كيف جمع المعتضد بالله المال، وكيف في أيّامه سكنت الفتن لعظيم هيبته. فأُطلق عليه اسم السفّاح الثاني، لأنّه جدّد ملك بني العبّاس. وفي الوقت نفسه، يقول عنه إنّه نشر العدل ورفع المظالم عن الرعيّة. ولكنّه يقول أيضاً: إنّ «مزاجه كان قد تغيّر من إفراطه في الجماع وعدم الحمية، وإنّه أكل في علّته زيتوناً وسمكاً. وشكّوا في موته؛ فتقدّم الطبيب وجَسَّ نبضه. ففتح عينه ورفس الطبيب، رماه أذرعاً. فمات الطبيب، ثم مات المعتضد؛ وبويع ابنه المكتفي».

يمتاز «فوات الوفيّات» بأنّه يروي قصصاً عن تلك الترجمات، ويذكر روايات قيلت عنها، بما في ذلك بعض ما قيل من أشعار. حتّى جنكز خان وَجد له مكاناً في

تلك الترجمات. فبعد أن وصفه بطاغية التتار وملكهم الأوّل، الذي خرّب البلاد وقتل العباد، استعرض كيف وسّع سلطانه واستولى على مدن خُراسان وما بعدها. كما وصف كيف نظّم البلاد وألزم التتار بالطاعة التامّة له؛ وكيف شجّع التزاوج بين أهله كي يزداد عددهم، وكيف سنّ القوانين الصارمة لضمان طاعته.

ويروي الكَتبي كيف أنّ الترك زعموا أنّ جنكز خان هو ولد الشمس. ويروي قصّة مألوفة تاريخيّاً أنّ أمَة ذهبت إلى الغاب وحملت، وادّعت أنّ حملها كان من أشعة الشمس فيما كانت تغتسل! ويُنهي هذه القصّة بقوله: والله أعلم. فهو لا يُحدد موقفه أبداً من هذه الرواية أو من غيرها.

وزبدة القول إنّ أسلوب هذا الكتاب مشوّق؛ وفيه منهج جديد في الكتابة، من حيث السرْدُ والرواية. وضم الكتاب المئات من الترجمات. واشتملت هذه الترجمات على الكثير من الشخصيّات التاريخيّة التي لم يأت على ذكرها المؤلّفون ممّن سبقوه أو عاصروه.

•••

٨٩- الكتاب: مرآة الجنان وعبرة اليقظان[١]

اليافعي (٦٩٨ – ٧٦٨ هـ / ١٢٩٨ – ١٣٦٧ م)

هو أبو محمّد، عبد الله اليافعي الشاذلي. ولد في مدينة عدن، ونشأ بها وتعلّم على الشيخ علي الطواشي، قطب مدينة حلا، وغيره. تنقّل بين مكّة والشام والمدينة ومصر وبيت المقدس. وفي مصر تتلمذ على القطب الربّاني، وابن الميلق القرشي الشاذلي، وغيرهما. كان شافعي المذهب، وقد أجمعت الناس على ولايته. توفّي في مكّة المكرّمة ودفن في باب المُعلَى، إلى جانب الفُضيل بن عياظ. نذكر من مؤلّفاته ما يلي: «تاريخه الكبير» المسمّى «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان وتقلب أحوال الإنسان»، و«كشف الظنون»، وكتاب «روض الرياحين»، وغيرها. كان يعتبر من أصحاب الكرامات والمكاشفات، فعندما توفّي بيعت أشيائه بأغلى الأثمان.

تظهر شخصيّة المؤلّف عبد الله اليافعي في كتابه «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» من خلال المنهجيّة الصارمة التي اتّبعها، من حيث نقده ومعارضته لنسبة بعض الأشعار لأصحابها. كما سعى إلى توثيق الحوادث والمعلومات والأشعار، ونسبها إلى مؤلّفيها، ومراجعها، وأصولها، وذلك كي يتوسّع القارئ ويستزيد منها عند البحث والاستقصاء. وقد اشتمل الكتاب على معلومات موسوعيّة في الأدب والاجتماع والجغرافيا والتاريخ والسياسة وغيرها من موضوعات العلوم الإنسانيّة، حيث تجده يتدرّج في ذكر الحوادث المهمّة من سنة الى أخرى تليها، بحيث تنداح رؤيته لتشمل

---

(١) عبدالله بن أسعد اليافعي، مراة الجنان وعبرة اليقظان: في معرفة ما يُعرف من أحداث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، في جزأين.

الأحداث من خُراسان شمالاً إلى اليمن جنوبـًا، إلى البلاد المصريّة، فسائر العالم الإسلامي.

وتشتمل الروايات على وفيّات الأعيان في تلك السنوات، من سياسيّين وفقهاء وشعراء ومحدّثين وغيرهم، إضافة إلى الحوادث الطبيعيّة التي ضربت تلك المناطق، كذكر ضربات الزلازل المدمّرة، أو السيول الجارفة التي حلّت بمنطقة أو بأخرى، ويُدوّن أثرها على الاقتصاد، من حيث ارتفاع الأسعار أو هبوطها، سواء كان ذلك في مكّة، أو بغداد، أو اليمن، أو مصر، أو غيرها من مناطق الخلافة.

ولا شك أنّ النظرة السياسيّة كانت موجودة بقوّة في التحليل، حيث دوّن تَدخّل الفئات العرقيّة المتنوّعة في شؤون الحكم وهيمنتها على الخلافة، من حيث أنّها كانت تستطيع أنْ تخلع الخليفة وتُنصّب بدلاً منه على هواها ومتى شاءت، وذلك وفق مصالحها. ويوضّح اليافعي كيف أصبح القادة العسكريّون يديرون شؤون البلاد، فيما بات الخليفة مجرّد أيقونة لا حول له ولا قوّة.

وقد قسّم الكتاب إلى سنوات هجريّة، حيث بدأ بالسنة الهجريّة الأولى، فالثانية، وهكذا حتّى انتهى بسنة مائتين للهجرة. ومن الملاحظ تفاوت عدد الصفحات التي غطّت أحداث كل سنة، بعضها كان أقلّ من صفحة، فيما تراوح البعض الآخر بين صفحة وبضع صفحات. فعلى سبيل المثال، في شرح أحداث سنة مائة، التي جاءت في صفحة ١٦٥، يذكر اليافعي وفاة أبي إمامة الأنصاري الذي كان من علماء المدينة. كذلك يذكر وفاة أبي الطفيل عامر الكناني بمكّة، ويقول إنّه كان «آخر من رأى النبي صل الله عليه وآله وسلم موتـًا، ...»، ويروي عنه هذا البيت:

ومـــا شـــاب رأســـي عــن سنـيـن تـنـابـعـت

عـــلـــيّ ولــكـــن شـيّـبـتـنـي الــوقــائـع

وتوفّي في تلك السنة بُسْر بن سعيد المدني، وهو الذي روي عن عثمان وزيد بن ثابت. كذلك توفّي سالم الكوفي، وكان من مشاهير المحدّثين، وتوفّي خارجة الأنصاري، وكان أحد الفقهاء السبعة، وتوفّي أبو عثمان بن النهدي بن مَل بالبصرة، وهو الذي صحب الصحابي الجليل سلمان الفارسي. وتوفّي أيضـاً شهر الأشعري الراوية المعروف، كذلك مسلم بن يسار الذي كان من فقهاء البصرة، وتوفّي أيضـاً عيسى بن طلحة، وكان أحد أشراف قريش.

•••

٩٠- الكتاب: البداية والنهاية[١]

ابن كثير (٧٠١ – ٧٧٤ هـ / ١٣٠١ – ١٣٧٣ م)

هو أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع، القرشي الشافعي الدمشقي، محدّث وفقيه ومفسّر. ولد بمدينة مجدل، وانتقل إلى دمشق. تتلمذ على ابن غيلان البعلبكي الحنبلي في علوم القرآن، ومحمّد بن جعفر اللباد في القراءات، وضياء الدين الزربندي في النحو، وابن تيميّة، وغيرهم. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: «تفسير القرآن العظيم»، الشهير باسم «تفسير ابن كثير»، و«البداية والنهاية»، و«الباعث الحثيث»، و«السيرة النبويّة لابن كثير»، و«جامع السنن والمسانيد لابن كثير»، و«طبقات الشافعيّة»، و«مسند الشيخين»، أبو بكر وعمر، وغيرها الكثير. توفّي في دمشق بعد أن فقد بصره في آخر حياته وهو يؤلف «جامع المسانيد»، وفيه قال: «لا زلت فيه في الليل والسراج ينونص، حتّى ذهب بصري معه». دفن في تربة ابن تيميّة في مقبرة الصوفيّة.

«البداية والنهاية» هو مؤلّف ابن كثير الموسوعي التاريخي الهائل، المطبوع في واحد وعشرين جزءاً، يعرض فيه التاريخ منذ بدأ الخلق إلى نهايته. فيبدأ في الأجزاء الثلاثة الأولى بالحديث عن بداية خلق السموات والأرض، والملائكة، فخلق آدم، فقصص الأنبياء، وصولاً إلى بداية التاريخ للهجرة.

ويخصّص الجزء الرابع لبدء الوحي حتّى السنة الأولى للهجرة، وفي الجزء الخامس يغطّي الأحداث التي وقعت لغاية السنة الرابعة للهجرة، والجزء السادس يغطّي الأحداث حتّى الثامنة للهجرة ، فيما يغطّي الجزء السابع الأحداث حتّى السنة

---

(١) ابن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية؛ تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مصر: دار هجر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، في واحد وعشرين جزءاً.

العاشرة للهجرة، أمّا الجزء الثامن وحتّى السنة الحادية عشرة للهجرة ففيها أحاديث عن دلائل النبوّة وشمائلها. وتغطّي الأجزاء من التاسع حتّى الجزء الثامن عشر من سنة ١١ للهجرة لغاية ٧٦٨ للهجرة.

أمّا الجزء التاسع عشر، فهو جزء الفتن والملاحم وخبر الأبلة – علامات الساعة – يوم القيامة. ويخصّص الجزء العشرين لوصف كيف يُعرَض الناس يوم القيامة أمام الله عز وجل. ويشتمل الجزء الأخير الحادي والعشرين على فهارس عديدة، فيبدأ بمقدّمة للفهارس، يليه فهرس الآيات القرآنيّة، فالأحاديث النبويّة القوليّة، والأحاديث النبويّة غير القوليّة والآثار، وفهرس القوافي وأنصاف الأبيات، وفهرس الغزوات والأيّام والوقائع، وفهرس القبائل والأمم والفرق، وفهرس الأماكن والبلدان والمياه، وفهرس الأعلام، وفهرس الكتب، وفهرس كتب النبي، وفهرس الغرائب والكائنات، وفهرس الأحاديث القدسيّة، وفهرس مراجع التحقيق.

يحدّثنا ابن كثير عن يوم القيامة، وكيفية اللقاء مع الله «حُفاة عُراة غرْلاً»، كما جاء في الحديث الشريف، مؤكّداً على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية ١٠٤). ويصف كيف يُعْرَض الناس أمام الله، مستشهداً بالحديث الشريف: «يُعرَض الناس يوم القيامة ثَلاثة عَرَضات، فأمّا عرضتان فجدال ومعاذير، وأمّا الثالثة فعندها تطير الصّحف في الأيدي، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله». كما يوثّق ذلك شعراً بقوله: «وقد روى ابن أبي الدنيا عن ابن مبارك أنّه أنشد في ذلك شعراً»:

وطـارت الـصُّـحْـف في الأيـدي مُـنـشَّـرةً

فـيـهـا الـسّـرائـرُ والـجـبَّـارُ مُـطَّـلـعُ

وعلى هذه السويّة من الروايات يستمر في رواية دلائل وأقاويل وشواهد الحشر، الذي يبدأ من «المخلوقات الحيوانات، قبل الإنس والجن، ...». وينقل عن القرطبي قوله عن حشر الحيوانات: «أنها إذا حشرت وحبست تعود ترابا، ...».

ويبدأ ابن كثير في وصف عمليّة قضاء الله بين العباد، فيقول: «فتُقضى فيه الدّماءُ أولاً، ويكون أوّل الأمم يُقضى بينهم هذه الأمة؛ ...». ويخصّص ابن كثير فصلاً لأوّل ما يُقضى فيه بين الناس يوم القيامة، ولمَنْ يُناقَش في الحساب، ومَنْ يسامح فيه. وفي فصل آخر يحدثنا عمَنْ يدخل الجنّة بغير حساب وحالات أخرى كثيرة، ويصف جهنم، ونارها، وأبوابها، وصفة من فيها.

ويخصّص مقداراً طيّباً من الكتاب لشفاعة رسول الله، وبيان أنواعها وتعدادها، مدعّمة بروايات يصعُب حصرها. ثم يأتي بفصل «في أصحاب الأعراف»، وفصل يليه «في آخر من يخرج من النار»، ففصل في «آخر من يدخل الجنّة»، وآخر في خلود الكافرين في النار. ويشرع في وصف الجنّة، وأبوابها، وأقسامها، وعظمتها، ويصف تربتها، وأنهارها، وبنيانها، وما إليها.

كذلك خصّص فصلاً في أشجار الجنّة وغراسها وثمارها وطيرها وريحها ونورها وطعامها وشرابها ولباس أهلها وحليّهم، كما وصف فرش أهل الجنّة والحَوْر العِيْن، وتحدّث عن خلود الناس فيها، ومتى يرون ربهم. وفي الفصل الأخير يُجيب عن بعض التساؤلات في المرأة، كالتالي:

سؤال: إذا تزوّجت المرأة في الدنيا بأزواج ثم تدخل الجنّة؛ فلمن تكون؟

في الإجابة عن التساؤل الأخير يُقدّم ابن كثير عدّة احتمالات: فمنها مَن قال تعود الزوجة إلى زوجها الصالح، أو «أنّ الرجل إذا ابتكر المرأة تزوجها في الجنّة»، أو «أنّ المرأة تكون لآخر أزوجها في الدنيا»، أو «أنّها تكون لأحسنهم خلقاً»، وهكذا يفتح الباب أمام نسبيّة المعرفة وكثرة الاحتمالات في عالم الميتافيزيقا والحياة الأخرى.

•••

٩١- الكتاب: الإحاطة في أخبار غرناطة[١]

ابن الخطيب (لسان الدين) (٧١٣ – ٧٧٦ هـ / ١٣١٣ – ١٣٧٥ م)

هو أبو عبد الله، لسان الدين علي بن أحمد السلماني، ولد في مدينة لوشة، ونشأ في بيت علم وجاه في غرناطة. درس على أبي عبد الله بن الفخار وأبي القاسم السبتي وغيرهما. تسلم رئاسة ديوان الإنشاء؛ ومنحه السلطان أبو الحجاج رتبة الوزارة، وأسبغ عليه لقب ذي الوزارتين، لجمعه بين الكتابة والوزارة. اتُّهم بالإلحاد والزندقة، لِما ورد في كتابه «روضة التعريف بالحب الشريف»، وعُذّب، وسجن، ثم قتل خنقاً في سجنه، وبعدها أحرقوا جثته في اليوم التالي قبل دفنه. له الكثير من المؤلّفات،إذ تخصص في النثر الوزاري والسياسي. وقد نقل المقري ثبتاً بكتبه في مؤلّفيه «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» و«أزهار الرياض»، فمن كتبه الآتي: «الإحاطة في أخبار غرناطة» و«التاج المحلّى في مساجلة القدح المعلى» و«ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب»، وغيرها.

أورد ابن الخطيب في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» تراجم زهاء خمسمئة من الأعلام والأكابر والأقران، علاوة على وصف غرناطة وصفاً دقيقاً، وذكر تاريخها بالتفصيل، إذ فصّل في اسم المدينة وتاريخ فتحها ونزول العرب الشاميّين فيها، وذكر من كان يسكن معهم من النصارى المعاهدين. كذلك أسهب في وصف قراها وضياعها وجنانها، ووصف أهلها ونسائها وأنسابهم ومظاهرهم وأزيائهم وطرق معيشتهم، ثم انتقل في القسم الثاني إلى ترجمة الأعلام انطلاقاً من حرف الهمزة بترجمة تخصّ

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة؛ تحقيق محمّد عبد الله عِنَام، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، ٢٠٠١، في مجلّدين.

أحمد بن خلف بن عبد الملك الغسّاني القليعي، حتّى وصل إلى ترجمة محمّد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي.

وفي حديث ابن الخطيب في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»عن ترجمات الأعلام والأمراء، يخبرنا، على سبيل المثال، عن تاشُفين بن علي بن يوسف، أمير المسلمين، كذلك كيف اشتهر في الأندلس عندما كان والياً لغرناطة وألمرية ثم قرطبة، وكيف كبرت المدينة وعَمُرت، فشاع اسمه وعمّ ذكره، الأمر الذي أغضب أخاه (سِير، الذي كان ولي عهد أبيه)، لأنّ اسم أخيه (تاشُفين) كان قد غطّى على اسمه بأعماله المحبّبة، ولأنّ الناس لم تعد تذكر ولي العهد على الإطلاق.

لذلك قام أبو تاشُفين ، علي بن يوسف، بدعوته إلى حضيرته في مرّاكش، ولكنْ في ذلك الأثناء ما لبث أنْ مات أخوه سِير فجأة، فحاولت الأم تقديم ولدها المسمّى إسحاق للإمارة، رغم أنّه كان لم يبلغ سن الرشد بعد، لكنّ الخليفة طالب الناس، في خطبة المسجد، بتعيين ابنه تاشُفين لسمعته الطيّبة، وهكذا أفضى إليه مُلك أبيه. ويذكر لسان الدين بن الخطيب ثناء ابن الصيرفي عليه، كما يخبرنا عن تعبده ودعابته ودخوله غرناطة، ويطلعنا على عمّاله ووزرائه وكُتّابه وأخبار جهاده، وعن بعض ممّا مُدح به، وأخيراً كيف انتهى الأمر بوفاته. وهكذا حال بقيّة الترجمات.

ويقول لسان الدين بن الخطيب إنّه لمّا دخل الشاميّون بقيادة أميرهم بَلس، وسكنوا قرطبة، نازعهم «البَلديُّون»، وهم الدفعة الأولى من الفتوح. وهكذا اشتعلت فتنة، ودارت حروب فيما بينهم، إلى أن وصلها أبو الخَطّار حسام بن ضرار الكَلْبي قادمًا إليها بحراً من تونس. وقام أبو الخَطّار بالتقريب بين الفرقاء وأخرج القبائل الشاميّة عن قرطبة، «فأنزل جُند دمشق كُورَة إلبيرة وجُند الأردن كُورَة جَيّان وجُند مصر كُورَة باجت، وبعضهم بكُورَة تُدْمير: فهذه منازل العرب الشاميين؛ وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمّة من العجم طُعْمةً؛ وبقي العرب والبَلَدِيُّون والبربر شركاءهم ...».

•••

٩٢- الكتاب: تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[١]

ابن بطوطة (٧٠٣ – ٧٧٩ هـ / ١٣٠٤ – ١٣٧٧ م)

هو أبو عبد الله، محمّد بن عبد الله بن محمّد اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة. ولد بطنجة لعائلة ميسورة من قبيلة لواته البربريّة، ولذلك لُقّب باللواتي. خرج في ثلاث رحلات، منها رحلته الشهيرة سنة ٧٢٥ للهجرة وهو في سن ٢١ عاماً، واستغرقت ٢٧ سنة، قطع فيها ما يناهز ٧٥٠٠٠ ميل، وزار أكثر من أربعين بلداً. تجوّل في شمالي إفريقيا، ووسطها، وأجزاء كبيرة من الهند، وجزر المالديف، والأناضول، وإسبانيا، وغيرها، قبل أن يعود إلى مدينة فاس بالمغرب، حيث قام ابن جزي بتدوين ما أملاه عليه ابن بطوطة، باستخدام قلم كاتبه محمّد الكلبي. وتولّى ابن جزي فيما بعد ترتيب هذه المعلومات، وتهذيبها، مستخدماً أسلوبه الخاص وخياله الرحب. كتابه الشهير المعروف «تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» هو عمله الرئيس. عندما عاد الى المغرب شغل منصب القضاء حتّى نهاية حياته. توفّي في مرّاكش.

يُعدّ كتاب «تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، والمسمّى أيضاً «رحلة ابن بطوطة»، من أشهر كتب الرحلات على الإطلاق، حيث لقّب ابن بطوطة بأمير الرحالة المسلمين على مر العصور. طُبع عمله كاملاً لأوّل مرّة في باريس عام ١٨٥٣ للميلاد، في أربعة مجلّدات، وأرفق الكتاب بترجمة فرنسيّة بإشراف واسن

---

(١) ابن بطوطة، تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت: دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.

انجنتي. وربّما يكون من أهمّ من نَشر رحلة ابن بطوطة من العرب هو عبد الهادي التازي، في الرباط عام ١٩٩٧ للميلاد، وكان قد قدّم للكتاب في ١٤٦ صفحة.

بدأ ابن بطوطة رحلته من طنجة شمالي المغرب حاليّاً، وهي مدينة جميلة تقع على البحر المتوسّط قبالة سواحل إسبانيا، وتشرف على مضيق جبل طارق. تنقّل ابن بطوطة في المغرب أوّلاً ثم اتّجه شرقاً نحو الجزائر، فتونس، فليبيا، إلى أن وصل إلى الإسكندريّة. ومن هناك اتّجه صوب بلاد الشام، نحو مدينة غزّة أوّلاً، ثم الخليل، فبيت لحم، فالقدس، وبعدها اتّجه صوب عسقلان، فنابلس من مدن فلسطين.

كما زار ابن بطوطة الأردن، ووصل إلى عجلون ووصف قلعتها، ثم عَبر غور الأردن باتّجاه عكّا، فمدينة صور جنوبيّ لبنان، فاللاذقيّة في سوريا، فبيروت وطرابلس شمالاً، ثم حمص، فحماه، فحلب، فأنطاكيا، فدمشق.

واتّجه صوب الأردن مرّة أخرى، وعبرها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، مروراً بالكسوة، فالصنمين، فزرعة، فبصرى الشام، إلى أن شرع يدخل في الصحراء الأردنيّة عند منطقة «بركة زيرا»، وهي اليوم تسمّى بركة «زيزيا»، وما زالت تجمع مياه الأمطار حتّى يومنا هذا. واتّجه من هناك إلى اللجّون في الكرك، وعبر قراها متّجهاً جنوباً حتّى وصل إلى «عقبة أيلا»، التي تدعى اليوم العقبة، وهي ميناء الأردن الوحيد على البحر الأحمر. ومن هناك انطلق ليزور الحجاز بدءاً من تبوك، فالمدينة المنوّرة، فمكّة المكرّمة.

وبعد انتهاء فريضة الحج زار العراق، وبلاد فارس، واليمن، والبحرين ثم ارتحل مرّة أخرى لأداء فريضة الحج مرّة ثانية، وعاد إلى مصر، ومنها إلى بلاد الشام مرّة أخرى، ثم اتّجه شمالاً صوب الأناضول وتركستان، حيث وصل إلى نهر السند، وبعض المناطق الهنديّة والصينيّة، وجاوا، وسومطرة، وبلاد التتر، ووصل إلى جزر المالديف، حيث عمل قاضياً هناك. ويقال إنّه تزوّج من إحدى نساء العائلة الحاكمة هناك. ويبدو أنّه كان يعتاش من مكارم الحكّام، ومن عمله ككاتب في الدول التي يحطّ فيها رحاله.

وتجدر الإشارة أنّه عند وصوله إلى الهند، عيّنه الحاكم محمّد بن تُغلق قاضيـاً، بوصفه خبيراً في الشريعة الإسلاميّة، لكنّهُ شعر بخيبة أمل من أحوال الهند لصعوبة فرض الشريعة الإسلاميّة في بلد أغلبيّة سكانه من الهندوس غير المسلمين، ورغم ذلك عمل هناك لستة أعوام. وفي أثناء إقامته في الهند، عرض عليه السلطان تنصيبه سفيراً في الصين، فكانت فرصة رائعة له لاستكشاف بلد جديد.

وفي رحلة عودته، تجوّل في بعض مدن اليمن، وأواسط إفريقيا، مثل الصومال، والسودان، وكينيا (مومباسا)، وغيرها من البلدان، ولاحظ في مومباسا تنظيماً عظيماً لتلك المدينة، شرحه وأبدى إعجابه به. ومن هناك طفق عائداً إلى مدينة فاس، حيث تولّى منصب القضاء، فيما شرع ابن جزي بتحقيق رحلته وتدوينها.

من اللافت في هذا الكتاب التفصيلات الجغرافيّة، وتخطيط المدن، والتقسيمات الإداريّة، وأحوال البلاد السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، فضلاً عن تفصيل أشكال الناس، ولباسهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، على نحو يجعله مرجعاً مهمّاً في دراسة الأثروبولوجيا والتاريخ البشري. كما يذكر أسماء السلاطين في تلك المناطق، وأبواب المدن، ومعالمها التاريخيّة، وأهم الشخصيّات في تلك البلدان، وشيوخها، والمقامات الموجودة فيها، والمذاهب التي ينتمون إليها، وعلماء عصرها، وما إلى ذلك.

وتنبع أهمّيّة الكتاب كذلك من أنّه يروي حكايات كان يتم تناقلها في تلك الأمكنة عبر الذاكرة الجمعيّة، بحيث توضّح طبيعة معيشة سكانها، وطبيعة المعاملات بين الناس، وبالتالي فإنّها ترسم أحوالهم الاجتماعيّة، وتلقي الضوء على الأحوال السياسيّة، والمظالم التي كان يتعرّض لها السكان، أو العدل الذي كان يصيبهم من حكامهم.

•••

٩٣- الكتاب: مقدّمة ابن خلدون[١]

ابن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ – ١٤٠٦ م)

هو عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون، ولد في تونس، ولكنّه استقرّ في الأندلس. درس في الزيتونة واشتغل في البلاط الأندلسي، ومنها ارتحل إلى مصر. يُعدّ ابن خلدون مؤسّس علم الاجتماع الحديث، وأطلق مصطلح «العمران البشري» لأوّل مرّة في التاريخ، كذلك أبدع مفهوم «الجاه» الذي يظهر عند صاحب المال أو السلطة، ومصطلحات مفهوميّة أخرى، كالعصبيّة والبداوة والتمدّن وغيرها، وأكّد على ارتباط العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة وتداخلهما. ويستحق أن يُطلق على ابن خلدون فيلسوف تاريخ، فهو أوّل من أفرد التاريخ بعلم خاص وحرّره من المناهج الموروثة. من أهم مؤلّفاته: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» (ويحتوي على «مقدّمة ابن خلدون» في جزئه الأوّل)، و«شفاء السائل لتهذيب المسائل»، و«لباب المحصل»، و«الكتاب الأوّل في العمران»، و«التعريف بابن خلدون ورحلاته شرقًا وغربًا»، و«شفاء السائل لتهذيب المسائل».

أسّس ابن خلدون للتاريخ بوصفه علماً، رغم قوله: « اعْلم أنّ التأريخَ فنٌ عزيز المذهب جمّ الفوائد شريف للغاية ...»، وميّزه عن التاريخ السردي بقوله إنّ علم التاريخ هو نظر وتحقيق، وذلك حينما استعرض مغالط المؤرخين وأوهامهم، مع ذكر الأسباب والحجج، حيث أنّ التاريخ في ظاهره أخبار، أمّا في باطنه فمعرفة بكيفيّات

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، بيروت: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بلا طبعة، بلا تاريخ.

الوقائع. وانطلق ابن خلدون من ضرورة الاجتماع الإنساني، وتأثير البيئة والمناخ في الأقاليم على البشر، وأحوالهم، وأخلاقهم، ومعاملاتهم، وطبائعهم.

وفي التأسيس للفكر السياسي، انطلق من فكرة أنّ الفصل بين البدو والحضر فكرة طبيعيّة، وأنّ البدو أقرب إلى الخير والشجاعة، وأنّ الرئاسة تقوم على العصبيّة، وأن المُلك المتأتّى منها يقوم على الانفراد بالمجد، وأنّ طبيعة المُلك هو الترف، وبالتالي فإنّ ثروة السلطان وحاشيته تقوم على الجباية، التي تتعمّق وتتّسع بالتدرّج لتظلم الناس، وينتهي إلى أنّ الظلم مؤذن بخراب العمران بفعل تسخير الرعايا بغير حق أو عدل، فيزداد الحجاب بين الحاكم والمحكوم، فتنقسم الدولة، أو تهرم، فيصيبها الموت، ولا تعود لها قائمة إلّا إذا تأسّست على عصبيّة من جديد؛ وهذا هو مفهوم الدورة الخلدونيّة: من العصبيّة إلى الدولة، من المُلك إلى الترف، فالظلم، ومن ثمّ انهيار الدولة.

وفي سياق تشكّل النظريّة الخلدونيّة، أنتج ابن خلدون مفاهيم نظريّة جديدة، كالعصبيّة، بوصفها قوّة محرّكة للتاريخ في المجتمعات القبليّة؛ إذ يقول مهدي عامل في كتابه «في علمية الفكر الخلدوني»: «وهكذا يتملك الفكر الواقع عبر تملّكه قوانينه ذات الطابع الكوني بعلميّتها، لأنّ غاية الفكر هي إدراك مبدأ وجود ما هو موجود»، وهذا بدوره يتطلّب تملّك مفاهيم جديدة تكون قادرة على أن تعكس الواقع المعيش في صيرورته التاريخيّة. ولكنّ مصطلح العصبيّة عند ابن خلدون ليس حكراً على المجتمعات القبَليّة أو البدويّة، إنّما اعتقد أنّ تطبيقه أصعب على المجتمعات الأكثر تقدّماً والأشد تعقيداً، بل رأى أنّ الإسلام بوصفه عصبيّة يمكنه أن يُشكّل عصبيّة أكثر كفاءة في حال المجتمعات المتقدّمة.

ويقدّم ابن خلدون رؤيته في بناء الدولة، وأهمّيّة التجارة والصنائع فيها، وأنّ العرب أبعد الناس عن الصنائع؛ ومنها الفلاحة وصناعة البناء والتجارة والحياكة والخياطة والتوليد والطب والخط والكتابة والوراقة والغناء والعلوم بأصنافها، كعلوم القرآن والحديث والفقه والفرائض والكلام والتصوف، فضلاً عن العلوم العقليّة والعدديّة

والعلوم الهندسيّة وعلم الهيئة وعلم المنطق والطبيعيّات وعلم الطب والملاحة وعلم الإلهيّات والكيمياء والتأثيرات النفسيّة وغيرها. وبالرغم من أنّ ابن خلدون هاجم العرب، وقال إنّهم «إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب» فإنّه قصد البدو وليس العرب، فلم يكن يشير إلى العرب بالمعنى الإثني أو اللغوي للمصطلح.

وتوصّل كذلك إلى أنّ العلماء أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها، وأنّ حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم، كصناعة «النحو لسيبويه، والفارسي من بعده، والزجّاج من بعدهما». أمّا العرب فاشتغلوا بالرئاسة وتكبّروا عن انتحال العلم بوصفه جملة من الصنائع الوضيعة. وينتهي ابن خلدون في مقدّمته بفصول عن علوم اللسان العربي، كالنحو، واللغة، والبيان، والأدب، وفصول أخرى عن انقسام الكلام إلى نظم ونثر، وصناعة الشعر عند العرب وأهل الأمصار، وموشّحات الأندلس وزجلها. حرّر ابن خلدون الفكر التاريخي من هيمنة الأفكار التقليديّة الغيبيّة، فاكتشف أنّ علم العمران هو آليّة حركة التاريخ الاجتماعي للكشف عن الحقائق الماديّة، وعن علاقة الحدث التاريخي «بضرورته التي ليس فيه».

كما وضع ابن خلدون نظريّات في التعليم، كقوله إنّ كثرة التأليف في العلوم تشكّل عائقاً في التحصيل، كاختلاف الاصطلاحات والمعارف، وتعدّد طرائق تحصيلها، وبالتالي تتعقّد الأمور بمطالبة التلاميذ باستعادتها واستحضارها كلّها. كذلك، فإنّ كثرة الاختصارات مخلّة بالتعليم، وأنّ الشدّة والقسوة على المتعلّمين تضرّ بهم نفسيّاً وبتحصيلهم العلمي.

•••

٩٤- الكتاب: صُبح الأعشى[١]

القَلْقَشَنْدي (٧٥٦ – ٨٢١ هـ / ١٣٥٥ – ١٤١٨ م)

هو أبو العبّاس، شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القَلْقَشَنْدي الفزاري، ولد في مدينة قلقشندة بمصر (قرقشندة كما وردت في معجم البلدان لياقوت الحموي)، وهي إحدى قرى مديريّة القليوبيّة بمصر. يعود في أصوله إلى بني فزارة العرب الذين قدموا مصر مع الفتح الإسلامي. درس في القاهرة والإسكندريّة، وتخصّص في الفقه الشافعي والأدب، وبرع في علوم اللغة والإنشاء والبلاغة، ثم عمل في ديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر برقوق. له الكثير من المؤلّفات، إلى جانب «صبح الأعشى»، نذكر منها: «ضوء الصبح المسفر»، و«جَنى الدّوح المثمر» وهو مختصر لكتاب صبح الأعشى، «الغيوث الهوامع» في علم الفقه، و«نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب»، و«قلائِد الجمان في قبائل العربان»، و«مآثر الإنافة في معالم الخلافة».

يقول كارل بروكلومان في موسوعته عن تاريخ الأدب العربي إنّ القرن الرابع الهجري شهد بدايات الكتابة الموسوعيّة العربيّة، وخاصّة مع كتاب «مفاتيح العلوم» لمحمّد بن أحمد الخوارزمي، ولكنّ القرن الثامن الهجري امتاز في مصر بظاهرة عصر الموسوعات العلميّة والأدبيّة الكبرى، التي بدأها أحمد بن عبد الوهاب النّويري (ت ٧٣٣ هجري) صاحب كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» ، بالإضافة إلى أحمد بن فضل الله العُمريّ (ت ٧٤٩ هجري) صاحب كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

---

(١) أحمد بن علي القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى في صناعة الإنشا؛ شرح وتعليق محمّد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلميّة، بلا طبعة، بلا تاريخ، في ثمانية أجزاء.

ومن الواضح أنّ الكتابات الموسوعيّة المبكّرة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة كانت أكثر صرامة وموثوقيّة، من حيث الإسناد والتدقيق والابتكار، ولكنّ «صبح الأعشى» له ميّزة خاصّة إضافيّة، من حيث أنّه أورد رسائل أصيلة انفرد بها، لا نجدها في أيّ مصدر آخر، منها رسالة السلطان الناصر محمّد بن قلاوون إلى أبي الحسن علي الماريني، وأيضاً رسالة الملك الأيوبيّ (الجواد) إلى ملك بيت المقدس آنذاك (فرانك)، بالإضافة إلى الرسالتين المتبادلتين بين أبي الحسن الماريني صاحب فاس والسلطان الناصر محمّد بن قلاوون، فضلاً عن الرسالة الودّيّة التي أرسلها صلاح الدين الأيوبيّ إلى ملك بيت المقدس (بردويل) يعزّيه فيها بوفاة والده، ويهنِّأه بالمُلك.

يَتّفق المؤرّخون على حُسن إسناد القَلْقَشَنْدي للمعلومات التي يدوّنها، حيث يَنسب كلَّ ما نقل إلى أصحابه، فيما جَمع الموسوعة بطريقة منظّمة، وأسلوب جميل، حتّى بات يُعد مرجعاً من أغنى المراجع العربيّة من حيث النصوص الأدبيّة، نظراً لوفرة عدد الرسائل والخُطب.

وجاء الكتاب في مقدّمة، وعشر مقالات، وخاتمة، يعرّفنا في المقدّمة بفضل القلم، وشرف الكتابة (بعد أن كان عملاً وضيعاً فيما مضى)، وتطوّر الإنشاء عبر العصور. وفي المقالة الأولى يتحدّث عن أنواع الأقلام والخط العربي، وينتقل في المقالة التي تليها إلى الجغرافيا السياسيّة، ليصف الممالك والبلدان المحيطة بها، حتّى يصل إلى الحديث عن ألقاب الملوك، وأرباب السيوف، والعلماء، والكُتّاب، والقضاة، مُرتّبة حسب حروف المُعجم. كذلك يتحدّث عن الوصايا الدينيّة والمسامحات بين الناس، وعن الإيمان وأنواعه، وعن عهود الأمان التي عَقدها المسلمون مع أهل الإسلام، وأهل الذمّة، وغيرهم.

وفي الخاتمة، يشرح القَلْقَشَنْدي طرائق إرسال البريد، ويستعرض تاريخه في كل من مصر وبلاد الشام، ويوضّح استخدامات الحمام الزاجل وأبراجه ومطاراته. وبناءً عليه،

فتعدّ هذه الموسوعة شاملة وافية فيما يتعلّق بصناعة الإنشاء وأحوال البلاد في زمن حكم المماليك، أي إبّان الحضارة العربيّة الإسلاميّة في عصور انحدارها، وذلك عندما غلبت على الكتابة الأدبيّة الطابع الشمولي التلقيني الفوقي، وابتعدت عن التخصّص الدقيق والابتكار والإبداع.

•••

٩٥- الكتاب: غاية النهاية في طبقات القرّاء[١]

ابن الجزري (٧٥١ – ٨٣٣ هـ / ١٣٥٠ – ١٤٣٠ م)

هو أبو الخير، شمس الدين محمّد بن يوسف العمري الدمشقي، المعروف بابن الجزري، نسبة إلى جزيرة ابن عمر الواقعة قرب الموصل. ولد في دمشق لأب تاجر صالح، وتعلّم على ابن البخاري ومحمّد الخبّاز وغيرهما. قصد القاهرة وأخذ عن علمائها؛ مثل: محمّد بن الصايغ، وعبد الرحمن البغدادي. وتوالت تنقلاّته بين دمشق والقاهرة، ثم إلى العراق، فالمدينة المنوّرة، فمكّة المكرّمة. له الكثير من المؤلّفات؛ منها: «إتحاف المَهَرة في تتمّة العشرة»، و«كتاب الأربعين في الحديث»، و«الإعلام في أحكام الإدغام»، و«تاريخ الجزري»، و«التوضيح في شرح المصابيح»، و«تحفة الإخوان في الخلف بين الشاطبيّة والعنوان»،و«غاية النهاية في طبقات القراء». وله أيضاً الكثير من الشروحات والمصنفات وبعض القصائد.

يُعَدّ «غاية النهاية في طبقات القرّاء» من الكتب الجامعة في هذا المقام. وهو اختصار لكتاب آخر لابن الجزري أوسع منه: «نهاية الدرايات في أسماء رجال القراءات». ورُتّب «غاية النهاية في طبقات القرّاء» ألفبائيّاً. وفي كل باب/ حرف، ابتدأ المؤلّف من الكُنى (جمع كُنية) كما جاءت في الكتاب، أي الأنساب والألقاب ألفبائيّاً أيضاً؛ ثمّ يليها الأبناء.

---

(١) شمس الدين بن الجزري الدمشقي، غاية النهاية في طبقات القرّاء، طبعة جديدة مصحّحة اعتمدت على الطبعة الأولى للكتاب التي عُني بنشرها ج. برجسُتراسر سنة ١٩٣٢، بيروت: دار الكتب العلميّة، طبعة أولى، ٢٠٠٦، في جزأين.

فمثلاً، في حرف الباء: يبدأ من صفحة ١٦٠ المجلّد الأوّل (الكتاب في مجلّدين) انطلاقاً من ترجمة رقم ٨١٦، أي أنّه وضع ٨١٥ ترجمة في باب الألف وحده، وانتهاءً برقم ٨٣٥. وترجمة رقم ٨١٦ خاصّة ببدر بن محمّد الجذامي؛ وينتهي باب حرف الباء برقم ٨٣٥ الخاص بترجمة بهرام الوشا، الذي يقول عنه: «كوفيّ، قرأ على محمّد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي».

ثم ينتقل إلى باب الكنى من حرف الباء؛ فيبدأ من أبي بحرية عبد الله بن قيس، وينتهي بأبي البقاء العكبري عبد الله بن بياض. وهذه المجموعة من الأعلام لا يترجم لها لسبب ما؛ ربّما لعدم توافر أي معلومات عنهم. بعد ذلك، ينتقل إلى ترجمة رقم ٨٣٦، لأبي بكر بن أحمد بن مصبح الحموي، ويستمر حتّى ترجمة رقم ٨٥٩، التي تخصّ أبا بكر القورسي. ثم يبدأ بتصنيف الأنساب والألقاب من حرف الباء؛ بدءاً من الباجي أحمد بن علي، وانتهاءً بأحمد بن محمّد بن عبد الله.

وأخيراً، ينتقل إلى الأبناء؛ فيبدأ من ابن البابوس، فتّاح بن عبد الله، وينتهي بابن البيوت أبو عبد الله، ويتدرّج حتّى يصل إلى حرف الياء، وينتهي بالأبناء ممّن يبدأون بحرف الياء (بإهمال أل التعريف)، أوّلهم ابن اليتيم، وآخرهم ابن يونس محمّد المطرز.

وهناك فهارس وافية في نهاية الجُزء الثاني، جاءت مصنّفة بحيث تبدأ بأعلام الترجمات مُرتّبة ألفبائيّاً؛ ثم تنتقل إلى فهرس آخر يشمل الكنى والأنساب والألقاب. فمثلاً: إذا شئت أن تبحث عن ابن اليتيم، وهو من الفهرس الثاني، فإنّك تجد مقابل الاسم إشارة إلى صفحتين هما ٥٦٢ و ١٠٤٣.

ومن اللافت التنظيم الممتاز للفهارس الذي جعل من الوصول إلى أي عَلَم من الأعلام سهلاً ميسوراً؛ علماً أنّه يضع مقابل كل اسم رقم الترجمة ليُسهّل الوصول إليه. فمثلاً: أبو الحسن بن كرز، رقم ترجمته ٢١٦٢. وتجدر الإشارة إلى أنّ مجمل عدد التراجم بلغ ٣٩٥٥؛ وهذه الترجمة الأخيرة تعود لأبي يعقوب الأفطس. وجاء

فيها أنّه روى الحروف عن القاسم بن عبد الواحد عن ابن كثير؛ كما روى عنه أحمد بن جبير.

وهناك دلائل على أنّ ابن الجزري أكمل الصيغة الأخيرة من كتابه سنة ٨٠٤ للهجرة. ورغم أنّه توفّي سنة ٨٣٣ للهجرة، لكنّ اسمه أُلحق بالترجمات؛ الأمر الذي يدلّ على أنّ الكتاب عُدّل بعد وفاته. كذلك، هناك ترجمة لأحمد بن محمّد العبدلي، شيخ الإقراء لزبيد، وهي ترجمة رقم ٤٧٣، يقول فيها ابن الجزري: إنّه اجتمع بصاحب الترجمة سنة ٨٢٨ للهجرة. وبذلك يتأكّد الدليل على أنّ الكتاب الذي وصلنا لم يكن المخطوط الأصليّ. ولكنّ هذا لا يقلّل من أهمّيّة الكتاب على الإطلاق؛ فحجم الترجمات وتنوّعها وبراعة فهرستها تُعدّ من الأعمال الفريدة في تراثنا.

•••

٩٦- الكتاب: الفلاكة والمفلوكون[١]

الدلجي (٧٧٠ - ٨٣٨ هـ / ١٣٦٨ - ١٤٣٥ م)

هو أحمد بن علي بن عبد الله شهاب الدين الدلجي، ولد في «دلجا» من صعيد مصر، وتعلّم في البلاد المصريّة، واشتغل بالفلسفة وبات يُشار إليه من أعلامها. ارتحل إلى دمشق، واشتهر فيها أيضاً بعلومه ومعارفه الواسعة، وعُرف بأنّه كان كثير الاستهزاء بالناس، كما كان معروفاً بالنقد اللاذع لكتّاب عصره وأعلامه. توفّي بالقاهرة. له كتب كثيرة؛ منها: «الفلاكة والمفلوكون»، موضوع هذه التلخيص، و«شرح تسهيل الفوائد لابن مالك»، و«الجمع بين التوسط للأذرعي والخادم للزركشي» مع زوائد، في مجلّدين، وغيرها.

«الفلاكة» هي كلمة فارسيّة، فالمفلوك يُراد به الرجل غير المحظوظ المُهمل من الناس لإملاقه وفقره. وما استدعى الدلجي كتابة هذا الكتاب، كما يقول في مقدّمته: «وكان المحرّك لهذه الكتابة أنّ سائلاً سأل عن السبب في علّية الفلاكة والإهمال على نوع الإنسان». فواضح أنّه بحث فكري في سبب فقر الإنسان وارتباط ذلك بالقدَريّة في أذهان الناس، إذ يبدو أنّه سعى لإظهار الأسباب الموضوعيّة الكامنة من وراء الفقر.

قسّم الدلجي كتابه إلى فصول بدأها بالتعريف بمعنى المفلوك، كما ذكرنا عن أصلها الفارسي، ثم الفصل الثاني في خلق الأعمال وبيان أنّ لا حجة للمفلوك بالتعلّق بالقضاء والقدر، والفصل الثالث في أنّ التوكّل لا ينافي التعلّق بالأسباب، والفصل الرابع في الآفات التي تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها، والفصل الخامس في أنّ

(١) www.kutub-pdf.net تمّت زيارة الموقع بتاريخ ١٦ نيسان ٢٠٢٠.

الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم، وصولاً إلى الفصل العاشر في تراجم العلماء الذين تقلّصت عنهم دنياهم ولم يحذو منها بطائل، والفصل الحادي عشر في مباحث النكبات الحاصلة للأعيان، والفصل الثاني عشر في أشعار المفلوكين، والفصل الثالث عشر في وصايا يستضاء بها في ظلمات الفلاكة.

في الفصل الخامس بعنوان: في أنّ الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم، يتحدّث عن فقر العلماء لأنّ أهل العلم لهم أنفة واستنكاف عن التجارة المبنية على السفسفة والمماحلة، أو على الإمارة لأنّها عنهم بمعزل، أو عن الفلاحة والصناعة لأنّه يلزمها المهانة والتلوث لرذائل الحيل الدنيويّة.

لذلك فإنّ أهل العلم لهم أنفة واستنكاف عن ذلك فيقعدون عن الاكتساب. ويضرب أمثلة على ذلك يبدؤها في الفصل العاشر تحت عنوان «في تراجم العلماء الذي تقلصت عنهم دنياهم ولم يحذو منها بطائل»، فيبدأ من القاضي عبد الوهاب بن علي المالكي الذي عاش في بغداد وخرج منها فقيراً فناجاها مودّعًا بقصيدة شعريّة، ثم توجه إلى مصر، ويخبرنا أنّه مات أوّل ما وصلها من أكلة اشتهاها، فأكلها بشراهة وتوفّي.

ويذكر ترجمات للعشرات من الشخصيّات المعروفة من الأدباء والعلماء الذين عاشوا حياة فقيرة مثل الترمذي الذي كان من التقلّل على حال عظيم، وتوفّي سنة ٢٩٥ للهجرة. كذلك، كانت أحوال يحيى بن علي الخطيب التبريزي إمام اللغة والنحو، والشنتريني الشاعر والناظم والناثر الذي اشتغل في الوراقة، وقال عنها:

أمّـــا الـــوراقـــة فـهـي أنـكـر حـرفـة

أوراقـــهـــا وثـمـارهـــا الـحـــــرمـان

شـبّـهـت صـاحـبـهـا بـحـــالـة إبـــرة

تـكـسـو الـــعـــراة وجـسـمـهـا عـريـان

كذلك أصاب الفقر الخليل بن أحمد الفراهيدي، إمام علم النحو، الذي استنبط العروض وأخذ عنه سيبويه، وكان صابراً على العيش الخشن الضيّق، وعلي بن أبي الحسن الحريري المتوفّى سنة ٦٤٥ للهجرة، وقطب الدين الشيرازي المتوفّى سنة ٧١٠ للهجرة، وابن دريد اللغوي البصري المتوفّى سنة ٣٢١ للهجرة، وبهاء الدين ابن النحاس الذي توفّي سنة ٦١٨ للهجرة، وعبد الله بن أحمد ابن الخشاب البغدادي، وعلاء الدين الباجي المتوفّى سنة ٧١٤ للهجرة، وغيرهم.

ولا يغفل الدلجي عن ذكر شيخ المعتزلة واصل بن عطاء المتوفّى سنة ١٣١ للهجرة، وأبي بكر النيسابوري الذي يروي عنه أنّه قال: «أتعرف من أقام أربعين سنة لم ينم الليل ويتقوت كل يوم بخمس حبّات، ثم قال أنا هو»، توفّي سنة ٣٢٢ للهجرة، وابن حزم الظاهري الذي كان كثير الوقوع في العلماء، فنفرت عنه القلوب، وتألّب عليه الفقهاء، واتّفقوا على بغضه، فأقصته الملوك وشردته عن بلادهم، حتّى انتهى إلى بادية فلات فتوفّي بها فقيراً معدماً سنة ٤٥٦ للهجرة.

ويذكر كذلك عبد الرحمن السهيلي الأندلسي، الذي قال عنه ابن خلّكان إنّه كان «يتسوّغ بالعفاف ويتبلّغ بالكفاف»، ومات سنة ٥٨١ للهجرة، والقاسم الشاطبي الأندلسي المتوفّى سنة ٥٩٥ للهجرة، الذي قال عنه الذهبي إنّه صبر على فقر شديد، وياقوت الحموي الذي صنّف كتاب «معجم البلدان»، والذي ثار عليه الناس وكادوا يقتلونه، فهرب إلى حلب ثم إلى الموصل، ووصل إليها فقيراً داثراً، ومحمّد بن يحيى الزبيدي الذي توفّي سنة ٥٥٥ للهجرة، الذي قال عنه ابن الجوزي إنّه كان يلوك نوى التمر في فمه حتّى يسدّ جوعه لأنّه لم يكن عنده شيئاً يأكله.

ويذكر أيضاً أحمد بن محمّد الميداني صاحب كتاب الأمثال، المتوفّى سنة ٤٣٩ للهجرة، ويعقوب بن إسحاق الملقب بابن السكيت اللغوي النحوي الذي قتله المتوكل، ومحمّد أبو نصر الفارابي (المعلّم الثاني) الذي عاش عيشة فقيرة، وكان يحرس بستاناً في ضواحي دمشق، وكان في أكثر لياليه يستضئ على المطالعة بقنديل، توفّي سنة ٣٣٤ للهجرة، وغيرهم.

وفي الفصل الحادي عشر يضيف مجموعة جديدة من ترجمات لعلماء وأدباء ومحدّثين وأئمّة شهيرين، مثل السهروردي وأبي حنيفة النعمان والإمام أحمد بن حنبل والبويطي وأبو عبد الله البخاري والنسائي وابن الدهان، وأغلبهم عانوا من السجن والضرب في محنة خلق القرآن أيّام الخليفة المأمون.

وفي الفصل الثاني عشر يُقدّم نماذج من بعض أشعار المفلوكين:

شغلن بكسب العلم عن مكسب الغنى

كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر

وصار لهم حظ من الجهل والغنى

وصار لنا حظ من العلم والفقر

•••

٩٧- الكتاب: السلوك لمعرفة دول الملوك[١]

المقريزي (٧٦٦ -٨٤٥ هـ / ١٣٥٦-١٤٤١م)

هو أبو العبّاس، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي، ولد في القاهرة وتوفّي فيها. أصله من بعلبك من حارة المقارزة، انتقل والده إلى القاهرة حيث تولّى بعض وظائف القضاء، وعمل في ديوان الإنشاء، وتولّى وظائف الوعظ وتدريس الحديث. صارت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق وابنه من بعده. برع المقريزي في علوم الدين وفي الأدب ونظم الشعر وفي التاريخ. له الكثير من المؤلّفات، منها: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطب والآثار»، و«السلوك لمعرفة دول الملوك»، و«الدرر المضيئة في تاريخ الدول الإسلاميّة»، و«درر العقود الفريدة في تراجم الأعمال المفيدة»، و«مختصر الكامل في الضعفاء»، و«تراجم ملوك الغرب»، و«مجمع الفرائد ومنبع الفوائد»، و«شارع النجاة»، و«تاريخ الأقباط»، و«تاريخ الجراكسة»، وغيرها الكثير.

بدأ المقريزي كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» بتقديم عن الملل التي قامت قبل الإسلام، مثل الصابئة والمجوس واليهود والنصارى، على نمط «الملل والنحل» للشهرستاني، وشرح عقائدهم والمناطق التي سكنوها، وانتهى بأنّ الممالك كانت يومذاك على خمسة أقسام: فارس وملكهم كسرى، الروم وملكهم قيصر، الترك، الهند، الصين.

أمّا بنو حام من الحبشة والزنج والبربر فلم يكن لهم ملك يعتدّون به. ثم يُعرّج على القائمين بالملّة الإسلاميّة من الخلفاء في الفصل الذي يليه، ويذكر الخلفاء الراشدين

---

(١) تقي الدين المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك؛ تحقيق محمّد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلميّة، طبعة أولى، ١٩٩٧، في جزأين.

والأحداث التي جرت في أثناء خلافتهم، وكيف قامت دولة بني أميّة وتلتها دولة بني العبّاس إلى أنْ انتهت دولتهم مع قدوم التتار إلى بغداد وقُتل المستعصم بالله، إلى أنْ أقيم خليفة في مصر لُقِب بالمستنصر بالله، وما لبث أن قتله التتار وصار الأتراك من بعده ملوكـاً لمصر.

ووصف المقريزي دولة الديلم والبويهيّين التي تأسّست في فارس، ثم ذكر دولة السلاجقة، حتّى وصل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبيّ والدولة الأيوبيّة، وهنا يبدأ بتفصيل تاريخ مصر سنة إثر أخرى بدءاً من عام ٥٦٨ للهجرة، إذ يشرح الأحداث التي جرت في تلك السنة والمعارك التي قامت مع بلاد النوبة (السودان اليوم) وينهي كل سنة بالأعلام الذين توفّوا فيها، كالإشارة إلى موت أيّوب بن شادي بن مروان الملقّب بالملك الأفضل أبي سعيد الكردي والد السلطان صلاح الدين يوسف.

وينتهي الكتاب في سنة ٦٦١ للهجرة، إذ يتوسّع المقريزي في التفصيل كلّما اقترب من نهاية الكتاب، ويدوّن أحداثها يوماً بيوم أحيانـاً، كالإشارة إلى أنّه في اليوم السابع من ربيع الآخر سار السلطان إلى بلاد الشام ودخل غزّة وتقدّم إلى مناطق الفرنجة. ويخبرنا المقريزي بمراسلات السلطان معهم والهدنة التي وقّعها معهم والمشاورات التي كانت تتمّ بينهم عند خرق الهدنة، فضلاً عن معاملات الأسرى وما إلى ذلك، ثم أخبار ركوب السلطان صوب عكّا وحصارها، واصفـاً بالتفصيل المعارك التي دارت من حولها.

ثم يصف كيف سار السلطان إلى القدس، وإلى الكرك، وكيف أحضر سلالم الخشب من السلط، والحجّارين والبنّائين والنجّارين والصنّاع من مصر ودمشق، وكيف أمّن خفارة الطريق إلى أرض الحجاز من الكرك، ثم عندما رحل إلى مصر كيف استُقبل استقبال الأبطال. وينهي المقريزي تلك السنة بالإعلان عن موت الأمير مجير الدين الكردي بدمشق، ووفاة عز الدين الحنبلي شيخ البلاد الجزريّة، ووفاة علم الدين المرسي اللوري بدمشق، ويروي كيف انتهت إليه مشيخة الإقراء عن ستين سنة.

يُعَدّ كتاب المقريزي «السلوك لمعرفة دول الملوك» من أهمّ كتب التاريخ المصري الوسيط الذي سجّل معلومات شبه يوميّة حول عصر الدولتين الأيوبيّة والمملوكيّة، معتمداً على مصادر سابقة له، فضلاً عن مشاهداته الخاصّة. وكانت مصادر المقريزي متعدّدة، مثل ابن الفرات وابن أيبك بيبرس والنويري الجزري وابن الواصل وابن عبد الظاهر وغيرهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض أجزاء هذا الكتاب طبعت ونشرت بعنوان «تاريخ السلاطين المماليك في مصر» في مجلّدين تحقيق الأستاذ الفرنسي كاترمير.

•••

٩٨- الكتاب: المُستطرَف في كلّ فنّ مُستظرِف[١]

الأبشيهي (٧٩٠ - ٨٥٢ هـ /١٣٨٨ - ١٤٤٨ م)

هو أبو الفتح، شهاب الدين محمّد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، ويُنسب إلى قرية أبشويه في مصر. درس النحو والفقه، وتعلّم في القاهرة على جلال الدين البلقيني، وغيره من فقهاء وعلماء عصره. أحبّ الأدب والتأريخ وجمع عمله «المُستطرَف في كلّ فنّ مُستظرِف» من كتب كثيرة، كان أهمّها ما جمعه من كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، وكتاب «ربيع الأبرار» للزمخشري. لشهاب الدين الأبشيهي عدّة مؤلّفات إلى جانب المُستطرَف، نذكر منها: «أطواق الأزهار على صدور الأنهار»، وأيضـًا يُعتقد أنه مؤلّف: «تذكرة العارفين وتبصرة المستبصرين»، كما يُذكر أنّه شرع في تأليف كتاب في فن الرسائل بعنوان: «في صنعة الترسّل والكتابة» ولم ينهه.

يأتي «المُستطرَف» في مجلّدين، ويتكوّن من مجموعة أبواب تصل إلى ٨٤ بابـًا، وفي الباب الواحد فصول تستلهم مقدّمة المؤلّف التي يعلن فيها أنّه جمع نوادر وأخبار وحكايات ولطائف ورقائق الأشعار وروايات تاريخيّة، بحيث جعله «مُشتملاً على كل فن ظريف». ويخبرنا صاحب المُستطرَف بنفسه أنّه نقل كثيراً عن الزمخشري من كتابه «ربيع الأبرار»، وعن ابن عبد ربّه من «العقد الفريد».

تبدأ أبواب الكتاب بالتمحور حول الإسلام، وفضل الأدباء والعلماء، والفصاحة والبلاغة والبيان وأدب الحديث، وطاعة وليّ الأمر وطرائق معاملاتهم، وفي الأخلاق

---

(١) شهاب الدين الأبشيهي، المُستطرَف في كل فنّ مُستظرِف؛ تحقيق درويش الجديدي، بيروت: المكتبة العصري، طبعة جديدة منقّحة، ٢٠٠٦، في مجلّدين.

والشرف وحسن المعاشرة، والشجاعة، والغدر، والصدق، وحب المال، والكهانة. كما يأتي الكتاب على ذكر البحار، وعجائب الأرض، والمعادن فيها؛ فضلاً عن الجوانب الإنسانيّة، مثل الغناء والعشق والأشعار والنساء والخمر والنوادر، وصولاً إلى نهاية منطقيّة لحياة الإنسان، وهي التوبة، وذكر الأمراض والموت، وينهيها بباب في فضل الصلاة على النبي.

في الباب التاسع والخمسين، على سبيل المثال، يتحدّث عن أخبار عرب الجاهليّة وغرائب أعمالهم ومعتقداتهم وعوائدهم وأكاذيبهم، مستشهداً بآيات قرآنيّة عن وأد البنات وشرب الخمر ولعب القمار في الجاهليّة، وعادات العرب العتيقة في الحج، وأديانهم في الجاهليّة، كالنصرانيّة في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، واليهوديّة في نُمير وبني كنانة وبني الحرث ابن كعب وكنده، والمجوسيّة في بني تميم، فضلاً عن عبادة الأصنام، حيث يعود في تاريخها إلى بني إسماعيل.

ويذكر الأبشيهي أوابد العرب في الجاهليّة ومعتقداتهم بشأن شجر الرتم وطائر الهامة والغيلان والتغوّل، وما إلى ذلك من تصوّرات خياليّة لا علاقة لها بالعلم، بل ينقل الكاتب تفاصيل هذه المعتقدات، وكيف يلحق الغول بالإنسان ويعتدي عليه، ولكن من دون أن يدقّق في علميّة تلك الأخبار وواقعيّتها. ويكرّر الأمر ذاته في مسألة الهواتف، وهي أن تسمع صوتاً واضحاً من جسم غير مرئي، فضلاً عن ذكر معتقدات خرافيّة لا حصر لها، الأمر الذي يجعل من الكثير من رواياته مستوجبة التحقق والتدبّر والنقد.

وفي الفصل الرابع من الباب الثالث والسبعين، يتحدّث عن النساء وكيدهن، وكيف ينبغي ألا تأتمنهن الناس على مال، ويُطالب بألا تُطلعوهن على حال، وألا تخصّوهن إلا بتدبير العيال. ولا يعترض السارد على أيّ من هذه الصفات والدعوات، ومن الواضح أنّه يعكس فكر عصر انحطاط في الحضارة العربيّة الإسلامية، حيث يقرّ بما سمع ونقل، من دون اعتراض. ويذكر شهاب الدين الأبشيهي روايات لا يصدّقها عاقل، كما جاء في روايته عن العاشق الذي أكل الأسد معشوقته، فتبع الأسد وقتله.

ونلاحظ هنا أنّ النويري (ت ٧٣٣ هجري) ذكر الرواية نفسها من قبْلِه في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب». وفي الباب الحادي والسبعين: في ذِكْر العِشق ومن بُلي به» يتابع الحديث عن العشق وما إليه من أفعال خارقة.

أمّا في الجزء الثاني، فيستهلّ الحديث عن موضوع الهجاء، ثم يتابع الحديث في الصدق والكذب، وفي برّ الوالدين، وفي صفات الخلق وذكر الحسن منهم؛ وخصّص الفصل الأوّل من الباب السادس والأربعين لرواية ما قيل في الشعر حول محاسن الأخلاق. وفي الباب الثاني والستين، يذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات مرتبة ترتيباً ألفبائيّاً، فيبدأ من الأسد وينتهي بدابة وحشيّة اسمها يَحْمور؛ ويأتي على ذكر عجائب الأرض كالجبال والمباني العظيمة ونحوها.

كما يذكر ما قيل من أشعار في وصف الفواكة والغزل، وفي ذكر أرباب الصنائع والحِرف، وفي الزجل والألغاز والنوادر، وينتهي في الأبواب الأخيرة بالحديث عن التوبة والاستغفار، وذكر الأمراض والعلل والتداوي من الأمراض، وذكر الموت والتعازي والمراثي، والصبر والزهد، وينتهي بما جاء من فضل الصلاة على رسول الله، ويذكر منها أربعين حديثاً.

ويُلاحظ من مقدّمة شارح الكتاب درويش الجديدي إدراكه الواضح أنّ عصر الأبشيهي كان عصر انحطاط للحضارة العربيّة الإسلاميّة في أواخر عصر المماليك، الذي ربّما ابتدأ مع غزو المغول لبغداد، حيث باتت تلك الفترة تُعرف «بعصر الموسوعات»، إذ شرع المؤلّفون ينقلون ما توافر لديهم ممّا بقي من كتب التراث حماية له من الضياع، وبالتالي انقطع الإبداع والابتكار، فجمع القلقشندي «صُبح الأعشى» والبغدادي «الخزانة». فهل ينطبق الكلام على موسوعتنا هذه أيضاً؟

•••

٩٩- الكتاب: تحسين القبيح وتقبيح الحسن[١]

الثعالبي (أبو زيد) (٧٨٦-٨٧٥ هـ / ١٣٨٤-١٤٧١م)

هو أبو زيد، عبد الرحمن بن محمّد الثعالبي، من أبناء ثعلب بن علي، من عرب المعقل الجعافرة. ولد بمدينة يُسر القريبة من العاصمة الجزائريّة. نشأ في بيئة علم ودين في الجزائر. انتقل إلى المغرب الأقصى، وتعلّم في مدينة بجاية أصول الدين والفقه؛ مُتتلمذاً على التلمساني، وأبي الحسن المنجلاتي، وأبي قاسم المشدالي، وغيرهم. ثم ارتحل إلى تونس، وبعدها إلى مصر، فتركيا، ومنها قصد الحجاز. قفل عائداً إلى مصر، فتونس، ولازم ابن مرزوق الحفيد التلمساني. عاد إلى الجزائر، وتولّى القضاء، وانقطع بعدها إلى الزهد والعبادة. له مؤلّفات كثيرة؛ منها: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» في أربعة أجزاء، و«حقائق التوحيد»،و«روضة الأنوار ونزهة الأخبار» في الفقه، و«جامع الهمم في أخبار الأمم»، و«جامع الأمّهات في أحكام العبادات»، و«الذهب الإبريز في غرائب القرآن والعزيز»، وغيرها.

هذا كتاب في النثر والشعر. ومع أنّه صغير لا تزيد صفحاته على٤١ صفحة، إلّا أنّ موضوعاته مشوّقة جدّاً. وهي مقسّمة تقسيماً عادلاً بين تحسين القبيح وتقبيح الحسن:

ففي تحسين القبيح، يذكر الثعالبي مثلاً ذكيّاً على تحسين قُبح الفقر – قول البحتري:

فَقر كفقر الأنبياء وغربة

وصبابة، ليس البلاء بواحد

---

(١) أبو زيد الثعالبي، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، (www.Al-Mostafa.com)؛ تمّت الزيارة بتاريخ ٢٥/ ٣/ ٢٠٢٠.

وفي تحسين تقبيح السّجن، يذكر قول علي بن الجهم:

قالوا حُبستَ، فقلتُ ليس بضائري

حبسي؛ وأيّ مهند لا يغمد

وفي تحسين تقبيح «الأيمان الكاذبة»، يذكر قولاً لابن الرومي ينشد فيه:

وإنّي لذو حلف كاذب إذا

ما اضطررت وفي الحال ضيق

وفي تحسين أحوال الوحدة والعزلة، يذكر قول القاضي أبي الحسن الجرجاني:

ما تطعّمت لذّة العيش حتّى

صرت في وحدتي لكتبي جليسا

وفي تحسين صورة البخل، يخبرنا بما أنشده عبد القادر بن عبد الوهاب البصري، مع أنّه يرى أنّها قصيدة لابن الرومي:

لا خير في المرء إذا لم يكن

يَحفظ ما يَكرم من أجله

وفي تحسين أمر البنات، يستشهد بشعر معن بن أوس المزني، قائلاً:

وفيهنّ، والأيّام يَعثرن بالفتى

خَوادم لا يمللنه، ونوائح

وفي تحسين السواد عند البشر، يذكر قول بعض الظرفاء:

يكون الخال في خد قبيح

فيكسوه الملاحة والجمال

وفي تحسين الشيب في الإنسان، يذكر قول دعبل، وهو أوّل من مدح الشيب من الشعراء:

وكـــأنّ شـيـبـي نـظـم دُرّ زاهــر

في تــاج ذي مــلــك أغـــرّ مُـتــوّج

وفي تحسين قبح الموت، يذكر قولاً لبعض الشعراء (وهو متنازع):

يُـعـجّـل تـخـلـيـص الـنـفـوس مـن الأذى

ويـبـنـي مــن الـــدار الـتـي هـي أشـرف

وفي النصف الثاني من الكتاب، يبدأ بضرب أمثلة على التقبيح في الأمور. ففي تقبيح العقلانيّة في الإنسان، على سبيل المثال، يذكر من قلائد أبي الطيب المتنبي قوله:

ذو الـعـقـل يـشـقـى في الـنـعـيـم بعقله

وأخـــو الـجـهـالـة في الـشـقـاوة ينعم

وفي تقبيح العلم، نقلاً عن ابن أبي البغل، قوله:

لـو كـنـت أجـهـل مـا عـلـمـت لـسـرّني

جـهـلـي، كـمـا قـد ســاءني مـا أعـلـم

وفي تقبيح الصبر، قول أبي القاسم الأصفهاني:

فــإنْ قـيـل لـي صـبـراً، فـلا صبر لـلـذي

غـــدا بـيـد الأيّـــام تـقـتـلـه صـبـرا

وفي تقبيح الحياء، يقول: أنشدني اليوسفي الزوزنيّ للحَرشي الرّازي:

هـــل مـــن سـبـيـل إلــى الـغِـنـى

فـقـال: طـريـقـان، الـوقـاحـة والـنـقـص

وفي تقبيح القناعة، يذكر قول البرقي:

رأّت عـزمـاتـي، وفـرط انـكـماشـي

وطـــول الـتـمـلـمـل فـــوق الـفـراش

وقـالـــت: أراك أخـــا هـمّـــة سـ

تـبـلـغـهـا، فـتـرى ذا انـتـعـــاشـي

فـهـــلا قـنـعـت ولـــم تـغـتـــرب

فـقـلـت: الـقـنـاعـة طـبـع الـمـواشـي

•••

١٠٠ - الكتاب: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان[١]

ابن الصيرفي (٨١٩ - ٩٠٠ هـ / ١٤١٦ - ١٤٩٤ م)

هو أبو الحسن، نور الدين علي بن داؤود بن إبراهيم القاهري الجوهري الحنفي، الملقّب بابن الصيرفي. أرّخ الأحداث الداخليّة في القاهرة المملوكيّة، ولازم أسواقها تاجراً، وتعلّم على علمائها ابن عربي، وابن المغيث، والمقريزي، ونصر الله العجمي، ونظام الدين الحنفي، ومحبّ الدين الحنبلي، وابن حجر الشافعي، وغيرهم. عمل في الدواوين، وعُيّن نائبًا لقاضي قضاة الحنفيّة، ثم عُزل وتولّى رئيس قضاة الحنفيّة في الشام. امتهن صنعة نسخ الكتب، فنسخ العديد من مؤلّفات ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هجري)، كما نسخ شرح قاضيه محبّ الدين بن الشحنة، وعدد من كتب المؤرخ ابن تغري بردي، وغيرها. له مؤلّفات كثيرة؛ منها: «إنباء الهصر بأبناء العصر»، و«منذ بدء الخلقية حتّى مولد النبي محمّد»، و«الجوهريّة»، و«جزء في السيرة النبويّة»، وكتب في تاريخ الخلفاء، فضلاً عن «الأنوار الجليّة في أخبار الدولة المرابطيّة»، و«تقصّي الأنباء في سياسة الرؤساء»، و«أدباء ملغة»، و«إبراز اللطائف»، وغيرها.

هو علي بن داؤود الخطيب الجوهري ابن الصيرفي، وفي مقام آخر يذكر محمّد الشربجي في دراسته، الصادرة عن معهد المخطوطات العربيّة، أنّ اسمه نور الدين أبو الحسن علي بن داؤود بن إبراهيم القاهري الجوهري الحنفي، كما أورده الشمس السخاوي في كتابه «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، وأضاف ابن إياس، مؤرّخ نهاية الدولة المملوكيّة، إلى اسم ابن الصيرفي لقب الإسرائيلي، على اعتبار أنّ أصله يهوديٌّ

(١) علي بن داؤود، ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان؛ تحقيق حسن حبشي، القاهرة: مطبعة دار الكتب، بلا طبعة، ١٩٧٠.

أسلم أجداده، ويسوق الدليل على ذلك من مهنة والده الجوهري واشتغاله هو نفسه في مهنة الصرافة.

يُعدّ ابن الصيرفي من مؤرّخي القرن التاسع للهجرة الذي حاول أن يجعل من كتابه «نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان» موسوعة تاريخيّة تغطّي الفترة الزمنيّة الواقعة بين صدر الإسلام وزمانه، أي حتّى نهايات القرن التاسع للهجرة. تظهر محلّيّة ابن الصيرفي في أسلوبه العامّي وتعبيراته المصريّة الدارجة، كذلك من خلال التعبير عن إحساسه بالظلم كمصري، رغم مدحه للسلطان وأعوانه.

ولا يقلّ ابن الصيرفي أهمّيّة عن مؤرّخي القرن الثامن للهجرة، مثل المقريزي (ت ٨٤٥ هجري)، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هجري)، والسيوطي (ت ٩١١ هجري). ولكن، ينتقده المؤرّخون من حيث أنّه كان يخرج على قواعد اللغة أحيانـًا، بل ويذهب إلى الكتابة باللغة العامّيّة، واستخدام السجع أحيانـًا أخرى.

ويشتمل كتاب «نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان» على حوادث كل سنة، ابتداءً من سنة ٧٨٤ للهجرة، مع بداية عهد السلطان الظاهر برقوق، ويختم كل عام بذكر أسماء من ماتوا في تلك السنة. وتتتابع الحوادث سنة إثر أخرى حتّى سنة ٨٠١ للهجرة، حيث يصل إلى نهاية الجزء الأوّل من الكتاب، ويستمر على المنهج نفسه في الأجزاء الأخرى، حيث يدوّن فيها تفاصيل الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، كأحوال العبيد، وأسعار القمح والشعير في ذلك العام، وأحوال نهر النيل، وذكر أمراء الحج، ومن توفّي من الشخصيّات في ذلك العام، وغير ذلك.

فعلى سبيل المثال، في حوادث سنة ٨٠١ للهجرة، يذكر أنّ تلك السنة استُهلت فيما كان المتوكل على الله خليفة المسلمين، وفي عصر كان سلطان البلاد المصريّة والشاميّة الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن أنس العثماني، ويذكر نوابه في دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد وغزّة والإسكندريّة، وغيرها من المدن والأقاليم.

وهناك فصل يذكر فيه من ُمسك من الأمراء وُسجن، وَمَن ُعزل من أرباب الوظائف. وهناك فصل آخر يذكر فيه َمن أُنعم عليه بالوظيفة، وبزيادة الإمرة، ومَن ُجدّد لهم من النوّاب والأمراء. وفي فصل آخر يذكر وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق، ويسرد ترجمته، ويعدّد لنا بعض مناقبه. لذلك، فالكتاب وثيقة شاملة بتفصيل حوادث تلك الفترة من تاريخ مصر وبلاد الشام في تلك الفترة.

•••

١٠١- الكتاب: بدائع الزهور في وقائع الدّهور[(١)]

ابن إياس (٨٥٢ – ٩٣٠ هـ / ١٤٤٨ – ١٥٢٤ م)

هو أبو البركات، زين العابدين محمّد بن أحمد بن إياس الناصري القاهري، الملقّب بأبي البركات، ولد في القاهرة من عائلة مصريّة أصولها شركسيّة. يُعَدّ من أهم مؤرّخي العصر المملوكي في نهاياته. كان جدّه الأمير إياس الفخر الظاهري من مماليك الظاهر سيف الدين برقوق، وكان أبوه أميراً أيضًا، ومن موظفي الدولة المصريّة. كتب ابن إياس الشعر، وله قصيدة جميلة ومؤثّرة تعكس مشاعره عند غزو العثمانيّين لمصر عام ١٥١٧ للميلاد الذي أنهى العصر المملوكي. وله أيضًا كتاب «نشق الأزهار في عجائب الأقطار»، ويُسمّى باسم آخر هو «خريدة العجائب وبغية الطالب»، وهو كتاب عن جغرافيّة مصر والأندلس وغيرهما، وله الكتب الأخرى الآتية: «عقود الجمان في وقائع الأزمان» و«نزهة الأمم في العجائب والحكم»، وهو تاريخ مختصر للعالم، و«مرجع الدهور» وغيرها.

عاصر زين العابدين بن إياس الحوادث التي أدّت إلى انهيار عصر المماليك الشراكسة وبداية الغزو العثماني. ويُعَدّ كتابه من أهم المصادر للمعلومات عن تلك الفترة، إذ كتب عن أخبارها بالتفصيل يومًا إثر يوم، ودوّنه في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدّهور»، الذي جاء في خمسة أجزاء وفي ستة مجلّدات.

---

(١) محمّد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدّهور؛ تحقيق محمّد مصطفى، ألمانيا – فيسبادن: فرانز شتاينر، الطبعة الأولى، بلا تاريخ، في خمسة أجزاء.

يتحدّث ابن إياس في الكتاب عن الذين حكموا مصر من الأمم الأخرى، ويصف الوفود التي وصلت إليها من الهند وتركيا وأوروبا وشمالي إفريقيا والحبشة وغيرها. كذلك امتاز كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدّهور» بأسلوب فريد في عصره، مفاده ترتيب حوادث زمانه ترتيباً تاريخيّاً، وكتبه بلغة بسيطة وواضحة مخلوطة ببعض مصطلحات من اللغة العامّيّة، مع توثيق المصادر والمراجع التي اعتمد عليها توثيقاً رصيناً.

يبدأ المؤلّف كتابه بمقدّمة يستشهد فيها بالآيات الكريمة في أخبار مصر، ثم بالأحاديث النبويّة الشريفة وأقوال الحكماء والعلماء في أخبار مصر وأهلها، وينتقل بعدها إلى اشتقاق اسم مصر وبيان معناه ويُحدد أراضي مصر جغرافيّاً من جهاتها الأربع، ويخبرنا عن عجائبها وأديارها مدينة مدينة. كذلك يُطلعنا على ديانتها وصحرائها، ويذكر كل ما تحلّت به مصر من المحاسن دون غيرها من البلاد.

ثم ينتقل إلى الحديث عن أخلاق أهلها وطبائعهم وأمزجتهم، وما قاله الشعراء من قريض في وصف مصر وأهلها، ويخبرنا أيضاً مَن حكم مصر مِن الأمم ومَن ملكها من الملوك، في أوّل الزمان وغابر العصور، منذ عهد الفراعنة إلى دولة الأقباط، حتّى دخول عمرو بن العاص الإسكندريّة وتأسيس دولة إسلاميّة فيها، ثم يشرع بعدها بإحصاء أخبارها سنة بعد سنة، بدءاً من سنة ٢١ للهجرة حتّى سنة ٧٦٤ للهجرة.

ومن الأمثلة على الأخبار التي دوّنها قوله: عندما دخلت سنة إحدى وستين وسبعمئة كانت وفاة الشيخ جمال الدين عبد الله من أعيان علماء الحنفيّة، ويَذكر كيف ارتفع منسوب مياه النيل في ذلك العام، وكيف ثبت منسوب النيل على هذه الزيادة مدة عشرين يوماً، فقلق الناس «وصاروا يدعون إلى الله في الجوامع، والمزارات، في هبوطه، وحصل بذلك غاية الضرر للناس، فانقطعت الطرقات على المسافرين، حتّى امتنعوا عن السفر، وغرقت جزيرة النيل؛ ووصل الماء إلى أطراف دور الحسينة، ونبع الماء من بيضة جامع الحاكم، من عند باب الفتوح. وجاءت أخبار بأنّ جسر الفيوم قد

انقلب وغرقت أراضي الفيوم، وغرقت دار النحّاس، وأراضي الروضة ونبع الماء من الجسر الأعظم الذي بالقرب من قناطر أسباع، وكان أمراً مهولاً، وظنّ الناس أنّ الله تعالى قد أرسل عليهم الطوفان».

•••

فهرس أسماء الكتب مرتبة ترتيباً أبجديّاً
(بإهمال أل التعريف)

- الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين بن الخطيب/ ت ٧٧٦ هـ)
- أخبار الحمقى والمغفّلين (ابن الجوزي / ت ٥٩٧ هـ)
- الأخبار الموفقيّات (ابن بكّار / ت ٢٥٦ هـ)
- أدب القاضي (ابن القاص / ت ٣٣٥ هـ)
- أدب الكاتب (ابن قتيبة الدينوري / ت ٢٧٦ هـ)
- الأدب المفرد (البخاري / ت ٢٥٦ هـ)
- آراء أهل المدينة الفاضلة (الفارابي / ت ٣٣٩ هـ)
- أشعار النساء (المرزباني / ت ٣٨٤ هـ)
- الاعتبار (أسامة بن منقذ / ت ٥٨٤ هـ)
- أعيان العصر وأعوان النصر (الصّفدي / ت ٧٦٤ هـ)
- الأغاني (أبو فرج الأصفهاني / ت ٣٥٦ هـ)
- الإفادة والاعتبار (انظر رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر)
- ألف ليلة وليلة (مجموعة مؤلّفين)
- الأمالي (القالي البغدادي / ت ٣٥٦ هـ)
- أمالي ابن دريد (ابن دريد / ت ٣٢١ هـ)
- الإمتاع والمؤانسة (التوحيدي / ت ٤١٤ هـ)

- الأمثال (قاسم بن سلاّم / ت ٢٢٤ هـ)

- أمثال العرب (المُفضّل الضّبِي / ت ١٦٨ هـ)

- إنباه الرواة على أنباهِ النّحاة (القِفطي / ت ٦٤٦ هـ)

- الأنساب (السّمعاني / ت ٥٦٢ هـ)

- بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس / ت ٩٣٠ هـ)

- البداية والنهاية (ابن كثير / ت ٧٧٤ هـ)

- البخلاء (الجاحظ / ت ٢٥٥ هـ)

- البصائر والذخائر (أبو حيّان التوحيدي / ت ٤١٤ هـ)

- بلاغات النساء (ابن طيفور (أحمد البغدادي) / ت ٢٨٠ هـ)

- بهجة المَجالِس وأنس المُجالِس (القرطبي / ت ٤٦٣ هـ)

- البيان المُغرِب (ابن عِذَاري المرّاكشي / ت ٧١٢ هـ)

- البيان والتبيين (الجاحظ / ت ٢٥٥ هـ)

- تاريخ الإسلام (الذهبي / ت ٧٤٨ هـ)

- تاريخ الأطبّاء والفلاسفة (إسحاق بن حُنين / ت ٢٩٨ هـ)

- تاريخ افتتاح الأندلس (ابن القوطيّة / ت ٣٦٧ هـ)

- تاريخ بغداد (الخطيب البغدادي / ت ٤٦٣ هـ)

- تاريخ الطبري (الطبري / ت ٣١٠ هـ)

- تاريخ مدينة دمشق (ابن عساكر / ت ٥٧١ هـ)

- تجارب الأمم وتعاقب الهمم (ابن مسكويه / ت ٤٢١ هـ)

- تحسين القبيح وتقبيح الحسَن (أبو زيد الثعالبي / ت ٨٧٥ هـ)

- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب (الغرناطي / ت ٥٦٥ هـ)

- تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (ابن بطوطة / ت ٧٧٩ هـ)

- التذكرة الحمدونيّة (ابن حمدون / ت ٥٦٢ هـ)

- التوابع والزوابع (ابن شهيد الأندلسي / ت ٤٢٦ هـ)

- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس (الحميدي / ت ٤٨٨ هـ)

- جمهرة الأمثال (أبو هلال العسكري / ت ٣٩٥ هـ)

- حيّ بن يقظان (ابن طفيل / ت ٥٨١ هـ)

- الخَراج (الأنصاري / ت ١٨٢ هـ)

- الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة (الأصبهاني / ت ٣٥١ هـ)

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (الشنتريني (ابن بسّام) / ت ٥٤٢ هـ)

- رحلة ابن بطوطة (انظر: تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)

- رحلة ابن جبير (ابن جبير / ت ٦١٤ هـ)

- رحلة ابن فضلان (ابن فضلان / ت ٣٤٨ هـ)

- رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر (الإفادة والاعتبار) (عبد اللطيف البغدادي / ت ٦٢٩ هـ)

- رسالة الغفران (أبو العلاء المعرّي / ت ٤٤٩ هـ)

- روضة المحبّين ونزهة المشتاقين (ابن قيّم الجوزيّة / ت ٧٥١ هـ)
- سراج الملوك والخلفاء (الطرطوشي / ت ٥٢٠ هـ)
- سفر نامة (ناصر خسرو / ت ٤٨٠ هـ)
- السلوك لمعرفة دول الملوك (المقريزي / ت ٨٤٥ هـ)
- سير الملوك (نظام المُلْك الطّوسي / ت ٤٨٥ هـ)
- صُبح الأعشى (القلقشندي / ت ٨٢١ هـ)
- الصّلة (ابن بَشكُوَال/ ت ٥٧٨ هـ)
- طبقات الأطبّاء والحكماء (ابن جُلجُل / ت ٣٧٧ هـ)
- الطبقات الكبير (ابن سعد / ت ٢٣٠ هـ)
- طوق الحمامة (ابن حزم الأندلسي/ ت ٤٥٦ هـ)
- العِقد الفَريد (ابن عبد ربّه / ت ٣٢٨ هـ)
- عُيون الأخبار (ابن قتيبة الدينوري / ت ٢٧٦ هـ)
- عُيون الأنباء في طبقات الأطبّاء (ابن أبي أصيبعة / ت ٦٦٨ هـ)
- غاية النهاية في طبقات القرّاء (ابن الجزري / ت ٨٣٣ هـ)
- فُتوح البلدان (البلاذري / ت ٢٧٩ هـ)
- فُتوح الشام (الواقدي / ت ٢٠٧ هـ)
- فقه اللغة (أبو منصور الثعالبي / ت ٤٢٩ هـ)
- الفلاكة والمفلوكون (الدلجي / ت ٨٣٨ هـ)

- الفهرست (النديم / ت ~ ٣٨٠ هـ) والمعروف بابن النديم
- فوات الوفيّات (الكَتبي / ت ٧٦٤ هـ)
- قلائدُ العِقيان ومحاسن الأعيان (ابن خاقان / ت ٥٢٨ هـ)
- الكامل في التاريخ (ابن الأثير / ت ٦٣٠ هـ)
- الكامل في اللغة والأدب (المُبرّد / ت ~ ٢٨٥ هـ)
- كليلة ودِمنة (ابن المقفّع / ت ١٤٢ هـ)
- مجمع الأمثال (الميداني (النيسابوري) / ت ٥١٨ هـ)
- المحاسن والمساوئ (البيهقي / ت ٤٥٨ هـ)
- المُحبّر (ابن حبيب / ت ٢٤٥ هـ)
- المخصّص (ابن سِيْدَه / ت ٤٥٨ هـ)
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان (اليافعي / ت ٧٦٨ هـ)
- مروج الذهب ومعادن الجوهر (المسعودي / ت ٣٤٦ هـ)
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (العمري/ ت ٧٤٩ هـ)
- المسالك والممالك (البكري / ت ٤٨٧ هـ)
- المُستطرَف في كل فن مُستظرِف (الأبشيهي / ت ٨٥٢ هـ)
- مشكاة الأنوار (الغزالي / ت ٥٠٥ هـ)
- معجم الأدباء (ياقوت الحموي / ت~ ٦٢٦ هـ)
- المعرفة والتاريخ (ابن الفسوي / ت ٢٧٧ هـ)

- المقابَسات (التوحيدي / ت ٤١٤ هـ)

- مقامات بديع الزمان الهمذاني (الهمذاني / ت ٣٩٥ هـ)

- مقامات الحريري (الحريري / ت ٥١٦ هـ)

- مقامات الزمخشري (الزمخشري / ت ٥٣٨ هـ)

- مقدّمة ابن خلدون (ابن خلدون / ت ٨٠٨ هـ)

- المِلل والنّحل (الشهرستاني / ت ٥٤٨ هـ)

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (ابن الجوزي / ت ٥٩٧)

- الموسيقى الكبير (الفارابي / ت ٣٣٩ هـ)

- نُزهة الألباء في طبقات الأدباء (الأنباري / ت ٥٧٧ هـ)

- نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق (الإدريسي / ت ٥٥٥ هـ)

- نُزهة النفوس والأبدان (ابن الصيرفي / ت ٩٠٠ هـ)

- نصوص عن الأندلس (ابن الدلائي العُذري / ت ٤٧٣ هـ)

- نِهاية الأرب في فنون الأدب (النويري / ت ٧٣٣ هـ)

- نِهاية الرتبة في طلب الحسبة (الشيرازي / ت ٥٨٩ هـ)

- وَفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (ابن خِلّكان / ت ٦٨١ هـ)

- يَتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (أبو منصور الثعالبي / ت ٤٢٩ هـ)

فهرس الأعلام

مرتبة ترتيباً أبجديّاً (بإهمال أل التعريف)

- ألف ليلة وليلة (مجموعة مؤلّفين)
- الأبشيهي (ت ٨٥٢ هـ) المُستطرَف في كل فن مُستظرِف
- ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ) عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء
- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ
- ابن إياس (ت ٩٣٠ هـ) بدائع الزهور في وقائع الدهور
- ابن بسّام (انظر الشنتريني)
- ابن بَشكُوَال (ت ٥٧٨ هـ) الصّلة
- ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ) تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
- ابن بكّار (ت ٢٥٦ هـ) الأخبار الموفقيّات
- ابن جُبير (ت ٦١٤ هـ) رحلة ابن جُبير
- ابن الجَزري (ت ٨٣٣ هـ) غاية النهاية في طبقات القرّاء
- ابن جُلجُل (ت ٣٧٧ هـ) طبقات الأطبّاء والحكماء
- ابن الجَوزي (ت ٥٩٧ هـ) أخبار الحمقى والمغفّلين
- ابن الجَوزي (ت ٥٩٧ هـ) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم
- ابن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) المُحبّر
- ابن حزم الأندلسي (أنظر الأندلسي)

- ابن حمدون (ت ٥٦٢ هـ) التذكرة الحمدونيّة
- ابن حُنين (إسحاق) (ت ٢٩٨ هـ) تاريخ الأطبّاء والفلاسفة
- ابن خاقان (ت ٥٢٨ هـ) قلائدُ العِقيان ومحاسن الأعيان
- ابن الخطيب (لسان الدين) (ت ٧٧٦ هـ) الإحاطة في أخبار غرناطة
- ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) مقدّمة ابن خلدون
- ابن خِلّكان (ت ٦٨١ هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
- ابن دُريد (ت ٣٢١ هـ) أمالي ابن دريد
- ابن الدلائي (العُذري) (ت ٤٧٨ هـ) نصوص عن الأندلس
- ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) الطبقات الكبير
- ابن سلام (قاسم) (ت ٢٢٤ هـ) كتاب الأمثال
- ابن سِيْدَه (ت ٤٥٨ هـ) المخصّص
- ابن شهيد الأندلسي (ت ٤٢٦ هـ) التوابع والزوابع
- ابن الصيرفي (ت ٩٠٠ هـ) نزهة النفوس والأبدان
- ابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) حيّ بن يقظان
- ابن طيفور (أحمد البغدادي) (ت ٢٨٠ هـ) بلاغات النساء
- ابن عبد ربّه (ت ٣٢٨ هـ) العقد الفريد
- ابن عِذَاري المرّاكشي (ت ٧١٢ هـ) البيان المُغرِب
- ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) تاريخ مدينة دمشق

- ابن الفسوي (ت ٢٧٧ هـ) المعرفة والتاريخ
- ابن فضلان (ت ٣٤٨ هـ) رحلة ابن فضلان
- ابن القاص (ت ٣٣٥ هـ) أدب القاضي
- ابن قتيبة (الدينوري) (ت ٢٧٦ هـ) أدب الكاتب
- ابن قتيبة (الدينوري) (ت ٢٧٦ هـ) عيون الأخبار
- ابن القوطيّة (ت ٣٦٧ هـ) تاريخ افتتاح الأندلس
- ابن قيّم الجوزيّة (ت ٧٥١ هـ) روضة المحبّين ونزهة المشتاقين
- ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) البداية والنهاية
- ابن اللبّاد (انظر عبد اللطيف البغدادي)
- ابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) تجارب الأمم وتعاقب الهمم
- ابن المقفّع (ت ١٤٢ هـ) كليلة ودِمنة
- ابن مُنقذ (أسامة) (ت ٥٨٤ هـ) الاعتبار
- الإدريسي (ت ٥٥٥ هـ) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
- إسحاق بن حُنين (انظر ابن حُنين) تاريخ الأطبّاء والفلاسفة
- الأصبهاني (ت ٣٥١ هـ) الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة
- الأصفهاني (أبو فرج) (ت ٣٥٦ هـ) الأغاني
- الأنباري (ت ٥٧٧ هـ) نزهة الألباء في طبقات الأدباء
- الأندلسي (ابن حزم) (ت ٤٥٦ هـ) طوق الحمامة

- الأنصاري (ت ١٨٢ هـ) الخَراج

- البخاري (ت ٢٥٦ هـ) الأدب المفرد

- البغدادي (عبد اللطيف) (ت ٦٢٩ هـ) رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر الإفادة والاعتبار

- البكري (ت ٤٨٧ هـ) المسالك والممالك

- البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) فتوح البلدان

- البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) المحاسن والمساوئ

- التوحيدي(أبو حيّان) (ت ٤١٤ هـ) الإمتاع والمؤانسة

- التوحيدي(أبو حيّان) (ت ٤١٤ هـ) البصائر والذخائر

- التوحيدي(أبو حيّان) (ت ٤١٤ هـ) المقابسات

- الثعالبي (أبو زيد) (ت ٨٧٥ هـ) تحسين القبيح وتقبيح الحسَن

- الثعالبي (أبو منصور) (ت ٤٢٩ هـ) فقه اللغة

- الثعالبي (أبو منصور) (ت ٤٢٩ هـ) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر

- الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) البخلاء

- الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) البيان والتبيين

- الحريري (ت ٥١٦ هـ) مقامات الحريري

- الحموي (ياقوت) (ت ٦٢٢ هـ) معجم الأدباء

- الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس

- خسرو (ناصر) (ت ٤٨٠ هـ) سفر نامة

- الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) تاريخ بغداد

- الدلجي (ت ٨٣٨ هـ) الفلاكة والمفلوكون

- الدينوري (انظر ابن قتيبة)

- الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) تاريخ الإسلام

- الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) مقامات الزمخشري

- السّمعاني (ت ٥٦٢ هـ) الأنساب

- الشنتريني (ابن بسّام) (ت ٥٤٢ هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

- الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) الملل والنحل

- الشيرازي (ت ٥٨٩ هـ) نهاية الرتبة في طلب الحسبة

- الصّفدي (ت ٧٦٤ هـ) أعيان العصر وأعوان النصر

- الضبّي (المفضّل) (ت ١٦٨ هـ) أمثال العرب

- الطبري (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الطبري

- الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ) سراج الملوك والخلفاء

- الطّوسي (نظام المُلْك) (ت ٤٨٥ هـ) سير الملوك (سياست نامه)

- العذري (انظر ابن الدلائي)

- العسكري (أبو هلال) (ت ٣٩٥ هـ) جمهرة الأمثال

- العمري (ت ٧٤٩ هـ) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

- الغرناطي (ت ٥٦٥ هـ) تحفة الألباب ونخبة الإعجاب
- الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) مشكاة الأنوار
- الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) آراء أهل المدينة الفاضلة
- الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) الموسيقى الكبير
- القالي البغدادي (ت ٣٥٦ هـ) الأمالي
- القرطبي (ت ٤٦٣ هـ) بهجة المَجالِس وأنسُ المُجالِس
- القِفطي (ت ٦٤٦ هـ) إنباه الرواة على أنباه النّحاة
- القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) صُبح الأعشى
- الكَتبي (ت ٧٦٤ هـ) فوات الوفيّات
- المُبرّد (ت~ ٢٨٥ هـ) الكامل في اللغة والأدب
- المرزباني (ت ٣٨٤ هـ) أشعار النساء
- المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر
- المعرّي (أبو العلاء) (ت ٤٤٩ هـ) رسالة الغفران
- المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) السلوك لمعرفة دول الملوك
- الميداني (النيسابوري) (ت ٥١٨ هـ) مجمع الأمثال
- النديم (ت~ ٣٨٠ هـ) الفهرست (المعروف بابن النديم)
- النويري (ت ٧٣٣ هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب
- النيسابوري (انظر الميداني)

- الهمذاني (ت ٣٩٥ هـ) مقامات بديع الزمان الهمذاني

- الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) فتوح الشام

- اليافعي (ت ٧٦٨ هـ) مرآة الجنان وعبرة اليقظان

كتب أخرى للمؤلّف

المؤلّفات العلميّة:

١- عُيوب الأبنية (عمّان: ط١، ١٩٨٦ / ط٢ ٢٠٠٢).

٢- الرطوبة والعفن في المباني (عمّان: ط١ ١٩٩٢ / ط٢ ٢٠٠١).

٣- تنمية التخلّف العربي: في ظلال سمير أمين (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٤).

٤- حوارات حول الرطوبة في الأبنية (عمّان، ٢٠٠٥).

٥- دليل الأسرة في توفير الطاقة (مكتبة الأسرة الأردنية، وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٨).

٦- علم البيئة وفلسفتها (عمّان: أمانة عمّان الكبرى، ٢٠٠٨).

٧- مخاطر اليورانيوم المشع (مترجم إلى العربيّة، ٢٠٠٨).

٨- العلم والفلسفة الأوروبيّة الحديثة: من كوبرنيق إلى هيوم (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٩).

٩- البيئة في مئتي سؤال (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٠).

١٠- رحلة في تاريخ العلم (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٠).

١١- الطاقة المتجددة في حياتنا (مكتبة الأسرة الأردنية، وزارة الثقافة، ٢٠١٠).

١٢- ظاهرة الانحباس الحراري (عمّان: أمانة عمّان الكبرى، ط١، ٢٠١٠ / عمّان: وزارة الثقافة، مكتبة الأسرة، ط٢، ٢٠١٤).

١٣- علماء النهضة الأوروبيّة (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١١).

١٤- الطاقة النوويّة...ما بعد فوكوشيما (عمّان، ٢٠١٢).

١٥- البيئة من منظور الناشئة (عمّان، ٢٠١٢، بالعربيّة والإنجليزية).

١٦- نهاية العالم على مذبح التغيّر المناخي (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٢).

١٧- الانحطاط النووي بعد فوكوشيما (مؤلّف مشارك، عمان، ٢٠١٢).

١٨- الأبنية الخضراء (الإمارات العربيّة المتحدة: مؤسسة زايد الدولية للبيئة، ٢٠١٣).

١٩- من فوضى الطاقة إلى إدارتها (عمّان: مؤسسة فريدريش أيبرت، ط١، كانون ثاني ٢٠١٤ / ط٢، كانون أول ٢٠١٥، باللغتين العربيّة والإنجليزية)

٢٠- تمكين مؤسسات المجتمع المدني حول المخاطر الاجتماعيّة والاقتصاديّة والبيئيّة للطاقة النوويّة مقابل الطاقة المتجدّدة بوصفها طاقة السلام (عمّان: مؤسسة فريدريش أيبرت، ٢٠١٥، باللغتين العربيّة والإنجليزية).

٢١- سقوط الحجاب عن الطاقة النوويّة (عمّان: الآن ناشرون وموزعون، ٢٠١٦).

٢٢- عشرة دروس من فوكوشيما (مترجم إلى العربيّة بالاشتراك، عمّان، ٢٠١٦).

٢٣- مقارنة تكلفة التقانات متدنيّة إنتاج الكربون: ما هو الخيار الأقل تكلفة (عمّان: مؤسسة فريدريش أيبرت، ٢٠١٦، باللغتين العربيّة والإنجليزيّة).

٢٤- الطاقة والإنسان والبيئة (الإمارات العربيّة المتحدة: مؤسسة زايد الدولية للبيئة، ٢٠١٦).

٢٥- العدالة البيئيّة (مخطوط، عمّان: مؤسسة فريدريش أيبرت، ٢٠١٧).

26- Philosophy Manual: A South-South Perspective UNESCO, 2014 co-author and on Scientific Committee. http://unesdoc.unesco.org/images/0022228411/002284/E.pdf

27- Green Buildings in Jordan: Appling LEED to Aqel Residence, co-author, 2018.

28- The Political and Economic Challenges of Energy in the Middle East and North Africa, Edited by David Ramin Jalilvand, Kirsten Westphal © 2018 – Routledge (Co-author of Chapter 13).

المؤلّفات الفكريّة والأدبيّة:

٢٩- أمثال شعبيّة مختارة (عمّان، ١٩٩٤).

٣٠- فلسفة التحرّر القومي العربي (مشارك، ٢٠٠٣)

٣١- عبّاس محمود العقّاد: من العلم إلى الدين (٢٠٠٣).

٣٢- حروب الفرنج ... حروب لا صليبيّة (عمّان: دار ورد ،ط١، ٢٠٠٤ / بيروت: دار الفارابي، طبعة مزيدة ومنقّحة، ٢٠٠٨) وترجم إلى الإنجليزيّة (الصالون الأندلسي – مونتريال – كندا، ٢٠١٣).

٣٣- غالب هلسا مفكّراً (مشارك، عمّان: دار ورد، ٢٠٠٥).

٣٤- إسماعيل مظهر من الاشتراكيّة إلى الإسلام (عمّان: دار ورد، ط١، ٢٠٠٥ / ط٢، حلب: دار نون، ٢٠٠٨).

٣٥- سلامة موسى: من رواد الفكر العلمي العربي المعاصر (عمّان: دار ورد، ٢٠٠٦).

٣٦- موسوعة أعلام الفكر العربي الحديث والمعاصر (عمّان: وزارة الثقافة، ط١، ٢٠٠٨ / عمّان، ط٢ معدلة ومنقحة، ٢٠١٢، ط٣ عام ٢٠١٥، ط٤ معدلة ومنقحة ٢٠١٨).

٣٧- محمّد أركون مفكّراً (مشارك، عمّان: دار يافا العلميّة، ٢٠٠٩).

٣٨- الحجاب في التاريخ (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٢).

٣٩- Heavenly Virgins, short fiction story, Macauly Publishers, London, 2019.

الجوائز التي حصل عليها المؤلّف:

- حاصل على جائزة الدولة التشجيعيّة في العلوم الهندسية لعام ١٩٩٢، واستلم الجائزة من جلالة الملك حسين شخصيّاً.

- له براءة اختراع مشتركة في مواد عازلة للحرارة والرطوبة منذ عام ١٩٩٨
- حاصل (بالاشتراك) على إحدى الجوائز الثلاث المخصّصة لأفضل البحوث المقدّمة لندوة التنمية العمرانية في المناطق الصحراوية، التي انعقدت في الرياض – السعودية بإشراف وزارة الأشغال العامّة والإسكان السعودية ٢٠٠٢.
- تم اختيار أربعة كتب «دليل المواطن في ترشيد الطاقة» و»الطاقة المتجددة في حياتنا» و»ظاهرة الانحباس الحراري» و»نهاية العالم على مذبح التغير المناخي» ضمن سلسلة مكتبة الأسرة الأردنية خلال الأعوام: ٢٠٠٨، ٢٠١٠، ٢٠١٤ وعام ٢٠١٦.
- حاصل على الجائزة الذهبية للأبنية المبنية للشرق الأوسط من بريطانيا لعام ٢٠١٠ عن البيت البيئي الأخضر في «دارة الكمالية» – عمّان.
- فاز بدرع البطل الأخضر لعام ٢٠١٠ لمجمل أعماله في العمل البيئي الأخضر من المؤسسة البريطانية الخضراء بالتعاون مع وكالة البيئة الوطنية ومعهد الصحة البيئية الإنجليزي.
- حاصل على جائزة داعية البيئة لعام ٢٠١٥ من منظمة المدن العربيّة.
- حاصل على جائزة جامعة فيلادلفيا لأفضل كتاب علمي مؤلّف «سقوط الحجاب عن الطاقة النووية» عام ٢٠١٦.

للاطلاع على قائمة منشورات وأخبار الوزارة
يُـرجى زيـارة العنــاوين التــالية:



موقـع وزارة الثقــافة الإلكتـروني
www.culture.gov.jo



رابـط صفحة وزارة الثقــافة على الفيـس بـوك
www.facebook.com/culture.gov.jo

موسوعة

ملخّصات أمّهات تُراثنا

الإنسانيّات

مئة كتاب وكتاب

تأليف: الدكتور أيّوب أبو ديّة

مراجعة وتحرير: الأستاذ الدكتور هُمام غَصيب

خمس سلاسل للنشر، متطورة وعصرية، تطلقها وزارة الثقافة الأردنية، تسد النقص في المكتبة المحلية والعربية، منشورات مهمة في حقول معرفية مختلفة، فجاءت سلسلة فكر ومعرفة التي تسعى إلى خلق الوعي والإدراك وتنمية التفكير وفهم الحقائق وسياقات التاريخ والحياة، وتفسير النتائج والتجربة الإنسانية، وخلق التأمل الفلسفي ضمن آليات المنطق والتحليل العلمي. وسلسلة الفلسفة للشباب بهدف تشجيع الأجيال الجديدة للإفادة من مناهج الفلسفة في فهم العالم المعاصر، وتوعية الرأي العام بأهمية الفلسفة، واستخدامها نقديا لمعالجة طروحات العولمة وعصر الحداثة. وسلسلة الكتاب الأول التي تُعنى بنشر الكتاب الأول للمؤلفين؛ كباكورة لأعمالهم المستقبلية، مع مراعاة الإبداعية والشروط الكتابية الناضجة. وسلسلة سرد وشعر التي تُعنى بالكتابات الشعرية والسردية المهمة، المغايرة والمختلفة في الطرح والشكل، ذات الجودة والمكانة في تحقيق إضافة نوعية للمكتبة المحلية والعربية. وسلسلة شغف، تختص بالمخطوطات الموجهة للطفل، شعراً ونثراً، تراعي حاجات الطفل الفكرية والنفسية والوجدانية، وتحقق شروطها الفنية والجمالية والإبداعية.




9789923133545

هاتف: 5696218 962 + فاكس: 5691640 962 + ص.ب: 6140 عمّان - الأردن
E-mail: moc@culture.gov.jo websaite: www.culture.gov.jo

هذا الكتاب متوفر على منصة الكتبا الإلكترونية
التابعة لوزارة الثقافة الأردنية.